على إنجازه، ويُبرز قول الآخر بإشارة يُستدلّ بها على إبرازه؛ وإلا فهو حاطب ليلٍ لا يدري
أين يفجأه الصباح، وراكب سيل لا يعرف الغدوّ من الرّواح.
وأما من ينسخ التاريخ - فإنه يحتاج إلى معرفة أسماء الملوك وألقابهم ونعوتهم وكُناهم،
خصوصاً ملوك العجم والترك والخوارزمية والتتار فإن غالب أسمائهم أعجمية لا تُفهم إلا
بالنقل، ويحتاج الناسخ إذا كتبها إلى تقييدها بضوابط وإشارات وتنبيهات تدل عليها؛
وكذلك أسماء المدن والبلاد والقرى والقِلاع والرساتيق والكوَر والأقاليم، فينبّه على ما
تشابه منها خطاً واختلف لفظاً وما تشابه خطاً ولفظاً واختلف نِسبة، نحو مرْو ومَرْو؛
إحداهما مرْو الروذ، والأخرى مرْو الشاهجان؛ والقاهرة، والقاهرة؛ إحداهما القاهرة
المعِزية، والأخرى القلعة القاهرة التي هي بزوزن التي أنشأها مؤيد الملك صاحب كرمان،
فإن الناسخ متى أطلق اسم القاهرة ولم يميّز هذه بمكانها ونسبتها تبادر ذهنُ السامع إلى
القاهرة المُعِزية لشهرتها دون غيرها،
وأما في أسماء الرجال، فمثل عبيد الله بن زياد، وعبيد الله بن زياد، فالأول عبيد الله بن
زياد بن أبيه، وزياد هذا، هو ابن سمية الذي ألحقه معاوية بن أبي سفيان بأبيه، واعترف
بأخوته، وكان عبيد الله هذا يتولى أمر العراق بعد أبيه إلى أيام مروان بن الحكم؛ والثاني
عبيد الله بن زياد بن ظَبيان؛ وخبرهما يشبه مسائل الدور، فإن عبيد الله بن زياد بن أبيه
قتله المختار بن أبي عبيد الثقفي والمختار بن أبي عبيد قتله مصعب بن الزبير، ومصعب
بن الزبير قتله عبيد الله بن زياد بن ظَبيان؛ فإذا لم يميز كل واحد منهما بجده ونسبه أشكل
ذلك على السامع وأنكره ما لم تكن له معرفة بالوقائع، واطلاع على الأخبار؛ فأمثال ذلك
وما شاكله يتعين على الناسخ تبيينه، وكذلك أسماء أيام العرب، نحو أيام الكُلاب بضم
الكاف، وأيام الفِجار بكسر الفاء وبالجيم، وغير ذلك، فينبه على ذلك كله، ويشير إليه بما
يدل عليه.
وأما من ينسخ الشعر - فإنه لا يستغني عن معرفة أوزانه، فإن ذلك يعينه على وضعه على

أصله الذي وُضع عليه؛ ويحتاج إلى معرفة العربية والعَروض ليقيم وزن البيت إذا أشكل
عليه بالتفعيل، فعلم هل هو على أصله وصفته أو حصل فيه زِحاف من نقصٍ به أو زيادة،
فَيثبته بعد تحريرِه، ويضعَ الضبط في مواضعه، فإن تغييره يُخلّ بالمعنى ويفسده، ويحيله عن
صفته المقصودة؛ فإذا عرف الناسخ هذه الفوائد وأتقنها، وحرّر هذه القواعد وفتّنها،
وأوضح هذه الأسماء وبيّنها، وسلسل هذه النساب وعنعنها؛ ... ... والمرغوب في
علمه وكتابته، فليبسط قلمه عند ذلك في العلوم، ويضع بن المنثور والمنظوم؛ ولنذكر كتابة
التعليم.
ذكر كتابة التعليم وما يحتاج من تصدي لها إلى معرفته وكتابة
التعليم تنقسم إلى قسمين:
تعليم ابتداء، وتعليم انتهاء
فأما تعليم الابتداء - فهو ما يعلّمه الصبيان في ابتداء أمرِهم؛ وأول ما يبدأ به المؤدب من
تعليم الصبي أن يُكتبه حروف المعجم المفردات؛ فإذا علمها الصبي وعرف كيف يضعها،
وميّز بين المعجم والمهمل منها امتحنه المؤدب بتقطيعها وسؤاله عنها على غير وضعها، مثل
أن يسأله عن النون، ثم الجيم، والضاد ونحو ذلك؛ فإذا أجابه عما فرّقه وعكسه عليه من
ذلك أنه أتقن هذه الحروف فيهنجيه الحروف بعد ذلك حرفاً حرفاً، كل حرف وهجاءه في
المنصوب والمجرور والمرفوع والمجروم، فإذا عرف هجاء هذه الحروف وأتقنه، وامتحنه نحو
ما تقدّم جمع له بعد ذلك كل حرف إلى آخر كتابه، من الباء والجيم والدال والراء والسين
والصاد والطاء والعين والفاء والكاف واللام والميم، يبدأ بالباء مع الألف وما بعدها ثم
يُكتبه البسملة، ويأخذ في تدرجه في الكتابة، وتدريبه في استخراج الحروف بالهجاء وما
يتولد منها إذا اجتمعت، إلى أن يقوى فيها لسانه ويده، ويقرأ ما يُكتب له، ويكتب ما يُقترح
عليه من غير منبه له ولا مساعد؛ فهذه كتابة الابتداء؛ ولا ينبغي أن يتصدى لها إلا من
اشتهرت ديانته وحسن اعتقاده والتزامه طريق السنة، ومن كان بخلاف ذلك، أو ممن طُعن
فيه بوجه من وجوه المطاعن وجب على ناظر الحِسبة منعه.

وأما تعليم الانتهاء - فهو كتابة التجويد، وهي أصل جميع ما قدّمناه من الكتابات، ويحتاج
من تصدى لها إلى إتقان أقلام الكتابة، ومعرفة أوضاعها على ما وضعه الوزير أبو علي بن
مقلة حين عرّب الخط ونقله من الكوفية إلى التوليد، ثم عمدته على طريق علي بن هلال
الكاتب المعروف بابن التواب وما وضعه من أقلام الكتابة، ومعرفة الأقلام الأصول الخمسة،
وهي قلم المحقق، وقلم النسخ وقلم الرِّقاع، وقلم التواقيع، وقلم الثلث؛ فهذه الأقلام الخمسة
هي الأصول؛ ثم لتفرع عنها أقلامٌ أخر نذكرها بعد إن شاء الله تعالى؛ وقد ذكر لهذه
التسمية أسباب واشتقاقات، فقالوا: إن قلم المحقق إنما سمي بذلك لأنه أصل الكتابة، وهو
يحتاج إلى التحقيق في وضع الحروف وتركيبها؛ وقلم النسخ؛ لأنه تُنسخ به الكتب ولذلك
وُضع بحيث أن الكتب لا تحسُن كتابتها بغيره، لاعتدال أسطره، ودقة حروفه والتئام
أجزائه؛ وقلم الرقاع لأنه وضع لكتابة الرقاع المرفوعة في الحوائج؛ ألا ترى ما على الرقاع به
من البهجة؟ ولو كُتبت بغيره ما حسُن موقعها من النفوس؛ وقلم التواقيع لأنه وضع لتكتب
به التواقيع الصادرة عن الخلفاء والملوك؛ وقلم الثلث لكتابة المناشير التي تُكتب في قطع
الثلث؛ هذا ما قيل في سبب تسمية هذه الأقلام بهذه الأسماء.
وأما ما يتفرع عن هذه الأقلام الخمسة التي ذكرناها - فلكل قلم منها غليظٌ وخفيفٌ
ومتوسّط، فقلم المحقق يتفرع عنه خفيفه، ويتفرع عنه أيضاً قلم الريحان؛ وقلم النسخ يتفرع
عنه قلم المتن، وهو غليظه، وقلم الحواشي وهو خفيفه، وقلم المنثور، وهو الذي يفصل بين
كل كلمة وكلمة ببياض؛ وقلم الرقاع يتفرع عنه قلم الغبار، وهو خفيفه، وينزل منه بمنزلة
الحواشي من النسخ، وهو الذي تُكتب به الملطفات والبطائق، ويتفرع عنه أيضاً قلم المقترن،
وهو ما يُكتب سطرين مزدوجين، وقد يُكتب بغير قلم الرقاع، لكن لم تجر عليه هذه
التسمية، وفي الرقاع مسلسل؛ وقلم التواقيع منه ما هو مسلسل، وهو ما يتصل بعض حروفه
ببعضٍ بتشعيراتٍ رقيقة تلتف على الحروف؛ وقلم الثلث يتفرع عنه وعن المحقق جميعاً قلم

يسمى قلم الأشعار؛ ولهم أيضاً قلم الذهب، وهو قد يكون تارة ثلثا وتارة تواقيع إلا أنه
يكون خالياً من التشعير بسبب ترميكه باللون المغاير للون الذهب، والترميك هو أن يحبس
الحرفُ بلون غير لونه بقلمٍ رقيقٍ جداً؛ ولهم أيضاً قلم الطومار ومنه كامل وغير كامل،
فالكامل: الذي إذا جُمعت الأقلام كلها كانت في غلظه وهو الذي يكتب به على رؤوس
الدروج؛ وغير الكامل، هو الطومار المعتاد؛ فهذه هي الأصول وما يتفرع عنها. ولهم أيضاً
أسماء أخر، منها قلم الطور وقلم المنهج، وقلم الطمغاوات، وأسماءٌ غير هذه اصطلح عليها
الكتاب؛ فإذا أتقن الكاتب ما ذكرناه من هذه الأقلام وحرّرها، وعرف أوضاعها
وقواعدها، وكيفية وضع الحروف وموضع ترقيقها وتغليظها، والمكان الذي تُكتب فيه بسن
القلم وبصدره، وأين يضع الحرف الآخر منه، إلى غير ذلك من شروطها وقواعدها،
واتصف بما قدمناه في المؤدب من الديانة والخير والعفة وحسن الطريقة وصحة الاعتقاد
والتزام السنة، فقد استحق أن يتصدى للتعليم والإفادة، ويتعين على الطالب والرجوع إليه،
والاقتداء بطريقته، والكتابة على خطه والتزام توقيفه.

الفن الثالث

الحيوان الصامت

قد جمعت في هذا الفن - أعزك الله تعالى - من أجناس الحيوان بين الكاسر والكاشر،
والنافر والطائر؛ والصائد والصائل، والناهق والصاهل؛ والحامل والحالب، واللاذع واللاسب؛
والكانس والسانح، والراسخ والسائح؛ فمن أسدٍ انفرد عظماً بنفسه، وترفّع عن الإلمام بما
سواه من جنسه؛ إن وطئ أرضاً مالت الوحوش عن آثاره، أو قصد جهة نفرت من جواره؛
وإن فغر فاه أبرز المُدى وإن مد خطاه قرّب المدى؛ ونمرٍ حديد الناب، موشّى الإهاب؛
وفهدٍ سريع الوثوب والاختطاف، وكلب إن طفئت النيران فهو الجالب للأضياف؛ وضَبُعٍ إن
رأت قتيلاً طافت به ومالت إليه، وذئب ما رأى بصاحبه دماً إلا أغار عليه؛ إلى غير ذلك
من أنواع الوحوش والآرام، والخيل والبغال والأنعام؛ وذوات السموم القواتل منها وغير القواتل،

وأصناف الطير التي تكون تارة محمولة وتارة حوامل؛ وآونة تختطف من الهواء، وحالة
تقتنص الوحشَ من البيداء؛ وما شاكل منها الكلب والبهيمة، وما حُبس لسماع صوته
فعلت قيمتُه كل قيمه؛ وما ينوح وما يغرد، وما يتلو ويردد؛
وميزت كل حيوان منها بمحاسنه
ومناقبه، ونبذته بمعايبه ومثالبه؛ ولولا خشية الإطالة، لوصفت كل حيوان منها برساله؛
لكني استغنيت بما ألّفه من منقولي، عما أصنّفه من مقولي؛
وعلمت أنني أقصُر عن حق
هذه الرتبة فأحجمت وأقف دون بلوغ هذه الحلبة فأمسكت؛ وقد تقدمني من بالغ في هذا
وأطنب ووجد المقال فبسط القول وأسهب، وحاز المعاني فما ترك لسواه مذهب؛
فاختصرتُ عند ذلك المقال، واقتصرت عل هذه النُّبذة التي أشبهت طيف الخيال؛
ووضعته على أحسن ترتيب، ورتبته على أجمل تقسيم وتبويب؛ وهو يشتمل على خمسة
أقسام.
القسم الأول وفيه ثلاثة أبواب
السباع وما يتصل بها
الباب الأول
الأسد والبَيْر والنمر
ولنبدأ بذكر أسماء الأسد، ثم نذكر ما قيل في أصناف الآساد وأجناسها وعاداتها في
افتراسها، وما فيها من الجراءة والجبن، وما وُصف به الأسد نظماً ونثراً ثم نذكر ما سواه،
فنقول - وبالله التوفيق -:
أما أسماء الأسد - فقد بسط الناس فيها القول وزادوا، فمنهم من عدّله ألف اسمٍ فما
دون ذلك، وقد اقتصرنا منها على أشهرها.
فمن أسمائه: الأسد، والأنثى أسَدَة ولبؤة؛ والشِّبل والحفص: جَرْوه؛ والشبلة والحَفْصة:
الأنثى؛ وكناه: أبو الأشبال، وأبو الحارث؛ ومن أسمائه الأعلام: بيهس، وأسامة، وهرثمة،
وكهمس؛ ومن صفاته: الصم، والصمة، والمصدّر والصمصامة، والهِزبر، والقسورة،
والدَلهمس، والضيغم، والغضنفر، والهمام والدوكس،
والدوسك، والعلندس، والعنابِس،
والسِّيد، والدِّرباس، والفُرافِر والقُصاقِص، والقُضاقِض،
والرئبال، والضّيثم؛ والخُنابس،

وعثمثم، والخُنابِش: اللبؤة إذا استبان حملها، وكذلك الآفل؛ والهَرِس: الشديد المراس.
وأما لأصناف الآساد وأجناسها - فالذي يعرفها الناس منها صفتان: أحدُهما مستدير
الجُثة، والآخر طويلُها، كثير الشعر؛ وعدّ أرسطو من هذا النوع ضروباً كثيرة، حكى عن
بعض من تكلم في طبائع الحيوان قبله أن في أرض الهند سبعاً - سماه باليونانية - في عِظَم
الأسد وخلقته، ما خلا وجهه فإنه شبيه بوجه الإنسان ولونه شديد الحمرة، وذنبه شبيه
بذنب العقرب، وفي طرفه حُمة، وله صوت يشبه صوت الزمارة وهو قوي، ويأكل الناس؛
وذكر أن من السباع ما يكون في عِظَم الثور وفي خلقته، له قرونٌ سود، طويلُها، في قدر
الشبر، إلا أنه يحرّك الفك الأعلى كما يحرّكه الثور، ولرجليه أظلاف مشقوقة، وهو قصير
الذنب بالنسبة إلى نوعه، ويحفر الأرض بخرطومه، ويستفّ التراب، وإذا خرج هرب، فإن
طُلب رمح برجليه، ورمى برجيعه على بعد.
وأما عاداتها في حملها ووضعها وحضانتها - فقد قال صاحب كتاب مباهج الفكر
ومناهج العبر: إن أصحاب الكلام في طبائع الحيوان يقولون: إن اللبؤة لا تضع إلا جرواً
واحداً، وتضعه بضعة لحم ليس فيها حس ولا حركة فتحرسه من غير حضانة ثلاثة أيام،
ثم يأتي أبوه بعد ذلك فينفخ في تلك البضعة المرة بعد المرة حتى تتحرك وتتنفس وتنفرج
الأعضاء وتتشكل الصورة، ثم تأتيه أمه فترضعه ولا يفتح عينيه إلا بعد سبعة أيام من
تخليقه؛ واللبؤة ما دامت ترضع لا يقربها الذكر البتة؛ فإذا مضى على الجرو ستة أشهر
كلف الاكتساب بالتعليم والتدريج وطارد الذكر الأنثى، فإن كانت صافراً أمكنته من نفسها،
وإن لم تكن كذلك منعته ودفعته عن نفسها، وبقيت مع جروها بقية الحول وستة أشهر من
الثاني، وحينئذ تألف الذكر وتمكنه من نفسها؛ والله أعلم.
وأما عادتها في وثباتها وأفعالها وصبرها وسرعة مشيها وأكلها - فإن للأسد من بعد
الوثبة، واللصوق بالأرض، والإسراع في الحُضر إذا هرب، والصبر على الجوع، وقلة الحاجة
إلى الماء، ليس لغيره من السباع؛ قالوا: وربما سار في طلب القوت ثلاثين فرسخاً، ولا يأكل

فريسة غيره من السباع، وإذا شبع من فريسته تركها، ولم يُعْد إليها ولو جهده الجوع، وإذا
أكل أكلة يقيم يومين وليلتين بلا طعام لكثرة امتلائه، ويلقيه بعد ذلك شيئاً يابساً مثل جَعْر
الكلب، وإذا بال رفع إحدى رجليه كالكلب، وإذا فقد أكله صعُب خُلقه. وإذا امتلأ
بالطعام فهو وادع، وأكل الجيف أحب إليه من أكل اللحم الغريض الغض، وهو لا يفترس
الإنسان للعداوة ولكن للطّعم فإنه لو مر به وهو شبعان لم يتعرض له، وهو ينهس ولا يمضغ،
ويوصف بالبخر، ولحم الكلب أحب اللحمان إليه، ويقال: إن ذلك لحنقه عليه، فإنه إذا أراد
التطواف في جنبات القرى ألحّ الكلب في النباح عليه والإنذار به، فينهض الناس ويتحرزون
منه، فيرجع بالخيبة، فهو إذا أراد ذلك بدأ بالكلب ليأمن إنذاره؛ ومن شأنه أنه إذا أكثر من
أكل اللحم وحسو الدم وحلت نفسه منهما، طلب الملح ولو كان بينه وبين عريسته خمسون
ميلاً.
وأما ما في الآساد من الجراءة والجبن - فجرائته معروفة مشهورة، غير منكوره، فمنها أنه
يقبل على الجمع الكثير من غير فزع ولا اكتراث بأحد ولا مهابة له، وقد شاهدت أنا ذلك
عياناً، وهو أنني ركبت ليلة في شوال سنة اثنتين وسبعمائة من بيسان الغَوْر إلى قراوي في
نحو خمسة عشر فارساً وجماعة من الرجال بالقسي والتراكيش - وكانت ليلة مقمرة –
فعارضنا أسد، ثم بارانا وسايرنا على يمنة طريقنا عن غير بعد، بل أقرب من رشقة حجر،
لا أقول: من كفّ قويّ فكان كذلك مقدار ربع ليلة، فلما أيس من الظفر بأحد منا لتيقظنا
قصّر عنا، ثم تركنا إلى جهة أخرى. قالوا: والأسد الأسود أكثر جراءة وجهالة وكلباً على
الناس؛ قالوا: وإن أجئ الأسد إلى الهرب أو أحس بالصيادين تولى وهو يمشي مشياً رفيقاً،
وهو مع ذلك متلفت يظهر عدم الاكتراث، فإن تمكن منه الخوف هرب عجلاً حتى يبلغ
مكاناً يأمن فيه، فإذا علم أنه أمن مشى متئداً، وإن كان في سهل وألجئ إلى الهرب جرى
جرياً شديداً كالكلب، وإن رماه أحدٌ ولم يصبه شد عليه، فإن أخذه لم يضره، وإنما يخدِشه

ثم يخليه، كأنه منّ عليه بعد الظفر به وهو إذا شم أثر الصيادين عفا أثره بذنبه.
وأما جبنه - فمنه أنه يُذعر من صوت الديك، ومن نقر الطست وحس الطنبور، ويفزع من
رؤية الحبل الأسود والديك الأبيض والسنور والفأرة، ويدهش لضوء النار، ويعتريه ما يعتري
الظباء والوحوش من الحيرة عند رؤيتها وإدمان النظر إليها والتعجب منها، حتى يشغله
ذلك عن التحفظ والتيقظ. قالوا: والأسد لا يألف شيئاً من السباع، لأنه لا يرى له فيها
كفؤاً فيصحبه، ولا يطأ شيء منها على أثر مشيه، ومتى وُضع جلد الأسد مع سائر
جلودها تساقطت شعورها؛ والأسد لا يدنو من المرأة الطامث، وهو إذا مس بقوائمه شجر
البلوط خدر ولم يتحرك من مكانه، وإذا غمره الماء ضعف وبطلت قواه، فربما ركب الصبي
على ظهره وقبض على أذنيه ولا يستطيع عن نفسه دفاعاً؛ وأخبرني بعض من سكن غور
الشأم أن بعض الغسوارنة رأى أسداً في بعض الأيام وهو رابض على حافة نهر الأردن،
وظهره إلى الماء وذنبه فيه، وهو يرش على ظهره وجنبيه بذنبه وكان الغوري من جانب
الشريعة الآخر فبادر بعبور الماء، وعدّى إلى جهة الأسد برفق وسكون حتى صار وراءه،
ثم قبض الغوري على مرقّيْ فخذي الأسد وجذبه إلى الماء، فهم الأسد بالوثوب وضرب
الأرض بيديه، فانسحل الرمل من تحتمهما، ولم يستطع إثباتهما عليه، فانحدر إلى الماء،
وركبه الغوري، وقبض على أذنيه، وضربه بسكين معه فقتله؛ والغورانة تتحيل على قتل
السباع بأمور كثيرة مواجهة، والذي وقع لهذا الرجل نادر الوقوع لم أسمع أنه وقع لغيره، وهو
أمر مستفاض عند الغورانة.
قالوا: والأسد لا تفارق الحمى، ولذلك الأطباء يسمونها داء الأسد، وعظامه عاسية
جداً، وإن دلك بعضها ببعض خرجت منها النار كما تخرج من الحجارة وكذلك في جلده
من القوة والصلابة ما لا يعمل فيه السلاح إلا من مراقّ بطنه؛ والأسد طويل العمر؛ وقال
الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا: إن شحم الأسد يحلل الأورام الصلبة.
وصف الأسد

قال أبو زُبيد الطائي يصفه لعثمان بن عفان - رضي الله عنه - وكان قد لقيه: أقبل
يتضالع من بغيه، ولصدره تحيط، ولبلاعيمه غطيط؛ ولطرفه وميض ولأرساغه نقيض؛ كأنما
يخبط هشيماً، أو يطأ صريماً؛ وإذا هامة كالمجن، وخد كالمسن؛ وعينان سجراوان، كأنهما
سراجان؛ وقصرة ربله، ولهزمة رهله؛ وساعد مجدول وعضد مفتول؛ وكف شثنة البراثن،
ومخالب كالمحاجن؛ وفم أشدق كالغار الأخرق؛ يفتر عن معاول مصقوله، غير مفلوله؛
فهجهجنا به ففرفر وبربر، ثم زأر فجرجر؛ ثم لحظ فخلت البرق يتطاير من جفونه، عن
شماله ويمينه؛ فأرعشت الأيدي، واصطكت الأرجل؛ وجحظت العيون، وساءت الظنون،
ولحقت الظهور بالبطون.
ووصفه بعض الأعراب فقال: له عينان حمراوان مثل وهج الشرر، كأنما نقرتا بالمناقير في
عرض حجر؛ لونه ورد، وزئيره رعد؛ هامته عظيمه، وجبهته شتيمه؛ نابه شديد؛ وشره
عتيد؛ إذا استقبلته قلت: وإذا استدبرته قلت: أفرع؛ لا يهاب إذا الليل عسعس، ولا يجبن
إذا الصبح تنفس؛ ثم أنشد:

عبوس شموس مصلخد مكابر جريء على الأقران للقرن قاهر
براثنه شُثن وعيناه في الدجى كجمر الغضى في وجهه الشر طائر
يدل بأنياب حداد كأنها إذا قلّص الأشداق عنها خناجر

ومن التهويل في وصف الأسد قول الشاعر

إياك لا تستوش ليثاً مخدرا! للهول في غشق الدجى دوّاسا
مَرِساً كأمراس القليب جدوله لا يستطيع له الأنام مِراساً
شثن البراثن كالمحاجن عطّفت اظفاره فتخالها أقواساً
لان الحديد لجلده فإهابه يكفيه من دون الحديد لباسا
مصطكة أرساغه بعظامه فكأن بين فصولها أجراسا
وإذا نظرت إلى وميض جفونه أبصرت بين شفورها مقباسا

وقال آخر:

توق - وقاك رب الناس - ليثاً حديد الناب والأظفار وردا
كأن بملتقى اللحيين منه مذرّبة الأسنة أو أحداً
وتحسب لمح عينيه هدوءاً ورجع زئيره برقاً ورعدا
تهاب الأسُد حين تراه منه إذا لاقينه في الغاب فردا
تصد عن الفرائس حين يبدو وكانت قبل تأنف أن تصدّا

وقال أبو الطيب المتنبي - رحمه الله -:

ورد إذا ورد البحيرة واردا ورد الفرات زئيره والنيلا
متخصب بدم الفوارس لابس في غيله من لبديته غيلا
في وُحْده الرهبان إلا أنه لا يعرف التحريم والتحليلا
وقعت على الردن منه بلية نظمت بها هام الرفاق تلولا
يطأ البري مترفقاً من تيهه فكأنه أس يجس عليلا
ويرد غُفرته إلى يافوخه حتى تصير لرأسه إكليلا
فصرت مخافته الخُطا فكأنما ركب الكمي جواده مشكولا

وقال عبد الجبار بن حمديس:

وليث مقيم في غياض منيعة أمير على الوحش المقيمة في القفر
يوسّد شبليه لحوم فوارس ويقطع كاللص السبيل على السفر
هزبرله في فيه نار وشَفرة فما يشتوي لحم القتيل على الجمر
سراجاه عيناه إذا أظلم الدجى فإن بات يسري باتت الوحش لا تسري
له جهة مثل المجنّ ومعطس كأن على أرجائه صبغة الحبر
يصلصل رعد من عظيم زئيره ويلمع برق من حماليقه الحمر
له ذنب مستنبط منه سوطه ترى الأرض منه وهي مضروبة الظهر
ويضرب جنبيه به فكأنما له فيهما طبلٌ يحض على الكر
ويضحك في التعبيس فكّيه عن مدي نيوبٍ صلابٍ ليس تهتم بالفهر
يصول بكف عرض شبرين عرضها خناجرها أمضى من القُضُب البُتْر
يجرّد منها كل ظُفر كأنه هلال بدا للعين في أول الشهر

وقال بشر بن عَوانة الفقعسي يصف ملاقاته الأسد وما كان بينهما:

أفاطم لو شهدت ببطن خبت وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
إذاً لرأيت ليثاً رام ليثاً هِزَبرا أغلبا لاقى هزبرا
تبنهس إذ تقاعس عنه مهرى محاذرة فقلت: عُقرت مهرا
أنِلْ قدميّ ظهر الأرض إني وجدت الأرض أثبت منك ظهرا
وقلت له وقد أبدى نِصالاً مذرّبة ووجهاً مكفهرا
يدلّ بمخطب وبحد ناب وباللحظات تحسبهن جمرا
وفي يمناي ماضي الحد أبقى بمضربه قراع الموت أثْرا
ألم يبلغك ما فعلت ظباه بكاظمة غداة لقيت عمرا
وقلبي مثل قلبك لست أخشى مصاولةً ولست أخاف ذُعرا
وأنت تروم للأشبال قوتا واطلب لابنة الأعمام مهْرا
ففيم تروم مثلي أن يولّى ويترك في يديك النفس قسرا؟!
نصحتك فالتمس يا ليث غيري طعاماً إن لحمي كان مرّا
ولما ظن أن الغش نصحي وخالفني كأني قلت هُجرا
دنا ودنوت من أسدين راما مراماً كان إذ طلباه وعرا

يكفكف غيلة إحدى يديه ويبسط للوثوب عليّ أخرى
هززت له الحسام فخلت أني شققت به من الظلماء فجرا
حساماً لو رميت به المنايا لجاءت نحوه تعطيه عذرا
وجدت له بجائفةٍ رآها بمن كذبته ما منّته غَدرا
بضربة فيصلٍ تركته شفعا زكان كأنه الجُلمود وَترا
فخر مضرّجاً بدمٍ كأني هدمت به بناء مشمخرّا
وقلت له: يعزّ عليّ أني قتلت مناسبي جَلدا وقهرا
ولكن رمت شيئاً لم يرمُهُ سواك فلم أطق يا ليث صبرا
تحاول أن تعلمني فِراراً لعمري أبيك قد حاولت نُكرا
فلا تبعد لقد لاقاك حرٌّ يحاذر أن يعاب فمتّ حرّا
وأما اليَرْبوع وما قيل فيه - فهو شبُعٌ هندي، ويقال: حبشي؛ وهو في صورة أسد كبير،
أزبَّ ملمع بصفرة وسواد، ويقال: إنه متولّد بين الزبرقان واللبؤة؛ وفي طبعه أنه يسالم النمر
وغيره من السباع ما لم يستكلب، فإذا استكلب خافه كل شيء كان يسالمه، وهو والأسد
متوادّان أبداً، ومودّته معه كمودة الخنافس والعقارب والحيّات والوزغ؛ ويقال: إن الأنثى منه
تلقح بالريح، ولهذا يقال: إن عدوه يشبه الريح سرعة، ولا يقدر أحدٌ على صيده؛ وإنما
تسرق جراؤه فتحمل في مثل القوارير من زجاج، ويُركض بها على الخيول السوابق، فإن
أدركهم أبوها رُمي إليه بقارورة منها، فيشتغل بالنظر إليها والفكرة في إخراج جِروه منها،
فيفوته الآخذ لها؛ وزعم قومٌ أنه إذا استكلب ورآه الأسد رقد له حتى يبول في أذنه خوفاً
منه ورهبة له؛ هكذا نقل صاحب مباهج الفكر ومناهج العبر، ولم أقف على شعرٍ في
وصف اليربر ولا رسالةٍ فأوردَها.

ما قيل في النمر

والنمر له أسماء، منها السبندي والسبنتي، والطرح: ولده، وجمعه طروح؛ والتلوة والختعة:
الأنثى.
وزعم أهل البحث عن طبائع الحيوان والاطّلاع على أسراره أن النمرة لا تضع ولدها إلا
وهو مطوق بأفعى، وهي تعيّث وتهِش إلا أنها لا تقتل؛ وفي طبع النمر وعادته أنه يشبع
لثلاثة أيام، ويقطعها بالنوم، ثم يخرج في اليوم الرابع، ومتى لم يصد لم يأكل، ولا يأكل من صيد
غيره كالأسد، وينزّه نفسه عن أكل الجيف ولو مات جوعاً؛ وهو لا يأكل لحوم البشر إلا

للتداوي من داء يصيبه؛ وفيه زغارّة خلق، وحدة نفس، وتجهم وجه، وشدة غيظ، ولهذا
يقال في الرجل إذا اشتد غضبه وكثر غيظه على عدوه: "ليس له جلد النمر"، أي تخلق
بأخلاقه، والنمر بعيد الوثبة، وربما وثب أربعين ذراعاً صعوداً إلى مجثمه الذي يأوي إليه،
وقد شوهد وهو يثب في الليل فيصير في داخل زريبة الغنم فيأخذ الشاة فيحذفها إلى
خارج الزريبة، ثم يثب فيسبقها إلى الأرض، ويتناولها من الهواء قبل أن تسقط على
الأرض؛ ومن خصائصه الغريبة أن المعضوض منه يطلبه الفأر حيث كان، ويقصده ليبول
عليه، فإن ظفر به وبال عليه مات؛ والناس يحترزون على من يجرحه النمر غاية الاحتراز،
والفأر يطلب المجروح كل الطلب، ومن أعجب ما سمعت أن إنساناً جرحه النمر فاحترز
على نفسه من الفأر، فركب في مركب، ووقف به في الماء وقد وثق بذلك، وظن أن الفأر لا
يصل إليه، فاتفق لنفوذ القضاء المقدّر الذي لا حيلة في دفعه أن حدأة اختطفت فأراً من
الأرض، وطارت فحاذت المجروح فلما سامته الفأر بال عليه فمات. وقد وجد في بعض
الكتب القديمة: أن النمر إذا عضّ إنساناً أُخذ زهر السماق وذلك به الجرح، فإن الفأر لا
يقاربه، ويكون في ذلك شفاؤه؛ وأخبرني من عاين ذلك عند التجربة؛ والنمر يحب شرب
الخمر، وبها يصاد، فإنه إذا سكر نام؛ وزعموا أنه يتولد بينه وبين اللبؤة سبع يسمى الذراع
على قدر الذئب العظيم، كثير الجراءة، لا يأوي معه شيءٌ من السباع والوحوش.
ووصف كَشاجم النمر من طَرَدّيه فقال:

وكالحِ المغضب المهيج جهنم المحيا ظاهر النشيج
يكشرُ عن مثل مدي العلوج أو كشباً أسنة الوشج
مدبج الجلد بلا تدبيج كأنه من نمط منسوج
تريك فيه لمع التدريج كواكباً لم تك في بروج

ولم أقف في وصف النمر إلى غير ذلك فأذكره.
الباب الثاني:
الفهد والكلب والضبع والنمس
الفهد
يقال للذكر: الفهد، وللأنثى: فهدة "وهما البنة، ولذلك يكنى أبا بنة"، وجروه الهوبر، والأنثى

هبيرة؛ قال أرسطو: إن الفهد متولد بين أسد ونمرة، أو لبؤة ونمر؛ ويقال: إن الفهدة إذا حملت
وثقل حملها حنَا عليها كل ذكر يراها من الفهود، ويواسيها من صيده، فإذا أرادت الولادة
هربت إلى موضع قد أعدته لنفسها، حتى إذا علّمت أولادها الصيد تركتها؛ وبالفهد
يُضرب المثل في شدة النوم؛ قال بعض الشعراء:

رقدت مقلتي وقلبي يقظا ن يحس الأمور حساً شديدا
يُحمد النوم في الجواد كمالاً يمنع الفهد نومه أن يصيدا

وقال الجاحظ: قال صاحب المنطق: والفهد إذا اعتراه الداء الذي يقال له: خانقة الفهود
أكل العذرة فبرأ منه؛ قال: والسباع تشتهي رائحة الفهود، والفهد يتغيب عنها، وربما قرب
بعضها من بعض فيطمِع الفهد في نفسه، فإذا أراده الفهد وثب عليه السبع فأكله؛ قالوا:
وليس شيء في الحيوان في جِرم الفهد إلا والفهد أثقل منه وأحطم لظهر الدابّة؛ والإناث
أصعب خُلقاً وأكثر جراءةً وإقداماً من الذكور؛ ومن خُلق الفهد الحياء، وذلك أن الرجل
يمر بيده على سائر جسده فيسكن لذلك، فإذا وصلت يده إلى مكان الثفْر قلق حينئذ
وغضب؛ ويقال: أول من صاد بالفهد كُليب وائلَ، وقيل: همام بن مرة، وكان صاحب لهو
وطرب؛ وأول من حمله على الخيل يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وأكثر من اشتهر باللعب
بها أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية، وأول من استسن حلقة الصيد
المعتضد بالله؛ والمواضع التي توجد فيها الفهود ما يلي بلاد الحجاز إلى اليمن، وما يلي
الحجاز إلى العراق، وما يلي بلاد الهند إلى تُبّت، وتوجد أيضاً في بريّة عيذاب من أعمال
قوص من الديار المصرية.
وقد ولع الشعراء والفضلاء بوصف الفهود نظماً ونثراً؛ فمن ذلك قول أبي إسحاق الصابي
في رسالة طردية جاء منها: ومعنا فهود أخطف من البروق، وأسرع من السهم حين المُروق؛
وأثقف من الليوث، وأجرى من الغيوث؛ وأمكر من الثعالب وأدبّ من العقارب؛ خُمْصُ
الخصور قُبّ البطون، رُقْش المتون؛ حمر الأماق خُزْر الأحداق، هرت الأشداق؛ عِراض
الجباه علف الرقاب، كاشرة عن أنياب كالحراب؛ تلحظ الظباء من أبعد غاياتها، وتعرف

حسها من أقصى نهاياتها؛ تتبع مرابضها وآثارها، وتشم روائحها وأبشارها.
ومن رسالة طردية لضياء الدين نصر الله بن الأثير الجزري يصف فهذا بعد أن ذكر ظبياً،
قال: فأرسلنا عليه فهذه سلس الضريبه، ميمون النقيبه، منتسباً إلى نجيب من الفهود
ونجيبه؛ كأنما ينظر من جمره، ويسمع من صخره، ويطأ من كل برتنٍ على شَفره؛ وله إهاب
قد جبل من ضدين: بياض وسواد، وصوّر على أشكال العيون فتطلعت إلى انتزاع الأرواح
من الأجساد؛ وهو يبلغ المدى الأقصى في أدنى وثباته، ويسبق الفريسة ولا يقبضها إلا عند
التفاته.
وقال أحمد بن زياد بن أبي كريمة يصفها بعد أن وصف الكاتب من أبيات:

بذلك أبغي الصيد طوراً وتارةً بمخطفة الأكفال رُحب الترائب
مرقّقة الأذناب نُمْر ظهورها مخططة الأذان غلب الغوارب
مدنرةٍ وُرقٍ كأن عيونها حواجل تستوعي متون الرواكب
إذا قلبتها في الحجاج حسبتها سنا ضرمٍ في ظلمة الليل ثاقب
مولّعة فُطْس الأنوف عوابس تخال على أشداقها خط كاتب
نواصب للآذان حتى كأنها مداهن، للإجراس من كل جانب
ذوات أشافٍ ركّبت في أكفّها نوافذ في صم الصخور نواشب
ذِرابٍ بلا ترهيف قَين كأنها تعقرب أصداغ المِلاح الكواعب
فوارس ما لم تلقَ حرباً، ورِجلة إذا آنست بالبيد شُهب الكتائب
تروٍّ وتسكينٌ يكون دريئةً لهن بذي الأسراب في كل لاحب
تضاءل حتى ما تكاد تبينها عيونٌ لدى الضبرات غير كواذب
حِراصٌ يفوت البرق أمكث جريها ضِراء مُبلاّت بطول التجارب
توسّد أجياد الفرائس أذرعاً مرمّلة تحكي عناق الحبائب

وقال ابن المعتز:

ولا صيد إلا بوثّابة تطير على أربعٍ كالعذب
ملمّعة من نِتاج الرياح تريك على الأرض شيئاً عجب
تضم الطريد إلى نحرها كضم المُحبة من لا يحب
إذا ما رآى عدوها خلفه تناجت ضمائره بالعَطَب
لها مجلسٌ في مكان الرديف كتركية قد سبتها العرب
ومقلتها سائلٌ كحلها وقد حُلّيت سُبَحاً من ذهب
متى أُطلقت من قلاداتها وطار الغبار وجدّ الطلب
غدت وهي واثقة أنها تقوم بزاد الخميس اللّجب

وقال محمد بن أحمد السراج يصفه:

وأهرت الشدق في فيه وفي يده ما في الصوارم والخطية الذُّبّل
تساهم الليلُ فيه والنهار معاً فقمّصا بجلبابٍ من المُقَل
والشمس مذ لقّبوها بالغزالة لم تطلع لناظره إلا على وجل
وقال آخر:
وأهرت الشدق بادي السخط مطرّح ال حياء جَهْم المحيّا سيئ الخُلُق
والشمس مذ لقّبوها بالغزالة أع طته الرِّشاء جداً من ثوبها اليقَق
ونقّطتْه حِباءً كي يسالمها على المنايا نِعاج الرمل بالحَدَق
وقال آخر:
تَغاير الليل فيه والنهار معاً فحلَّياه بجلبابٍ من الحَدَق
والشمس مذ لقّبوها بالغزالة لم تطلُع على وجهه من شدة الحَنَق
الكلاب
يقال: إن بين الكلب والضبع عداوة شديدة، وذلك انه إذا كان في مكانٍ مرتفعٍ ووطئت
الضبعة ظلّه في القمر رمى نفسه إليها مخذولاً فأكلته؛ ويقال: إن الإنسان متى حمل على
لسان ضبع لم ينبح عليه كلب؛ ومتى دُهِن كلبٌ بشحمها جُنَّ؛ وفي طبع الكلب أنه يحمي
ربه، ويحمي حريمه شاهداً وغائباً، ونائماً ويقظان؛ والكلب أيقظ الحيوان عبنا في وقت
حاجته إلى النوم، وأنومُها نهاراً عند استغنائهم عن حراسته؛ ومن عجيب أمره أنه يكرم
الجلة من الناس وأهل الوجاهة؛ فلا ينبح على أحد منهم، وربما حاد عن طريقهم وينبح
على الأسْود والوسِخ الثوب والزري الحال والصغير.
وأما ما في الكلب من المنافع - فقد قال الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا: إن بول الكلب
يستعمل على الثآليل، ودم الكلب لنهوشه ولسمّ السهاك الأرمنية؛ وقال إبراهيم بن هرمة -
رحمة الله تعالى عليه -:
أوصيك خيراً به فإن له سجيّة لا أزال أحمدها
يدُل ضيفي عليّ في غس ق الليل إذا النار نام موقدها
وقال أيضاً:
يكاد إذا ما أبصر الضيفَ مقبلاً يكلّمه من حبّه وهو أعجم
ولد الذئب من الكلبة
قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب الحيوان: وزعموا أن ولد الذئب من الكلبة
يقال له: الديسم، ورُوي لبشار بن برد في ديسم العنزي أنه قال:

أديسم يا ابن الذئب من نسل زارع أتروي هجائي سادراً غير مقصِر

قال: وزارع، اسم الكلب يقال للكلاب: أولاد زارع؛ قال: وزعم صاحب المنطق أن
أصنافاً أخر من السباع المتزاوجات المتلاقحات مع اختلاف الجنس والصورة معروفة النتاج
مثل الذئاب التي تسفد الكلاب في أرض رومية؛ قال: وتتولد أيضاً كلابٌ سَلوقية بين ثعالب
وكلاب؛ قال: وبين الحيوان الذي يسمى باليونانية طاغريس والكلب تحدث هذه الكلاب
الهندية؛ قال: وليس يكون ذلك من الولادة الأولى؛ هذا ما حكاه الجاحظ عن صاحب
المنطق. وحكى الجاحظ عن بعض البصريّين عن بعض أصحابه، قال: وزعموا أن النتاج
الأول يخرج صعباً وحشياً لا يلقّن ولا يؤلّف؛ وزعم لي بعضهم عن رجلٍ من أهل الكوفة
من بني تميم أن الكلبة تَعرِض لهذا السبع حتى تلْقح، ثم تعرض لمثله مراراً حتى يكون جرو
البطن الثالث قليل الصعوبة يقبل التلقين، وأنهم يأخذون إناث الكلاب ويربطونها في تلك
البراري، فتجيء هذه السباع فتسفدها، قال: وليس في الأرض أنثى يُجتمع على حب
سِفادها، ولا ذكرٌ يَجتمع له من النزاع إلى سِفاد الأجناس المختلفة أكثر في ذلك من الكلب
والكلبة؛ وقال: إذا ربطوا هذه الكلاب الإناث في تلك البراري، فإن كانت هذه السباع
هائجة سِفدتها، وإن لم تكن السباع هائجة فالكلبة مأكولة؛ قال الجاحظ: ولو تم للكلب
معنى السبع وطباعه ما ألف الإنسان واستوحش من السبع، وكره الغياض، وألف الدور،
واستوحش من البراري وجانَب القفار، وألف المجالس والديار؛ ولو تم له معنى البهيمة في
الطبع والخُلق والغذاء ما أكل الحيوان، وكلب على الناس، نعم حتى ربما وثب على
صاحبه؛ وذكر من معايب الكلب وذمّه، فقال: إنه حارسٌ محترسٌ منه، ومؤنِسٌ شديد
الإيحاش من نفسه، وأليفٌ كثير الجناية على إلفه، وإنما قبلوه حين قبلوه على أن ينذرهم
بموضع السارق، وتركوا طرده لينبههم على مكان المبيِّت، وهو أسرق من كل سارق، وأدوم
جناية من ذلك المبيّت، فهو سراق وصاحب بيات، وأكالٌ للحوم الناس إلا أنه يَجمع سرقة

الليل مع سرقة النهار، ثم لا تجده أبداً يمشي في خزانةِ أو مطبخٍ أو في عرْصة دارٍ أو في
طريقٍ أو براريّ، أو على ظهر جبلٍ أو في بطن وادٍ إلا وخطْمه أبداً في الأرض يتشمم
ويستروح؛ وإن كانت الأرض بيضاء حصّاء، أو دوّية ملساء، أو صخرة خَلقاء، حرصاً
وجَشَعاً، وشرهاً وطمعاً، نعم حتى تجده أيضاً لا يرى كلباً إلا شم أسته، ولا يشم غيرها
منه، ولا تراه يُرمى بحجرٍ أبداً إلا رجع إليه فعضّ عليه، لأنه لما كان لا يكاد يأكل إلا شيئاً
رَموا به إليه صار يَنسى لفرْط شرهه وغلبة الجَشَع على طبعه أن الرامي إنما أراد عقره أو
قتله، فيظن لذلك أنه إنما أراد إطعامه والإحسان إليه، كذلك يخيّل إليه فرط النَّهم، وتوهمه
غلبةُ الشره، ولكنه رمى بنفسه على الناس عجزاً ولؤماً، وفُسُولةً ونقصاً، وخاف السباع
واستوحش من الصحاري؛ وسمعوا بعض المفسّرين يقول في قوله عز وجل: "والذين في
أموالهم حق معلومٌ للسائل والمحروم": إن المحروم هو الكلب؛ وسمعوا في المثل: "اصنع
المعروف ولو إلى كلب"، فلذلك عطفوا عليه، واتخذوه في الدور، على أن ذلك لا يكون إلا
من سَفِلتهم وأغبيائهم، ومن قلّ تقزّوه، وكثر جهله، وردّ الآثار أما جهلاً وإما معاندة؛
ووصف في ذمه ومعايبه ما ذكره صاحب الديك من ذم الكلاب، وتعداد أصناف معايبها
ومثالبها، من لؤمها وخبثها وضعفها وشرهها وغدرها وبذائها وجهلها وتسرعها ونتنها
وقذَرها، وما جاء في الآثار من النهي عن اتخاذها وإمساكها، ومن الأمر بقتلها وإطرادها،
ومن كثرة جناياتها وقلة وُدّها، وضرْب المثل بلؤمها ونذالتها وقبحها وسماجة نباحها وكثرة
أذاها وتقذُّر المسلمين من دنوِّها، وأنها تأكل لحوم الناس، وأنها مطايا الجنّ، ونوعٌ من المَسْخ،
وأنها تنبُش القبور، وتأكل الموتى، وأنها يعتريها الكلب من أكل لحوم الناس، إلى غير ذلك من
مساويها، ثم ذكر قول من عدّد محاسنها وصنّف منقبها وأخذ في ذكر أسمائها وأنسابها
وأعراقها وتفدية الرجال لها، وذكر كسبها وحراستها ووفائها وإلفها وجميع منافعها، والمرافق
التي فيها، وما أودعت من المعرفة الصحيحة والفطنة العجيبة، والحس اللطيف، والأدب

المحمود، وصدق الاسترواح، وجَودة الشمّ، وذكر حفظها
وإتقانها واهتدائها، وإثباتها لصور
أربابها وجيرانها، ومعرفتها بحقوق الكرام، وإهانتها اللئام،
وصبرها على الجفاء، واحتمالها
للجوع، وشدة منّتها وكثرة يقظتها، وعدم غفلتها، وبُعد أصواتها،
وكثرة نسلها، وسرعة
قبولها ولقاحها مع اختلاف طبائع ذكورتها والذكورة من غير
جنسها، وكثرة أعمامها
وأخوالها وترددها في أصناف السباع، وسلامتها من أعراق
البهائم، وغير ذلك من
محاسنها؛ وأورد ذلك بألفاظ طويلة، وأدلة كثيرة، واستطرادات
يطول الشرح في ذكرها
فأضربنا عن ذلك رغبةً في الاختصار؛ فلنذكر ما يحتاج الكاتب
إلى الاطلاع عليه ويدور في
ألفاظ الكتاب من وصف كلاب الصيد، التي لا بد للكاتب من
معرفة جيّدها وأفعالها،
ليضمّنه ما يصدر عنه من الرسائل الطردية، فنقول: دلائل
النّجابة والفراهة فيها تُعرف من
خلقتها وألوانها ومولدها.
أما في الخلقة - فقد قالوا: طول ما بين اليدين والرجلين،
وقِصَر الظهر وصِغَر الرأس، وطول
العنق، وغَضَف الأذنين، وبعدُ ما بينهما، وزرقة العينين ونتوء
الجبهة وعِرَضها، وقصر
اليدين.
وأما في الألوان، فإنه يقال: السود أقل صبراً على الحر والبرد،
والبيض أفره إذا كنّ سود
العيون؛ وقد قال قوم: إن السود أصبر على البرد وأقوى.
وأما في ولادتها - فإنه يقال: إذا ولدت الكلبة جرواً واحداً كان
أفره من أبويه، وإن ولدت
ذكراً وأنثى كان الذكر أفره، وإن ولدت ثلاثة فيها أنثى شِبه الأم
كانت أفره الثلاثة، وإن كان
في الثلاثة ذكرٌ واحدٌ فهو أفره.
كلاب الصيد
قال أبو إسحاق الصابي يصفها من رسالة طردية: ومعنا كل
كلب عريق المناسب، نجيح
المكاسب؛ حلو الشمائل، نجيب المخايل؛ حديد الناظرين، أغضف
الأذنين، أسيل الخدين،
مخطف الجنبين؛ عريض الزور، متين الظهر؛ أبيّ النفس، مُلهِب
الشدّ؛ لا يمسّ الأرض إلا
تحليلاً وإيماءً، ولا يطؤها إلا إشارة وإيحاء.
وقال بعض الشعراء:
أبعث كلباً يكسر اليحمورا مجرّباً مدرباً صبورا

يأنف أن يشاكل الصُّفورا منفرداً بصيده مُغيرا
ذا شيَةٍ تحسبها حريراً قد حُبّرت نقوشها تحبيرا
إذا جرى حسبته المقدورا يكاد للسرعة أن يطيرا
حتفا لما عنّ له مبيراً أعجز أن أرى له نظيرا

وقال أبو نواس:

هِجْنا بكلب طالما هجنا به ينتسف المقود من جِذابه
كأن متينه لدى انسلابه مَتْنا شجاعٍ لجّ في انسيابه
كأنما الأظفور في قِنابه موسى صناع ردَّ في نَصابه
تراه في الحُضْر إذت ها هي به يكاد أن يخرج من إهابة
ترى سَوام الوحش إذ تُحوى به يَرحْن أسرى ظُفْره ونابه

وقال أيضاً:

كأن لحييه لدى افتراره شكّ مسامير على طَواره
سِمْعٌ إذا استروح لم تثماره إلا بأن يُطلق من عِذاره
فانصاع كالكوكب في انحداره لفت المشير موهناً بناره
شد إذا أخصف في إحضاره خرّق أذنيه شَبا أظفاره

وقال بعض الأندلسيين:

وأغضف تلقى أنفه فكأنما يقود به نورٌ من الصبح أنور
إذا ألهبته شهوة الصيد طامعاً رأيت عقيم الريح عنه تقصّر

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة:

وموّرس السربال يُخلع قدّه عن نجم رجمٍ في سماء غبار
يستن في سنن الطريق وقد عفا قِدَماً فيقرأ أحرف الآثار
عطف الضمور سَراته فكأنه والنقع يحجبه هلال سرار
يفترّ عن مثل المّصال وإنما يمشي على مثل القَنا الخطّار

وقال آخر:

ومودَّب الآساد يمسك صيده متوقفاً عن أكله كالصائم
صبٌّ إذا ما صاد عانق صيده طرب المقيم إلى لقاء القادم

وقال آخر:

وما الظبي منه في حُشاشة نفسِه ولكنّه كالطفل في حجر أمّه
يلازمه دون اختراٍم كأنما تعلّق خصمٌ عند قاضٍ بخصمه

وقال ابن المرغريً النصراني الأندلسي منشداً:

لم أر ملهىً لذي اقتناص ومكسباً مقنِع الحريص
كمثل خَطْلاءَ ذات جيدٍ أتلعَ مصفرّة القميص
كالقوس في شكلها ولكن تنفُذ كالسهم للقَتيص
لو أنها تستثير برقاً لم يجد البرقُ من محيص
محبولة الظهر لم يخنه لحوق بطنٍ به خميص
اتخذت أنفها دليلاً قاد إلى الكانِس العويص
وكلبة تاهت على الكلاب بجلدةٍ صفراء كالزرياب
تنساب مثل الحية المنساب كأنها تنظر من شِهاب

وقال أحمدٌ بن زياد بن أبي كريمة يصف كلب صيدٍ من قصيدة طويلة، أولها:

وغبّ غمان مزّقت عن سمائه شأمية حصّاء جون السحائب

مواجِه طلقٍ لم يردّد جَهامه تذاؤب أرواحِ الصَّبا والجنائب
بعثتَ وأثواب الدجى قد تقلصت بعزة مشهورٍ من الصبح ثاقب
وقد لاح ناعي الليل حتى كأنه لساري الدجى في الفجر قنديل راهب
بها ليل لا يثنيهم عن عزيمة وإن كان جَمّ الرُّشد لوم الأقارب
لتجتنب غُصْفٍ كالقداح لطيفة مشرّطة آذانها بالمخالب
تخال سياطاً في صَلاها منوطةً طوال الهوادي كالقداح الشوازب
إذا افترشت خَبتاً أثارت بمتنه عَجاجاً وبالكذّان نارَ الحُباحبِ
تفوت خُطاها الطرف سبقاً كأنها سهامُ مُغالٍ أو رجوم الكواكب
طرادُ الهَوادي لاحها كل شتوة بطامسه الأرجاء مَرْتِ المسارب
تكاد من الأحراج تنسلّ كلما رأت شبحاً لولا اعتراض المناكب
تسوف وتوفي كل نشْزٍ وفدفدٍ مَرابضَ أبناء النفاق الأرانب
كأن بها ذُعراً يُطير قلوبها أنين المَكاكي أو صرير الجنادب
تُدير عيوناً رُكّبت في براطل كجمر الغضى خُرْزاً، ذِرابُ الأنايب
إذا ما استحثت لم يجنّ طريدَها لهنّ ضَراءٌ أو مجاري المذانب
وإن باصها صَلتاً مدى الطرق أمسكت عليه بدون الجُهد سُبلَ المذاهب
تكاد تُفرِّي الأهبّ عنها إذا انتحت لنبأة شَخْتِ الجِرْم عاري الرواجب
كأن غصون الخيزران متونها إذا هي جالت في طراد الثغالب
كواشر عن أنيابهن كوالح مذلّقة الآذان شوس الحواجب
كأن بنات القفر حين تفرقت غدون عليها بالمنايا الشواعب
الذئب
والذئب له أسماء نطقت بها العرب، ذكره ذئب، والأنثى ذئبة وسِلقة وسِيدانة، ويُكنى أبا
جعدة، ومن أسمائه: نهشَل، وأويس، وذؤالة، وأشبة، ونُسبة، وكَساب، وكُسيب،
والعسعاس، والعساس، والخيعل، والعَمَلّس، والطَّمِلّ، والشيَّيذمان، والشيمذان، والخيتعور،
والقلّيب، والعِلّوش، ورئبال، والسِّرحان ومصدَّر، والعَسول، والنَّسول، والخاطف، والأزلّ،
والأرسَح: القليلُ لحم الوركين، والعمرّد. ويقال لولد الذئب: جُرْموز، والأنثى: جَعدة.
ويقال: إن الذئب إذا لم يجد ما يأكله استعان بإدخال النسيم في فيه، فيقتات به؛ وجوفُه

يذيب العظم، ولا يذيب نوى التمر؛ وقال بعض من اعتنى بسرّ طبائع الحيوان: إنه لا يلتحم
عند السفاد إلا الذئب والكلب، وهو يسفد مضطجعاً على الأرض، وذكره عظم؛ والذئب
موصوف بالانفراد والوُحدة وشدّة التوحّش؛ وإذا خفيَ عليه موضع الغنم عوى ليؤذنهم
بمكانه، ويُعلمهم بقربه، فإذا حضرت الكلاب إلى الناحية التي هو فيها راغ عنها إلى جهة
الغنم التي ليس فيها كلب؛ وهو لا يعود إلى فريسةٍ بعد أن يشبع منها؛ وهو ينام بإحدى
عينيه ويفتح الأخرى، فإذا اكتفت النائمة وأخذت حقّها من النوم فتحها ونام بالأخرى؛ فهذا
أبداً دأبه في نومه؛ وهو قويّ حاسّة الشم، قيل: إنه يشتم من فرسخ؛ وأكثر ما يعترض الغنم
وقت الصبح عند توقّعه فترة الكلاب ونومها؛ ومن عادة الذئاب أنه إذا افترس ذئبان شاة
قسماها على شطرين بينهما بالسوية؛ والذئب إذا وطئ ورق العنْصُل مات لوقته؛ وبينه وبين
الغنم معاداة عظيمة، فمنها أنه إذا جُمع بين وترٍ عمل من أمعاء ذئب وبين أوتارٍ عُملت من
أمعاء الغنم وضُرِب بها لا يُسمع لها صوت؛ وإذا اجتمع جلد شاة مع جلد ذئب تمعّط
جلد الشاة؛ والذئب إذا كدّه الجوع عوى، فتجتمع له الذئاب، ويقف بعضها إلى بعض، فمن
ولّى منها وثب الباقون عليه فأكلوه، وهو إذا تعرّض لإنسان وخاف العجز عنه عوى،
فيسمعه غيره من الذئاب، فتُقبل على الإنسان، فإذا أدمى الإنسان منها واحداً وثب الباقون
على المدمى فمزقوه وتركوا الإنسان، ولذلك قال بعض الشعراء يعاتب صديقاً له أعان في
مصيبة نزلت به:

وكنت كذئب السوء لما رأى دماً بصاحبه يوماً أهان على الدم

والذئب لا يواجه الإنسان، وإنما يأتيه من ورائه، فإن وجد الإنسان ما يُسند ظهره إليه
عجز الذئب عن افتراسه.
وقد وصف الشعراء الذئب بما ذكرناه من عادته وطبعه، فقال حميد بن ثور:

ونمت كنوم الذئب عن ذي حفيظة أكلتُ طعاماً دونه وهو جائع

ترى طرفيه يعسلان كليهما كما اهتر عود النبعة المتتابع
ينام بإحدى مقلتيه ويتّقي بأخرى المنايا فهو يقظان هاجع

وقال إبراهيم بن خُفاجة:

ولربّ روّاغٍ هنالك أنبطٍ ذِلِقِ المسامع أطلس الأطمار
يجري على حذر فيجمع بسطه يهوي فيتعطف انعطاف سوار
والعرب تقول في أمثالها: "أحمق من جهيزة" قالوا: وجَهيزة عِرس الذئب، لأنها تدع ولدها
وترضع ولد الضبع، وهو معنى قول ابن جِدل الطعان:
كمرضعة أولاد أخرى وضيّعت بنيها ولم ترقع بذلك مرقَعا
وقول الآخر:
كانوا كتاركةٍ بنيها جانباً سفهاً وغيرهم تَرُبّ وتُرضِع
ويقولون: إن الضبع إذا قتلت أو صيدت فإن الذئب يأتي أولادها باللحم وأنشدوا قول
الكميت:
كما خامرت في حضنها أمّ عامرٍ لدى الحبل حتى عال أوسٌ عيالها
وأوس، هو الذئب كما تقدم في أسمائه.
الضبع
ثقال: إن الضبع كالأرنب، تكون مرة ذكراً ومرة أنثى، وهم يسمّون الذكر والأنثى: الضبع
والذِّيخ، ومن أسمائها: حَضاجِر، وجَيأل، وجَعار، وقَثام، ونقاثِ، والعرفاء، لطول عُرفها،
والعثواء لنُفُول شعرها، والعرجاء، والخامعة، وأم عامر وأم هِنبِر، وأم خَنّور؛ وولدها
الفُرْعل؛ وحُجرها الوِجار. والضبعة مولعة بنبش القبور، وإنما ذلك لشهوتها في لحوم الناس؛
ومن عاداتها إذا كان القتيل بالعراء وورم وانتفخ ذكره تأتيه فتركبه وتقضي حاجتها منه، ثم
تأكله؛ وهي متى رأت أنساناً نائماً حفرت تحت رأسه، فإذا مال رأسه وظهر حلقه ذبحته
بأسنانها، وشربت دمه؛ وهي فاسقة، لا يمر بها حيوان من نوعها إلا تعرّضت له حتى
يعلوها؛ والعرب تضرب المثل بها في الفساد، فإنها إذا وقعت في الغنم عاثت، ولم تكتف بما
يكتفي به الذئب؛ وإذا اجتمع الذئب والضبع في الغنم سلمت، فإن كل واحد منهما يمنع
صاحبه، ولذلك تقول العرب في دعائها للغنم: "اللهم ضبعاً وذئباً"؛ والضبع إذا وطئت ظل
الكلب في القمر وهو على سطح وقع فتأكله؛ وإذا دخل الرجل وجارها ولم يسدّ منافذ
الضوء، ثم صار إليها من الضياء ولو بقدر سم الخياط، وثبت إليه فقتلته؛ وإن أخذ معه
حنظلاً أمن سطوتها؛ وتوصف بالحُمق والموق، وذلك لأن من يريدون صيدها يقفون على

باب وجارها ويقولون: "أطرقي أم طريق، خامري أم عامر" فإذا سمعت كلامهم انقبضت،
فيقولون: "أبشري بكمر الرجال، أبشري بشاءٍ هزْلي وجرادٍ عظلي" وهم مع ذلك يشدون
يديها ورجليها وهي ساكنة لا تتحرك، ولو شاءت لأجهزت عليهم وقتلتهم وخلّصت نفسها؛
وهذا القول فيما أظن من خرافات العرب؛ والضبع تلد من الذئب جروا يسمى العِسبار،
ويكون منفرداً بنفسه، لا يألف السباع، ويثب على الناس والدوابّ؛ وهي توصف بالعرج،
وفيها يقول بعض الأعراب:

من العُثو لا يُدري أرِجْلُ شِمالها بها الظَّلْعُ لمّا هرولت أم يمينها

النمس

والعرب تسمي النِّمس الظَّرِبان، وسماه أبو عبيد الظَّرِباء؛ وهو على قدر الهرّ، وفي قدر
الكلب القَلَطيّ؛ وهو منتنُ الريح ظاهراً وباطناً، ولونه إلى الشهبة، طويل الخطم جداً، وليس
له أذنان إلا صِماخان، قصير اليدين، وفيهما براثن حِداد، طويل الذنب، ليس لظهره فَقار،
ولا فيه مَفْصِل، بل عظمٌ واحدٌ من مَفْصِل الرأس إلى مفصل الذنَب، وربما ضربه من ظفر به
من الناس بالسيف فلا يعمل فيه حتى يصيب طرف أنفه، لأن جلده في قوّته كالقَدّ؛ ولفسوِه
ريحٌ كريهة حتى إنه يصيب الثوب فلا تذهب رائحته منه حتى يبلى، وهو يفسو في الهجْمة
من الإبل فتتفرق ولا تجتمع لراعيها إلا بعد تعب؛ والعرب تضرب المثل في تفريق الجماعات
به، فيقولون: "فسا بينهم الظَّرِبان"؛ وهو لأهل مصرَ كالقنافذ لأهل سِجِستان في قتله
الثعابين؛ قالوا: ولولاه لأكلتهم؛ ومن عادته أنه إذا رأى الثعبان دنا منه ووثب عليه، فإذا
أخذه تضاءل في الطول حتى يبقى شبيهاً بقطعة حبل، فينطوي الثعبان عليه، فإذا انطوى
نفخ الظَّرِبان بطنه ثم زفر زفرةً فيتقطّع الثعبان قطعاً؛ قال الجاحظ: وفسو الظَّرِبان أحدُّ
أسلحته، لأنه يدخل على الضبّ في جحره وفيه حُسوله وبيضُه، فيأتي أضيق موضع في
الجحر فيسدّه بيده، ويحوّل دُبُره فلا يفسو ثلاث فَسَوات حتى يخرّ الضب سكران مغشياً
عليه، فيأكله؛ وله جراءة على تسلق الحيطان في طلب الطير، فإن هو سقط نفخ بطنه حتى

يمتلئ جلده، فلا يضرّه السقوط؛ قالوا: وهو يشبه السمّور، وذهب بعضهم إلى أنه هو، وإنما
البقعة التي هو فيها غيّرت وَبَرَه.
الباب الثالث: مما قيل في
السنجاب والثعلب والخنزير
فأما السنجاب - فهو حيوان معروف، حسن الوبر، ظهره أزرق اللون، وبطنه أبيض، ومنه
ما يكون ظهره أحمر، وهو رديء الجنس؛ مبخوس الثمن؛ وهذا الحيوان سريع الحركة، فإذا
أبصر الإنسان صعد الشجرة العالية، وهي مأواه؛ وهو كثير ببلاد الصقالبة والخزر، ومزاجه
باردٌ رطب وقيل: حار رطب لسرعة حركته؛
قال أبو جعفر الببغاء:

قد بلونا الذكاء في كل ناب فوجدناه صنعة السنجاب
حركاتٌ تأبى السكون وألحا ظ حِدادٌ كالنار في الالتهاب
خفّ جداً على النفوس فلو شا ء ترامى مجاوراً للتصابي
واشتهت قربه العيون إلى أن خِلته عندها أحَّا للشباب
لابسٌ جلدةً إذا لاح خلن ه بها في مزرّةٍ من سحاب
لو غدا كل ذي ذكاء تطوقاً رد في ساعة الخطاب جوابي

الثعلب
هو ذو مكر وخديعة وتحيل في طلب الرزق، فمن تحيّله أنه يتماوت وينفخ بطنه ويرفع
قوائمه، حتى يظن به أنه قد مات، فإذا قرب منه حيوانٌ وثب عليه فصاده؛ ومنه أنه إذا
دخل برج الحمام وكان شبعان قتلها ورمى بها، فإذا جاع عاد إليها فأكلها، وكذلك يفعل مع
الدجاج؛ وهو أيضاً من الحيوان الذي سِلاحه سُلاحه، وهو أنتن من سُلاح الحُباري، فإذا
تعرّض للقنفذ لقيه القنفذ بشوكه واستدار كالكُرة، فيسلح الثعلب عليه، فلا يتمالك القنفذ
أن ينسدخ، فيقبض الثعلب على مراقّ بطنه؛ ومن ظريف ما يُحكى عنه أن البراغيث إذا
كثرت في فروته تناول صوفة بفمه؛ ثم يدخل النهر برفقٍ وتدريج، والبراغيث تصعد إذا
قاربها الماء حتى تجتمع في تلك الصوفة التي في فيه، فعند ذلك يلقيها في الماء ويخرج منه؛
والذئب يطلب أولاد الثعلب، فإذا ولد له وضع ورق العنصل على باب وجاره فلا يصل
الذئب إليه، لأنه متى وطئ العنصل مات لوقته؛ ويقال: إن قضيب الثعلب في خلقة الأنبوب،
وأحد شطريه عظم، والآخر عصبٌ ولحم؛ وربّما يسفد الثعلب الكلبة فتأتي منه بولد في

خلقة السلوقي الذي لا يُقدر على مثله؛ وفرو الثعلب من أجود الأوبار وأفضلها، ومنه
الأسود والأبيض والخلنجي وأدونه الأعرابي لقلة وبره، وما كان منه ببلاد الترك يسمى
البُرطاسي لكثافة وبره وحسن لونه، ووبره أنواع، منها السارسيتا والبُرطاسي والغيب
والنيفق؛ قال الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا: والثعلب فيه تحليل، وفراؤه أسخن الفراء،
تنفع المرطوبين لتحليلها آلات المفاصل؛ قال: وإذا طُبخ الثعلب في الماء وطليت به المفاصل
الوجعة نفع نفعاً جيّداً، وكذلك الزيت الذي يُطبخ فيه حياً أو مذبوحاً فإنه يحلل ما في
المفاصل، وشحمه يُسكّن وجع الأذن إذا قُطر فيها؛ ورئته المجفّفة نافعةٌ لصاحب الربو جداً،
والشربة منها وزن درهمين والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

قال أبو الفرج الببغاء يصفه:

وأعفر المسك تلقاه فتحسبه من أدكن الحرّ مخبوء بخيفان
كأن أذنيه في حسن انتصابهما إذا هما انتصبا للحس زجّان
يسري وينبعه من خلفه ذنبٌ كأنه حين يبدو ثعلب ثاني
فلا يشك الذي بالبعد يبصره فرداً بأنهما في الخلقة اثنان

وقال آخر:

جاؤوا بصيدٍ عجبٍ من العجب أزيرق العينين طُوّال الذنب
تبرق عيناه إلى ضوء الشُّهُب

الدب

والدب مختلف الطبائع، يأكل ما تأكله السباع، ويرعى ما ترعاه الدوابّ، ويتناول ما يأكله
الناس؛ وفي طبعه أنه إذا كان أوان السفاد خلا ذكر بأنثاه، والذكر يسفد أنثاه مضطجعة
على الأرض، وهي تضع جروها فِدرة لحم غير مميز الجوارح، فتهرب به من موضع إلى آخر
خوفاً عليه من النمل، وهي مع ذلك تلحسه حتى تنفرج أعضاؤه ويتنفس، وفي ولادتها
صعوبة، فزعم بعض من فحص عن طبائع الحيوان أن الدبة تلد من فيها، وأنها إنما تلده
ناقص الخلق شوقاً إلى الذكر وحرصاً على السفاد، وهي لشدة شهوتها تدعو الآدمي إلى
وطئها؛ وفيما حُكي لي أن إنساناً كان سائراً في بعض الغياض لمقصده، فصادف دبة،
فأخذته وأومأت إليه بالإشارة أن يواقعها، ففهم عنها وفعل، فلما فرغ عمدت إلى أقدامه

فلحست مواطئها حتى نعمت، ولم تزل تكرر لحسها وتمر بلسانها عليها حتى بقي الرجل
يعجز عن الوطء بها على الأرض، فعند ذلك أمنت هربه وتركته، فكانت تغدو وتتكسّب
وترجع إليه بما يأكله وهو يواقعها، وهي تتعاهد لحس رجليه، فلم يزل كذلك حتى مر عليه
جماعة من السفر، فناداهم، فأتوه وحملوه على دوابهم وساروا به. قالوا: والأنثى إذا
هربت من الصيّادين جعلت جراءها بين يديها، فإذا اشتد خوفها عليهم بأن أدركها من
يطلبها صعدت بأولادها إلى الأشجار؛ وفي الدب من القوة والشدة ما يقطع العود الضخم
من الشجرة العادية التي لا تقطعها الفأس إلا بعد تعب، ثم يأخذه بيديه، ويقف على قدميه
كالإنسان، ويشُدّ به على الفارس، فلا يصيب شيئاً إلا أهلكه؛ وفي طبع هذا الحيوان من
الفطنة العجيبة لقبول التأديب والتعليم ما هو مشاهَد لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، هذا مع
عظم جثته، وثقل جسمه، لكن لا يطيع معلّمه إلا بعنف وضربٍ شديد وتعميةٍ لذكوره؛
وقال الشيخ الرئيس أبو علي بن شينا: إن دم الدب يُنضج الأورام الحارّة سريعاً؛ والله أعلم
بالصواب.

الهرّ

والهر ضربان: وحشي وأهلي، وهو يشبه الأسد في الصورة والأعضاء والوثوب والافتراس
والعدو، إلا أنه أقل جراءة من الأسد وأكثرها من سائر الحيوان؛ وهو يناسب الإنسان في
أحوال، منها: أنه يعطس ويتثاءب ويتمطّى، ويتناول الشيء بيده، ويغسل وجهه وعينيه
بلعابه؛ وفيه أن الأنثى تحدُث لها قوةٌ وشجاعةٌ عند السفاد، ولهذا فإن الذكر يهرب منها
عند فراغه، وتكون هذه الشجاعة في الذكر قبل السفاد، فإذا سفد انتقلت إلى الأنثى،
والذكر إذا هاج صرخ صراخاً منكراً يؤذي به من يسمعه لبشاعته؛ والأنثى تحمل في السنة
مرتين، ومدة حملها خمسون يوماً، وفي أخلاق بعضها أنها إذا ولدت تأكل أولادها، ويقال:
إنها إنما تأكلهم لفرط حبها لهم؛ وقيل: بل من جنون يعرض لها عند الولادة وجوع؛ والله
اعلم؛ وفي هذا الحيوان من الأخلاق الحميدة أنه يرعى حق التربية والإحسان إليه، ويقبل

التأديب، وربما رُبي في حانوت السمان والجزار وفي الدور بين الدجاج والحمام وغير ذلك من
المطاعم التي يحبها الهر ويأكلها فلا يتعرض لها بفساد، ولا يأكل منها ما لم يطعمه، وربما
حفظها من غيره، وقاتل دونها، مع ما فيه من الافتراس والاختلاس؛ وفي طبع الهر وعادته
أنه إذا أطعم شيئاً أكله في موضعه ولم يهرب، وإذا خطفه أو سرقه هرب به، ولا يقف إلا
أن يأمن على نفسه؛ وفي بعضها من الجراءة ما يقتل الثعبان والعقرب؛ وإذا أرادت الهرة ما
يريد صاحب الغائط أتت موضع ترابٍ في زاوية من زوايا الدار، فتبحث حتى تجعل لها
حفرة، ثم تدفن فيها ما تلقيه، وتغطّيه من ذلك التراب، ثم تشم أعلى التراب، فإن وجدتْ
رائحة زادت عليه تراباً حتى تعلم أنها أخفت المرئي والمشموم، فإذا لم تجد تراباً خمشت
الأرض، وزعم بعض الأطباء أن ستر الهرة لذلك لحدة رائحته، فإن الفأرة إذا شمته نفرت
منه إلى منقطع تلك الرائحة؛ وهو يقبل التعليم ويؤدّب حتى يألف الفأر مع ما بينهما من
شدة العداوة، فيحصل بينهما من المؤالفة الظاهرة والملاءمة ما إن الفأر يصعد على ظهر
الهر، وربما عض أذنه، فيصرخ الهر ولا يأكله، ولا يخدشه لخوفه من مؤدّبه، فإذا أشار إليه
مؤدبه بأكله وثب عليه على عادته وأكله، وهذا أمر مشاهد غير منكور بفعله الطرقية
ويفرّجون الناس عليه؛ وفي طبع الهر أنه لا يأكل السخن ولا الحامض، ومتى دُهن أنفه بدهن
الورد مات سريعاً؛ وهو إذا قاتل الثعبان يضع يده على انفه، ويقاتل بيده الأخرى، وإنما بفعل
ذلك حذراً على نفسه، فإن الثعبان متى ضربه في أنفه مات، ويضربه في سائر جسده فلا
يضره ذلك، بل يلحس مكان نهش الثعبان بلسانه وهو يقاتله.
وقد وصفه الشعراء والأدباء
برسائل وأبيات.
فمن ذلك رسالةٌ أنشأها أبو جعفر غمر الأوسي الأندلسي المعروف بابن صاحب الصلاة
- ونُسبت هذه الرسالة لأبي نصر الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقبان - يخاطب بها
بعض إخوانه ويوصيه على كتبه، وهي: وفي علمك - أعزك الله - ما استودعته ديانتك،

واستحفظته أمانتك؛ من كتبي التي هي أنفس ذخائري
وأسراها، وأحقها بالصيانة وأحراها؛
وما كنت أرتضي فيها بالتغريب، لولا الترجي لمعاودة الطلب عن
قريب؛ ولا شك أنها منك
ببال، وبمكان تهمّم واهتبال؛ لكن ربما طرقها من مردة الفئرة
طارق، وعاث فيها كما يعيث
الفاسق المارق؛ فينزل فيها قرضاً، ويفسدها طولاً وعرضاً؛ إلا
أن يطوف عليها هر نبيل،
ينتمي من القطاط إلى أنجب قبيل؛ له رأس كجمع الكفّ، وأذنان
قد قامتا على صفّ؛
ذواتا لطافةٍ ودقّه، وسَباطةٍ ورِقّه؛ يقيمهما عند التشوف،
ويُضجعهما عند التخوّف؛ ومقلةٌ
مقتطعةٌ من الزجاج المجزّع، وكأن ناظرها من العيون البابلية
منتزع؛ قد استطال الشعر حول
أشداقه، وفوق أماقه؛ كابرٍ مغروزة على العيون، كما أحكمت برد
أطرافها القيون؛ له ناب
كحدّ المِطرَد، ولسانٌ كظهر المبرد؛ وأنفٌ أخنس وعنقٌ أوقص،
وخلقٌ سويٌّ غير منتقص،
أهرت الشِّدقين، موشّى الساعدين والساقين ململم اليدين
والرجلين؛ يرجّل بها وبره ترجيل
ذوي الهِمم، لما شعث من اللمم؛ فينفض ما لصق به من الغبار،
وعلق من الأوبار، ثم يجلوه
بلسانه جلاء الصقيل للحسام، والحمّام للأجسام؛ فينفي قذاه،
ويواري أذاه؛ ويُقعي إقعاء
الأسد إذا جلس، ويثب وثبة النمر إذا اختلس؛ له ظهرٌ شديد،
وذنَبٌ مديد؛ يهزّه هزّ
السّمهري المثقّف، وتارةً يلونه ليّ الصّولج المعقّف؛ يجول في
الخشب والأرائك، كما تجول في
الكُسايد حائك؛ يُكبّ على الماء حين يلِغَهُ، ويُدني منه فاه ولا
يُبلغه؛ ويتخذ من لسانه
رِشاءً ودَلواً، ويعلم به إن كان الماء ملِحاً أو حُلواً؛ فتسمع للماء
خضخضةً من قرْعه، وترى
للِّسان نضنضةً من حرْعه؛ يحمي داره حماية النقيب، ويحترسها
حراسة الرقيب؛ فإن رأى
فيها كلباً، صار عليه إلبا؛ وصعّر خدّه وعظّم قدّه حتى يصير نِدّه؛
أنفةً من جنانه أن
يطرق، وغيرةً على حجابه أن يُخرق؛ وإن رأى فيها هراً، وَجَفَ
إليه مكفهرّاً؛ فدافعه
بالساعد الأشدّ، ونازعه منازعة الخصم الألدّ؛ فإذا أطال
مفاوضته، وأدام مراوضته؛ أبرز
برثنه لمبادرته، وجَوشنه لمصادرته؛ ثم تسلل إليه لواذاً،
واستحوذ عليه استحواذاً؛ وشدّ

عليه شدِّه، وضمّه من غير مودّه؛ فأنسل وبره إنسالاً، وأرسل دمه إرسالاً؛ بأنياب عُصْل،
أمضى من نصل، ومخلب كمنقار الصخر، دربٍ بالاقتناص والعقْر؛ فيُصيّر قرنه ممزّق
الإهاب، مستبصراً في الذهاب، قد أفلت من بين أظفار وأنياب، ورضي من الغنيمة
بالإيّاب؛ هذا وهو يخاتله دون جُنّه، ويقاتله بلا سيوفٍ ولا أسنّة؛ وإنما جُنّته، مُنّته؛
وشِفاره، أظفاره؛ وسِنانه، أسنانه؛ إذا سمعت الفئرة منه مُغاء، لم تستطع له إصغاء؛
وتصدّعت قلوبها من الحَدَر، وتفرّقت جموعها شَذَر مَذَر؛ تهجَع العيون وهو ساهر، وتستر
الشخوص وهو ظاهر؛ يسري من عينيه بنيّرين وضّاحين، تخالهما في الظلام مصباحين؛
يُسوف الأركان، ويطوف بكلّ مكان؛ ويحكي في ضِجعته تحنّياً، وقضيب الخيزران تثنّياً؛
ثم يغطّ إذا نام، ويتمطّى إذا قام؛ ولا يكون بالنار مستدفئاً، ولا للقِدر مُكفئاً؛ ولا في الرماد
مضطجعاً، ولا للجار منتجعاً؛ بل يدبّر بكيده، وينتصر على صيده؛ قد تمرّن على قتل
الخِشاش، وافترس الطير في المسارح والأعشاش؛ يستقبل الرياح بشمه، ويجعل الاستدلال
أكبر همّه؛ ثم يكمن للفأر حيث يسمع لها خَبيثاً، أو يلمح من شيطانها دبيباً؛ فيلصق
بالأرض، وينطوي بعضه في بعض، حتى يستوى منه الطول والعرْض؛ فإذا تشوّفت الفأرة من
جحرها، وأشرفت بصدرها ونحرها؛ دبّ إليها دبيب الصِّلّ وامتدّ إليها امتداد الظلّ؛ ثم
وثب في الحين عليها وجلب الحين إليها؛ فأثخنها جراحاً، ولم يعطها بَراحاً؛ فصاحت من
شدة أسره، وقوة كسره؛ وكلّما كانت صيحتها أمدّ، كانت قبضته عليها أشد، حتى
يستأصل أوداجها فَرْياً، وعظامَها بَرْياً، ثم يدعها مخرجة الدماء، مضرجة بالدماء؛ وإن كان
جُرذاً مسِناً، لم يضع عليه سنّاً؛ وإن كان درصاً صغيراً فغر عليه فاه، وقبض مترفقاً على
قفاه؛ ليزداد منه تشهّياً وبه تلهّياً؛ ثم تلاعب به تلاعب الفُرسان بالأعنة، والأبطال بالأسنة؛
فإذا أوجعه عضّاً، وأوعبه رضّاً؛ أجهز في الفور عليه، وعمد بالأكل إليه؛ فازدرد منه
أطيب طعمه، واعتدّه أهنأ نعمه؛ ثم أظهر بالالتعاق شكره، وأعمَلَ في غيره فكره؛ فرجع

إلى حيث أثاره؛ ويتبع فيه آثاره راجياً أن يجد في رِباعه، ثانياً من أتباعه، فيلحقه بصاحبه
في الردى، حتى يفنى جميع العدي؛ وربّما انحرف عن هذه العوائد، والتقط فتات الموائد،
بِلاغاً في الاحتماء، وبِراً بالنعماء، فماله على خصاله ثمن، ولا جاء بمثاله زمن؛ وقد أوردت
- أعزك الله - من وصفه فصلاً مُغرباً، وهَزْلاً مَطرباً؛ إخلاصاً من الطوية واسترسالاً،
وتسريحاً للسجية وإرسالاً، على أني لو استعرت في وصفه لسان أبي عبيد، وأظهرت في
نعته بيان أبي زبيد؛ ما انتهيتُ في النطق إلى خطابك، ولا احتويت في السبق على
أقصابك؛ والله يبقيك لثمر النبل جانياً، ولدرج الفضل بانياً.
وقال ابن طَباطَبا يصف هرّة بلقاء:

فتنتني بظلمةٍ وضياءٍ إذ تبدّت بالعاج والآبنوس
تتلقّى الظلام من مقلتيها بشعاعٍ يحكي شعاع الشموس
ذات دلٍّ قصيرةٌ كلما قا مت تهادت، طويلةٌ في الجلوس
لم تزل تُسبغ الوضوء وتُنفي كل عضوٍ لها من التنحيس
دأبها ساعة الطهارة دفن ال عنبر الرطب في الحنوط اليبيس

وقال أبو بكر الصنوبري من أبيات - وذكر الجرذان -:

ذاد همي بهن أورق ترك ي السبالين أنمر الجلباب
ليث غابٍ خَلقاً وخُلقاً فمن عا ينه قال: إنه ليثُ غاب
قنفذ في ازبراره وهو ذئبٌ في اغترارٍ وحيةٌ في انسياب
ناصب طرقه إزاء الزوايا وإزاء السقوف والأبواب
يَنتصي الظفر حين يظفر في الحر ب وإلا فظُفره في قِراب
يسحب الصيد في أقل من اللم ح ولو كان صيدُه في السحاب

ومنها:

قرّطوه وقلّدوه وعالو ه أخيراً وأوّلاً بالخضاب
فهو طوراً يبدو بنحر عروس وهو طوراً يمشي على عُنّاب
حبّذا ذاك صاحباً فهو في الصح بة أو في سائر الأحباب

وقال أبو بكر بن العلاّف يرثي هراً-، وقد قيل: إنما رثى بها ابنه، لأنه تعرّض إلى حريم
بعض الأكابر فاغتالوه، وقتلوه؛ وقيل: بل رثى بها عبد الله بن المعتز، وورّى بهرٍّ خوفاً من
المقتدر بالله، فقال:

يا هر فارقتنا ولم تعدِ وكنت منا بمنزل الولد
وكيف ننفكّ عن هواك وقد كنت لنا عُدّةً من العُدد
تمنع عنا الأذى وتحرسنا بالغيب من خُنفس ومن جُرد
وتخرج الفأر من مكامنها ما بين مفتوحها إلى السُّدد

يلقاك في البيت منهم عدد وأنت تلقاهم بلا عدد
وكان يجري - ولا سَداد لهم- أمرك في بيتنا على سَدد
حتى اعتقدت الأذى لجيرتنا ولم تكن للأذى بمعتقد
وحُمْت حول الردى بظلمهم ومن يَحُم حول حوضه يرِدِ
وكان قلبي عليك مرتعداً وأنت تنساب غير مرتعد
تدخل برج الحمام متئداً وتخرج الفرخ غير متئد
وتطرح الريش في الطريق لهم وتبلع اللحم بلع مزدرد
أطعمك الغيّ لحمها فرأى فتلك أربابها من الرشد
كادوك دهراً فما وقعت وكم أفلتّ من كيدهم ولم تُكَدِ
حتى إذا خاتلوك واجتهدوا وساعد النفس كيدُ مجتهدِ
صادوك غيظاً عليك وانتقموا منك وزادوا ومن يصد يُصد
ثم شفوا بالحديد أنفسهم منك ولم يربعوا على أحد
لم يرحموا صوتك الضعيف كما لم ترِث منها لصوتها الغرِدِ
فحين كاشفت وانتهكت وجا هرت وأسرفت غير مقتصد
أذاقك الموت من أذاق كما أذقت أطياره يداً بيد
كأنهم يقتلون طاغية كان لطاغوته من العُبُد
فلو أكبّوا على القرامِطِ أو مالوا على زكرويه لم يَزد
يا من لذيذُ الفراخ أوقعه ويحك هلاّ قنعت بالقِدد
ما كان أغناك عن تسوّرك ال برج ولو كان جنّة الخُلُد
لا بارك الله في الطعام إذا كان هلاك النفوس في المِعَد
كم أُكلةٍ داخلت حشا شَرِهٍ فأخرجت روحه من الجسد
أردت أن تأكل الفراخ ولا يأكلك الدهر أكل مضطهد
هذا بعيدٌ من القياس وما أعزّه في الدنوّ والبُعُد
ولم تكن لي بمن دهاك يدٌ تقوى على دفعه يد الأبد
ولا تبيّن حشْو جلدك عن د الذبح من طاقةٍ ومن جَلِد
كأن حبلاً حوى - بحوزته - جِيداك للذبح كان من مسد
كأن عيني تراك مضطرباً فيه وفي فيك رغوة الزبد
وقد طلبت الخلاصَ منه فلم تقدر على حيلةٍ ولم تَجِد
فجُدت بالنفس والبخيلَ بها كنت ومن لم يجُد بها يَجُد
عشت حريصاً يقوده طمعٌ ومِتَّ ذا قاتلٍ بلا قَوَد
فما سمعنا بمثل موتك إذ مت ولا مثل عيشك النكِدِ
عشنا بخير وكنت تكلؤنا ومات جيراننا من الحسد
ثم تقلّبت في فراخهم وانقلب الحاسدون بالكمد
قد انفردنا بمأتمٍ ولهم بعدك بالعُرس أي منفرد
قد كنت في نعمةٍ وفي سعةٍ من المليك المهيمن الصمد
تأكل من فأر بيتنا رغداً وأين بالشاكرين للرغد
قد كنت بددت شملهم زمناً فاجتمعوا بعد ذلك البدد
وفتّتوا الخبز في السلال فكم تفتّتت للعيال من كبِد
فلو يبقّوا لنا على سَبَدٍ في جوف أبياتنا ولا لَبَد
وفرّغوا قعرها وما تركوا ما علّقته يدٌ على وَتِد
ومزّقوا من ثيابنا جُدداً فكلّنا في مصائب جدد
فاذهب من البيت خير مفتقدٍ واذهب من البرج شرّ مفتقد

ألم تخف وثبة الزمان وقد وثبتَ في البرج وثبة الأسد؟
أخنَى على الدار فيه بالأمس ومن قبلها على لُبَد
ولم يدعْ في عِراضها أحداً ما بين عَلياشها إلى السَّند
عاقبة البغي لا تنام وإن تأخّرت مدّة من المُدَد
من لم يمُت يومه غدَه أو لا يمُت في غدٍ فبعد غد
والحمد لله لا شريك له فكل شيءٍ يرى إلى أمد
وفيه أيضاً:
يا هر بعث الحقّ بالباطل وصرت لا تُصغي إلى عاذل
إذا أتيت البرج من خارجٍ طارت قلوب الطير من داخل
علما بما تصنع في بُرجها فهي على خوفٍ من الفاعل
قد كنت لا تغفل عن أكلها ولم يكن ربك بالغافل
فانظر إلى ما صنعت بعد ذا عقوبة المأكول بالآكل
ما زلت يا مسكين مستقتلاً حتى لقد مُنّيت للقاتل
قد كنت للرحمة مستأهلاً إذ لم أكن منك بمستأهل
وقال أيضاً:
يا رب بيتٍ ربُّه فيه تضايق مستقرُّه
لما تكاثر فأره وجفاه بعد الوصل هِرّه
وسعى إلى برجٍ امرئ فيه الفراخ كما يسرّه
ظن المنافع أكلها فإذا منافعها تضرّه
الخِنزير
والخنزير مشترك بين السبعية والبهيمية، فالذي فيه من السبعية الناب، وأكل الجيف؛
والذي فيه من البهيمية الظِّلف، وأكله العشب والعلف؛ والخنزير موصوفٌ بالشَّبق وكثر
السِّفاد، حتى إن الأنثى يركبها الذكر وهي تُرجع، فربما قطعت أميالاً وهو على ظهرها،
ويرى الرائي أثر ستة أرجل ممن لا يعرف ذلك، فيظنّ أن في الدوابّ ما له ستة أرجل؛
والخنزيرة تضع عشرين خِنّوصاً، وتحمل من ماء واحد، وتضع لمضيّ ستة أشهر من حملها؛
وقال الجاحظ: إنها تضع في أربعة أشهر؛ والخنزير إذا تمت له ثمانية أشهر، والخنزيرة إذا
تمت لها ستة أشهر اشتهت السِّفاد، ولكن لا يجيء أولادها كما يريدون؛ وأجود النزو أن
يكون ذلك منه وهو ابن عشرة أشهر إلى ثلاث سنين؛ وإذا كانت الخنزيرة بِكراً ولدت جراء
ضعافاً وكذلك البكر من كل شيء، وإذا بلغت الخنزيرة خمسة عشرة سنة لا تلد بعدها،
وهي أنسل الحيوان، والذكر أقوى الفحول على السِّفاد، وأطولها مكثاً فيه؛ ويقال: إنه ليس
شيء من ذوات الأنياب ما للخنزير من القوة في نابه، وربما طال ناباه حتى يلتقيا، فيموت

عند ذلك جوعاً، لأنهما يمنعانه من الكل، وهو متى عضّ كلباً سقط شعر الكلب، وإذا
أراد محاربة الأسد جرّب نفسه قبل الإقدام عليه بأن يضرب شجرةً بنابه، فإن قطعها
حارب الأسد، وإلا هرب منه ولم يقاتله؛ وأخبرني من رآه وقد جرّب نفسه في شجرة
وضربها بأنيابه، فتمكّنت أنيابه منها وثبتت فيها، فأراد الخلاص فعجز، فجاء الأسد إليه
وهو على تلك الحالة فافترسه؛ قالوا: ويعتري ذكوره داء الحُلاق واللِّواط، فربما يُرى الخنزير
وقد ألجأه أكثر من عشرين خنزيراً إلى مِضيق، ثم ينزو عليه الأمثلُ، إلى أن يبلغ آخرهم؛
والخنزير إذا قلعت إحدى عينيه هلك عاجلاً؛ ويقول الأطباء: إنه متى فسد من عظام
الإنسان عظمٌ ووُضع في مكانه عظمٌ من عظام الخنزير قبلته الطبيعة ونبت عليه اللحم؛
وحكى أرسطو أن عمر الخنزير من خمسة عشر سنة إلى عشرين سنة؛ وقلما ذكر الفضلاء
والشعراء الخنزير في رسائلهم وأشعارهم، وسأثبت في هذا الموضع ما وقفتُ عليه في هذا
المعنى.
فمن ذلك ما كتب به عطاء بن يعقوب الغزنوي يعرّض فيها بقاض، قال منها: وما مثل فلانٍ
في استنابته إلا كمثل رجلٍ رأى في المنام أنه يضاجع خنزيراً، فبكر إلى المعبِّر ليعبِّر منامه
تعبيراً؛ فقال المعبِّر: يا برذعة الحمير، ما غرّك بالخنزير؟ ألين ملمسه، أم حسن مَعطِسه؛ أم
شكله الرشيق، أم طرفه العشيق؛ أو لقاؤه البهج، أم قِباعه الغَنِج؛ أم شعره الرَّجل، أم ثغره
الرَّتل؟.
وقال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر في الخنزير:

وخنزيرٍ له نابٌ تراه إذا عنّ افتراسً نابي
كمثل الكلب لا بل منه أجراً ويحقر أن يشبّه بالكلاب
فذاك لنخوةٍ يُعزى وهذا يقاّل نخوةَ الرجل المُهاب
بنصٍّ للكتاب غدا حراماً وحلّل أكله أهلُ الكتاب

القسم الثاني: وفيه ثلاثة أبواب
الوحوش والظباء
وما يتصل بها من جنسها
الباب الأول فيما قيل في
الفيل والزرافة والمها والأيَّل
الفيل

يقال: إن الفيل مولّد بين الجاموس والخنزير، ولذلك يزعم بعض من بحث عن طبائع الحيوان
أن الفيلة مائية الطباع بالجاموسية والخنزيرية اللتين فيها، وبعضها يسكن الماء، وبعضها لا
يسكنه؛ ويقال: إن الفيلة صنفان: فيل، وزندبيل، وهما كالبُخت والعِراب، والبقر والجاموس،
والخيل والبَراذين، والفأر والجرذان، والنمل والذّرّ؛ وبعضهم يقول: إن الفيل الذكر، والزندبيل
الأنثى؛ وقال بعضهم: إن الزندبيل هو عظيم الفيلة والمقدَّم عليها في الحرب، وفيه يقول بعض
الشعراء:

ذاك الذي مِشفرة طويل وهو من الأفيال زندبيل

وقال آخر:

وفيله كالطود زندبيل

وقال آخر:

من بين أفيال زندبيل

وخرطوم الفيل أنفه، وبه يوصل طعامه والشراب إلى فيه، وبه يقاتل وبه يصيح، وليس
صوت الفيل على مقدار جثته؛ ولسانه مقلوب، طرفه إلى داخل فيه، وأصلُه خارج، وهو
على العكس من سائر الحيوانات؛ والهند أنه لولا ذلك لتكلّم، وهم يعظّمون الفيلة ويشرّفونها
على سائر الحيوانات؛ والفيل يتولد في أرض الهند والسند والزنج، وبجزيرة سرنديب؛ وهو
أعظمها خلْقاً، وينتهي في عظم الخَلْق إلى أن يبلغ في الارتفاع عشرة أذرع؛ وفي ألوانها الأسود
والأبيض والأبلق والأزرق؛ وهو إذا اغتلم أشبه الجمل في ترك الماء والعلف حتى ينضم
إبطاه، ويتورّم رأسه، وربما استوحش لذلك بعد استئناسه، والفيل ينزو إذا مضى له من
العمر خمس سنين، والأنثى تحمل سنتين، وإذا حملت لا يقربها الذكر، ولا ينزو عليها إذا
وضعت إلا بعد ثلاث سنين، ولا ينزو إلا على فيلة واحدة، وله عليها غيرةٌ شديدة؛ وإذا
أرادت الفيلة أن تضع دخلت النهر فتضع ولدها في الماء، لأنها تلد قائمة؛ والذكر يحرسها
ويحرس ولدها من الحيّات، وذلك لعداوة بينهما؛ قالوا: وأثنيا الفيل داخل بدنه قريباً من
كُليتيه، ولذلك هو يسفد سريعاً كالطير، لأنهما قريبتان من القلب فتنضحان المنيَّ بسرعة؛
ويقال: إن الفيل يحقد كالجمل؛ والهند يجعلون نابي الفيل قرنيه، وفيها الأعقف والمستقيم؛

قال المسعودي في مروج الذهب: وربما بلغ الناب الواحد منها خمسين ومائة مَنّ؛ ورأيت أنا
من أنياب الفيلة ما طوله يزيد على أربعة أذرع ونصف، وهو معقّف، شاهدت ذلك بمدينة
قوص في سنة سبع وتسعين وستمائة، ورأيت فيها نابين أظنّهما أخوين بهذه الصفة، وهما
معقّفان، وغلظُهما مناسبٌ لطولهما؛ والفيل يحمل بنابيه على الجدار الوثيق فيهدمه؛ ولم تزل
ملوك غَزْنة إلى سُبُكِتِكين ومن بعدهم من الملوك الغزنوية تفتتح بالفيلة المدن، وتهدم
بصدماتها الحصون، وأشهرهم بذلك يمين الدولة محمود بن سُبُكتِكين، على ما ستقف - إن
شاء الله تعالى - عليه في تاريخ الدولة الغزنزية؛ والفيل سريع الاستئناس بالناس؛ وفي طبعه
أنه إذا سمع صوت الخنزير ارتاع ونفر واعتراه الفزع؛ وقال المسعودي: إنه لا يثبت للهر، وإذا
رآه فرّ منه؛ وقال: إن رجلاً كان بالمولتان من أرض الهند يدعى هارون بن موسى مولى
الأزد، وكان شاعراً شجاعاً ذا رياسةٍ في قومه ومَنَعة بأرض السِّند مما يلي بلاد المولتان
وكان في حصن له هناك، فالتقى مع بعض ملوك الهند، وقد قدّمت الهند أمامها الفيلة، فبرز
هارون أمام الصف وقصد عظيم الفيلة، وقد خبأ سِنّوراً تحت ثيابه؛ فلما دنا في حملته من
الفيل أبرز الهرّ له، فانهزم الفيل وولى عند مشاهدته للهر، فانهزم الجيش وقتل الملك الهندي،
ولهارون بن موسى قصيدةٌ في ذلك نذكرها - إن شاء الله تعالى - عند ذكر وصف الفيل؛
والفيل إذا ورد الماء الصافي كدّره قبل أن يشربه كعادة الخيل، وهو قليل الاحتمال للبرد،
وإذا عام في الماء استتر كله إلا خرطومه؛ ويقال: إنه يصاد باللهو والطرب والزينة وروائح
الطيب؛ والزنوج تصيده بحيلة غير ذلك، وهو أنهم يعمدون إلى نوع من الأشجار، فيأخذون
ورقه ولحاءه ويجعلونه في الماء الذي تشربه الفيلة، فإذا وردته وشربت منه سكرت، فتسقط
إلى الأرض، ولا تستطيع القيام، فتقتلها الزنوج بالحراب، ويأخذون أنيابها ويحملونها إلى بلاد
عُمان، وتُنقل منها إلى البلاد؛ وأما أهل النوبة فإنهم إذا أرادوا صيدها للبقاء عمدوا إلى
طُرقها التي ترد الماء منها، فيحفرون هناك أخاديد ويسقِّفونها بالخشب الضعيف،

ويسترونها بالنبات والتراب، فإذا مر الفيل عليها انكسرت به تلك الأخشاب الضعيفة،
فيسقط في الأخدود، فعند ذلك يتبادر إليه جماعةٌ من الرجال بأيديهم العصي الرقاق،
فيضربونه الضرب الوجيع، فإذا بلغ به الألم خرج إليهم رجلٌ منهم مغايرٌ للباسهم، فيضربهم،
ويصرفهم عنه، فينصرفون، ويقف هو بالقرب من الفيل ساعة، ثم ينصرف، فإذا أبعد
وغاب عن الفيل رجع أولئك القوم وعاودوا ضربه حتى يؤلموه، فيعود ذلك الرجل فيريه أنه
ضربهم، فيتفرقوا عنه، يفعلون ذلك به أياماً والرجل يؤانس الفيل، ويأتيه بالمأكل والماء حتى
يألفه ويقرب منه، فيقال: إنه ينام بالقرب منه، ويخرج أولئك، فإذا رآهم الفيل قد أقبلوا أيقظه
بخرطومه برفق، وأشار إليه أن يردّهم عنه، فيفعل على عادته، فإذا عُلم أن الفيل استأنس
وزال استيحاشه وألف ذلك الرجل، حفروا أمامه بتدريج وتوطئة، فيطلع وقد سلس قياده،
وزال عناده، ثم يحملونه إلى المركب إلى الديار المصرية في جملة التقادم الموظفة عليهم؛
وبأرض الهند فيلةٌ غير وحشية تستأنس إلى الناس، وتتنايج بينهم، ويقاتلون عليها في
حروبهم، فيجتمع للملك الواحد من ملوك الهند منها عدةٌ كثيرة، وأكثرها يأوي المروج
والغياض كالبقر والجاموس في بلادنا؛ قال المسعودي: وهي تهرب من المكان الذي فيه
الكركدّن، فلا ترعى في موضعٍ تشمّ فيه رائحته؛ وللفيلة بأرض الهند آفةٌ عظيمةٌ من
الحيوان، وهو الذي يُعرف بالزبرق أصغر من الفهد، أحمر اللون برّاق العينين، سريع الوثبة،
يبلغ في وثبته إلى خمسين ذراعاً وأكثر، فإذا أشرف على الفيلة رش عليها ببوله، فيُحرقها،
وربما لحِق الإنسان فمات؛ وهذا الوحش إذا أشرف على أحد من أهل الهند التجأ إلى
أكبر شجر الساج، وارتقى إلى أعلاها، فيأتي هذا الوحش إليها ويثِب، فإن أدركه رش
عليه ببوله، فأحرقه وإن عجز عنه وضع رأسه بالأرض وصاح صياحاً عجيباً، فتخرج من
فمه بأسفل الفتحة بوله عليه؛ قالوا: وللهند طِيبٌ يجمعونه من جباه الفيلة ورؤوسها، فإنها
إذا اغتلمت عَرُفت هذه الأماكن منها عَرفاً كالمسك، فهم يستعملونه لظهور الشَّبق في

الرجال والنساء، وهو يقوّي النفس، ويشجّع القلب؛ قالوا: والفيل يشِبّ إلى تمام ستّين سنة،
ويُعمّر مائتي سنة؛ وأكثر؛ وحكى أرسطو أن فيلاً ظهر عمره أربعمائة سنة؛ وحكى بعض
المؤرخين أن فيلاً سجد لأبرويز، ثم سجد للمعتضد، وبينهما الزمان الذي ذكره أرسطو
واعتُبر ذلك بالوسم؛ ووقفت على حكايةٍ تُناسب ما نحن فيه، أحببت أن أثبتها في هذا
الباب، وهي: حكى الإمام الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني في كتابه الموسوم
بحلية الأولياء، قال: حدّثنا محمد بن الحسن، قال: حدّثنا عبد الوارث بن بُكَير: أن أبا
عبد الله القَلانسيّ ركب البحر، فعصفت عليهم الريح في مَركبهم، فدعا أهل المركب
وتضرّعوا، وندروا النذور، فقالوا: أي عبد الله؛ كلّنا قد عاهد الله ونذر نذراً إن أنجانا
الله، فانذر أنت نذراً، وعاهدْه عهداً؛ فقلت: أنا مجرّدٌ من الدنيا، ما لي وللنذر؛ فألحّوا عليّ
فيه؛ فقلت: لله عليّ إن خلّصني مما أنا فيه لا آكل لحم الفيل؛ فقالوا: ما هذا النذر؟ وهل
يأكل لحم الفيل أحد؟ فقلت: كذا وقع في سري، وأجراه الله على لساني؛ فانكسرت
السفينة، ووقعت في جماعةٍ من أهلها إلى الساحل، فبقينا أيّاماً لم نذق ذَواقاً، فبينا نحن
قعودٌ إذا نحن بولد فيل؛ فأخذوه فذبحوه وأكلوا من لحمه، وعرضوا عليّ أكله، فقلت: أنا
نذرت وعاهدت الله أن لا آكل لحم الفيل، فاعتلّوا عليّ بأني مضطر، ولي فسخُ العهد
لاضطراري، فأبيت عليهم، وثبتُّ على العهد، فأكلوا وامتلأوا وناموا، فبينما هم نيامٌ إذ
جاءت الفيلة تطلب ولدها، وتتبع أثره، فلم تزل تشم الرائحة حتى انتهت إلى عظام ولدها،
فشمّتها، ثم جاءت وأنا أنظر إليها، فلم تزل تشم واحداً واحداً، فكلما شممت من واحدٍ
رائحة اللحم داسته برجلها أو بيدها فقتلته، قطع من الدم ويموت من ساعته ويحترف من
الشجرة ما يقع حتى قتلتهم كلّهم، ثم أقبلت إليّ، فلم تزل تشمّني فلم تجد مني رائحة اللحم،
فأدارت مؤخّرها وأومأت إليّ بخرطومها أن أركب؛ فلم أقف على ما أومأت به، فرفعت
ذنبها ورجلها، فعلمت أنها تريد مني ركوبها، فركبتها واستويت عليها، وأومأت إليّ أن

أستوِ، فاستويت على شيءٍ وطئ، فسارت سيراً عنيفاً إلى أن جاءت بي في ليلتي إلى
موضع زرع وسواد، فأومأت إليّ أن أنزل، وبركت برجلها حتى نزلت عنها، فسارت سيراً
أشدّ من سيرها بي، فلما أصبحت رأيت زرعاً وسَواداً وناساً، فحملوني إلى ملكهم،
وسألني تُرجمانه، فأخبرته بالقصة وبما جرى على القوم، فقال لي: أتدري كم المسير الذي
سارت بك الليلة؟ فقلت: لا، فقال: مسيرة ثمانية أيام سارت بك في ليلة، فليثبت عندهم
إلى أن حُمِلت ورجعت؛ والله أعلم بالصواب.

وصف الفيل نظماً

من ذلك ما قاله الأرجاني من أبيات وصف فيها مجلس ممدوحه، فقال:

والفيلُ في ذيل السِّماط له زَجَلٌ يُهال له الفتى ذُعرا
في موقفٍ الحُجّاب يؤمر أو يُنهى فيُمضي النهيَ والأمرا
أذنان كالتُّرْسين تحتهما نابان كالرمحين إن كرّا
يعلو له فَيّاله ظَهَراً فيظلّ مِثلَ من اعتلى قصْرا

وقال عبد الكريم النهشلي يصفه:

وأضخم هندي النجار تعده ملوك بني ساسان إن نابها دهر
يجيء كطودٍ جائلٍ فوق أربعٍ مضبّرةٍ لُمّت كما لُمّت الصخر
له فخذان كالكثيبين لُبِّداً وصدرٌ كما أوفى من الهَضْبة الصدر
ووجهٌ به أنفٌ كراووق خمرةٍ ينال به ما تدرك الأنمل العشر
وجُبّان لا يُروي الفُليب صداهما ولو أنه بالقاع مُنْهرِتٌ حَفْر
وأذنٌ كنصف البُرد تُسمعه النَّدا خفيّاً وطرْفٌ ينفض العيبَ مَزْوَر
ونابان شُقّا لا يريد سواهما قناتين سمراوين طعنُهما بَتْر
له لون ما بين الصباح وليله إذا نطق العصفور أو صوّت الصقر

وله ابن طَباطَبا:

أعجب بفيلٍ آنس وحشيَّ بهيمةٍ في فطنة الإنسي
يفهم عن سائسه الهنديّ غيبَ معاني رمزه الخفيّ
مثل السدى الموثّق المبنيّ منزّهٍ في خُلُقه السَّويِّ
عن لين مشيٍ رُكِبِ المطيِّ ذي ذنَبٍ مطوَّلٍ ثَوْريّ
في مثل رِدْفِ الجمل البُخْتيّ منخفض الصوت طويل العيِّ
يطوف كالمزدجر المنهيِّ يرنو بطرْفٍ منه شادنيِّ
في قبح وجهٍ منه خنزيري خرطومه كجعبة التركيِّ
حكى فما من سمكٍ بحريّ تُبصره في فيه ذا هويِّ
كالدلو إذ تهوى إلى القَرِيّ يصُبّ في مصهرجٍ مطويِّ
ناباه في هولهما المخشيِّ كمثل قرني ناطحٍ طوريِّ
أذناه في صِبغِهما الفضّيّ كطيلساني ولدَيْ ذِمّيِّ
سائسُه عليه ذو رُقيِّ منتصبٌ منه على كرسيِّ

يطيعه في أمره المأبيِّ كطاعة القُرقورِ للنُّوتيِّ
وقال آخر منشداً:
من يركب الفيل فهذا الفيل إن الذي يحمله محمول
على تهاويل لها تهويل كالطود إلا أنه يجول
وقال ابن الرومي:
يقلّب جُثماناً عظيماً موثَّقاً يهُدّ بركنيه الجبالَ إذا زَحَمْ
ويسطو بخرطومٍ يطاوع أمره ومشتبهات ما أصاب بها غَنِمْ
ولست ترى بأساً يقوم لبأسه إذا أعمل النابين في البأس أو صَدَمْ
وقال هارون بن موسى مولى الأزْد يصفه ويذكر خوفَه من الهِرّ:
أليس عجيباً بأن خِلقةٌ لها فِطَن الإنس في حِرم فيلْ
وأظرف من مشيه زوّله بحلمٍ يَجلّ عن الخنشليل
وأوقَصُ مختلفٌ خَلقه طويلُ النُّيوب قصيرُ النَّصيلْ
ويلقى العدو بنابٍ عظيمٍ وجوفٍ رحيبٍ وصوتٍ ضئيلْ
وأشبه شيءٍ إذا قسته بخنزير برٍّ وجاموس غِيلْ
ينازعه كلّ ذي أربعٍ فما في الأنام له من عديلْ
ويعصف بالبرْ بعدَ النُّمور كما تعصف الريح بالعندبيل
وشخصٌ تُرى يدُه أنفَه فإن وصفوه فسيفٌ صَقيل
وأقبل كالطود هادي الخميس بهولٍ شديدٍ أمام الرَّعيلْ
ومرّ يسيل كسيل الآتيِّ بوطءٍ خفيفٍ وجسمٍ ثقيل
فإن شِمتَه زاد في هوله بشاعةُ أذنين في رأس غول
وقد كنت أعددت هراً له قليل التهيب للزندبيل
فلما أحس به في العَجاج أتانا الإله بفتحٍ جليلْ
فسبحان خالقه وحده إله الأنام وربّ الفُيولْ
وقال أبو الحسن الجوهري يصف الفيل من قصيدته التي أولها:
قل للوزير وقد تبدّى يستعرض الكرم المعدّا
أفنيت أسباب العلا حتى أبت أن تُستجدّا
لو مس راحتُك السحا ب لأمطرت كرماً ومجدا
لم ترضَ بالخيل التي شدّت إلى العلياء شدّا
وصرائمِ الرأي التي كانت على الأعداء جندا
حتى دعوت إلى العدى ما لا يلام إذا تعدّى
متقمّصاً تبه العلو ج وفطنةً أعيتْ معدّا
متعسّفاً طُرُق العوا لي حين لا يُستاق قصدا
فيلاً كرضْوى حين يل بس من رقاق الغيمِ بُردا
مثل الغمامة مُلِّئت أكنافُها برقاً ورعدا
رأسٌ كقُلّة شاهقٍ كُسيت من الخيلاء جِلدا
فتراه من فرطِ الدلا ل مصعِّراً في الناس خدّا
يُزهَى بخرطوم كمث ل الصولجان يُرَدُّ ردّا
متمدِّدٍ كالأُفعُوا ن تمدّه الرّمضاء مدّا
أو كُمِّ راقصةٍ تش ربه إلى النَّدمان وجدا
أو كالمصلب شُد جن باه إلى جذعين شَدا
وكأنه بوقٌ يحرّ كه لينفخ فيه جدّا

يسطو بساريتي لجي ن يحطمان الصخر هدّا
أذناه مروحتان أسند تا إلى الفودين عقدا
عيناه غائرتان ضُيّ قتا لجمع الضوء عمدا
فكّ كفُوَّهة الخلي ج يلوك طول الدهر حِقدا
تلقاه من بعدٍ فتح سبه غماماً قد تبدّى
مَتناً كبنيان الخَوَر نَق ما يلاقي الدهر كدّا
ردفاً كدكّة عنبرٍ متمايل الأوراك نَهْدا
ذَنَبا كمثلِ السوطِ يض رب حولَه ساقاً وزَندا
يخطو على أمثال أع مدة الخباء إذا تصدى
أو مثل أميالٍ نضد ن من الصخور الصُّمّ نَضْدا
متورِّدٌ حوضَ المن يّة حين لا يُشتاق وِردا
متملِّقٌ فكأنه متطلّبٌ ما لن يُودّا
متلفِّعٌ بالكبريا ء كأنه ملكٌ مفدّى
أدنى إلى الشيء البعي د يراد من وهْمٍ وأهدى
أذكى من الإنسان حتى ل و رأى خَللاً لَسُدّا
لو أنّه ذو لهجةٍ وفَّى كتاب الله سردا
عقّته أرض الهند حت ى حل من زهوٍ هرندا
قل للوزير: عبدت حت ى قد أتاك الفيل عبدا
سبحان من جمع المحا سن عنده قرباً وبُعدا

الكركدّن

والكركدّن من الحيوان الشديد القوة، القليل العدد، وهو شبيه بالجاموس إلا أنه أغلظ
وأعتى وأنبل منه، وله قرنٌ غليظٌ غير طويل في جبهته، وقرنٌ أخر ألطف منه؛ وقد ذكره
صاحب المنطق في كتاب الحيوان وسماه الحمار الهندي؛ وقال الجاحظ في كتاب الحيوان:
وإنما قلّ عدد هذا الجنس لأن الأنثى منه منها ما تكون نَزورا، وأيام حمْلها ليست أقلّ من
أيام حَمِل الفيلة؛ وهذا الحيوان يكون بأرض الهند وبلاد الحبشة؛ وتزعم الهند أنه إذا كان
يرعَ شيءٌ من الحيوان شيئاً في أكناف تلك البلاد هيبة له وخضوعاً وهرباً منه، وليس هو
ببلاد الحبشة كذلك، بل يختلط به غيره من الحيوان؛ قال الجاحظ: وقد قالوا في ولدها وهو
في بطنها لولا أنه ظاهرٌ على ألسنة الهند لكان أكثر الناس بل كثيرٌ من العلماء يُدخلونه في
الخُرافة، وذلك أنهم يزعمون أن أيام حملها إذا كادت أن تتم ونضجت وسخنت وجاء وقت
الولادة فربما أخرج الولد رأسه من ظَبْيتها فأكل من أطراف الشجر، فإذا شبع أدخل رأسه،
حتى إذا تمت أيامه، وضاق به مكانه، وأنكرته الرحم، وضعته مطيقاً قوياً على الكسب

والحُضْر، لا يعرض له شيء من السباع؛ وهذا القول أيضاً ذكره المسعودي؛ قال: وإذا اغتلم
الفيل في بلاد الهند لا يقوم له شيء من الوحوش إلا الكركدن، فإنه يقتحم عليه، فيُحجم
عنه ويذهب عنه سكر الاغتلام؛ وقيل: إنه يطعن الفيل بقرنه فيموتا جميعاً، فمنهم من يقول:
إنه يثقل عليه فلا يستطيع أن يُخرج قرنه من جوفه، فيكون ذلك سبب حتفهما؛ ومنهم من
يقول: إن قرنَه من السّموم التي تقتل الفيل، ودم الفيل من السّموم التي إذا وقعت على قرن
الكركدن مات؛ وحكي لي من يرجع إلى قوله، ويُعتمد على نقله من الحُبوش أن الكركدن
ببلاد الحبشة إذا رأى الرجل قصده ليقتله، فيعمد الرجل إلى شجرةٍ فيتعلّق بها، فيحاوله
الكركدن، فربما كسر تلك الشجرة وأهلكه، فإن بال الرجل على أذن الكركدن هرب
وأسرع الحُضْر فلا يقف ولا يعود إليه، فيسلَم منه؛ والله أعلم بالصواب.

الزرافة

والزرافة في كلام العرب: الجماعة، وإنما سميت الزرافة زرافةً لاجتماع صفاتٍ عدة من
الحيوان فيها، وهي عنق الجمل، وجلد النمر، وقرن الظبي، وأسنان البقر، ورأس الأيل؛
وزعم بعض من تكلم في طبائع الحيوان أنها متولدة من حيوانات، ويقال: إن السبب في ذلك
اجتماع الوحوش والدواب في القيظ في شرائع المياه، فتتسافد، فيلقح منها ما يلقح، ويمتنع ما
يمتنع، فربما يسفد الأنثى من الحيوان ذكورٌ كثيرة، فتختلط مياهها، فيجيء خلقٌ مختلف
الصور والألوان والأشكال؛ والفُرْس تسمّى الزرافة اشتُركا ويلنك وتفسير اشْتُر: بعير؛
وتفسير كاو: بقرة؛ وتفسير يلنْك: الضبع؛ وهذا موافق لما ذهبت إليه العرب من كونها
مركبة الخلق من حيوانات شتى؛ والجاحظ ينكر هذا القول، ويقول: هو جهل شديد، لا
يصدر عمن لديه تحصيل، لأن الله عز وجل يخلق ما يشاء على ما يشاء، وهو نوعٌ من
الحيوان قائم بنفسه كقيام الخيل والحُمُر، وما يحقّق ذلك أنه يلد مثله؛ وهذا غير منكور، فإنا
نحن رأينا زرافة بالقاهرة ولدت زرافة أخرى شبهها، وعاشت إلى الآن؛ وصفة الزرافة أنها

طويلة اليدين والعنق جداً، منها ما يزيد طوله على عشرة أذرع، قصيرة الرجلين جداً،
وليس لرجليها ركب، وإنما الركب لديها كسائر البهائم؛ وهي تجترّ وتبعَر، وفي طبع هذا
الحيوان التودّد للناس والتآلف بهم.

وصف الزرافة

وقد وصفها الشعراء وشبّهوها في أشعارهم، فمن ذلك ما قاله عبد الجبار بن حَمديس
الصِّقلي:

ونوبيةٍ في الخلق فيها خلائقٌ متى ما ترقّ العين فيها تسفل
إذا ما اسمها ألقاه في السمع ذاكر رأى الطرف منها ما عناه بمقوَل
لها فخذاً وأظلاف فَرْهَبٍ وناظرتا رِئْمٍ وهامةُ إيَّل
كأن الخطوط البيض والصفرا أشبهت على جِسمها ترصيع عاج بصندل
ودائمة الإقعاء في أصل خلقها إذا قابلت أدبارُها مقبل
تلفّت أحياناً بعينٍ كحيلةٍ وجيدٍ على طول اللواء المظلّل
وتنفُض رأساً في الزمام كأنما تريك له في الجو نِفضة أجدل
إذا طلع النطْح استجادت نطاحه رأسٍ له هادٍ على السُّحب معتلي
وعُرْفٌ رقيق الشعر تحسب نبته إذا الريح هزته ذوائب سنبل
وتحسبها من مشيها إن تبخترت تُوفّ إلى بعلٍ عروساً وتنجلي
فكم منشد قولَ القيس عندها أفاطم مهلاً بعض التدلّل

وقال عُمارة اليمني - وقد وصف تصاوير دارٍ منها زرافة -:

وبها زرافاتٌ كأن رقابها في الطول ألويةٌ تؤمّ العسكرا
نوبية المنشا تريك من المها روقاً ومن بُزل المهاري مِشفَرا
جُبلت على الإقعاء من إعجابها فتخالُها للتيه تمشي القهقرى

وقال أبو علي بن رشيق منشداً:

ومجنونةٍ أبداً لم تكن مذلّلة الظهر للراكب
قد اتصل الجيد من ظهرها بمثل السَّنام بلا غارب
ملمّعة مثلما لُمِّعت بحِنّاء وشى يدُ الكاعِب
كأن الجواري كنّفنها تخلّج من كل ما جانب

وقال أيضاً:

وأتتك من كسب الملوك زرافةٌ شتى الصفات للونها أثناء
جمعت محاسن ما حكت فتناسبت في خُلقها وتنافت الأعضاء
تحتثّها بين الخوافق مشيةٌ بادٍ عليها الكبرُ والخُيلاء
وتمدّ جيداً في الهواء يزينها فكأنه تحت اللواء لواء
خُطّت كآخرها وأشرف صدرُها حتى كأن وقوفها أقعاء

وكأن فِهْرَ الطِّيب ما رجمت به وجه الثرى لو لُمّت الأجزاء
وتخيّرت دون الملابس حُلّةً عيت بصنعة مثلها صنعاء
لوناً كلون الدَّبل إلا أنه حلّى وجزّع بعضه الجلاّء
أو كالسحاب المكفهرّة خطّطت فيها البروق وميضها إيماء
أو مثلما صَدئت صفائح جوشنٍ وجرى على حافاتهن جِلاء
نعم التجافيف التي قد دُرّعت من جلدها لو كان فيه وِقاء

وقال محمد بن شرف القيرواني:

غريبة أشكالٍ غريبة دار لها لون فضةٍ ونُضار
فلونٌ لها لون البياض وصفرةٍ كما مُزجت بالماء كأس عُقار
وآخر ما بين اسوداد وحمرةٍ كما احمرّ مسودُّ الدخان بنار
أعيرت شخوصاً وهي في شخص واحد يحيّر في نشْزٍ لها وقِفار
تقوم على ما بين ظِلفٍ وحافرٍ له جسم جُلمودٍ وصبغة قار
وأربعةٍ تحكي سبائك عسجدٍ تطير بها في الأرض كلّ مطار
لها عنقٌ قد خالط الجوّ تحته طوالٌ لها تخطو أمام قصار
وذات قرىً وعْر الركوب وإنما أجلّت بذا عن ذِلةٍ وصَغارِ
لها عِجْبة التَيّاه عُجْباً بنفسها ولكنّ ذاك العُجب تحت وقار

البقر الوحشية

- وهي المها - والإيَّل

ولنبدأ بذكر ترتيب سنّها، ثم نذكر ما قيل فيها؛

أما سنها - فقد قالت العرب: ولد البقرة الوحشية ما دام يرضع فهو فزٌّ وفرقدٌ وفرير؛ فإذا
ارتفع عن ذلك فهو يعفورٌ وجؤذُرٌ، وبحْزَج؛ فإذا شب فهو مهاة فإذا أسنّ فهو قرْهَب؛ هذا
ما قيل في سنها.

وأما ما قيل في المها - فذكر من بحث عن طبائع الحيوان أن من طباعها الشبق والشهوة؛
وأن الأنثى إذا حملت هربت من الذكر خوفاً من عبثه بها في الحمل؛ والذكر لفرط شهوته
يركب الذكر؛ وإذا ركب واحدٌ منها شم الباقي روائح الماء منه، فيثبن عليه، ولا يمنع ما
يثب عليه بعد ذلك؛ ولم أقف من أحواله على غير هذا الذي أوردته، فلنذكر ما وصف
به.

وصف المها

فمن ذلك ما قاله كاتبٌ أندلسي من رسالةٍ طرديةٍ، جاء منها:

وعنّ لنا سِربُ نعاجٍ يمشين وهْواً كمشي العذارى، ويتثنّين زهواً تثنّي السُّكارى؛ كأنما تُجلّل بالكافور جلودها،
وتُضمّخ بالمسك قوائمها وخدودها؛ وكأنما لبسن الدِّمَقْس سِربالاً، واتخذن السندس
سِروالاً.

من كل مهضمة الحشا وحشيةٍ تحمي مَداريها دماء جلودها
وكأنما أقلام حبرٍ كتبت بمداد عينيها طُروس خدودها
فأرسلنا أولي الخيل على أخراها، وخلّيناها وإياها؛ فمضت مُضيّ السهام، وهوت هُوِيّ
السَّمام؛ فجالت في أسرابها يميناً وشِمالاً؛ فكأنما أهدت لآجالها آجالاً؛ فمن متّقٍ بروقه،
وكابٍ أتاه حتفُه من فوقِه.
وقال الأخطل يصف ثوراً:
فما به غير موشيٍّ أكارعه إذا أحس بشخصٍ ماثلٍ مَثُلا
كأن عطّارة باتت تُطيف به حتى تسربلَ ماءَ الوَرس وانتعلا
كأنه ساجدٌ من نضْج ديمته مقدِّسٌ قام تحت الليل فابتهلا
ينفي التراب بروقيه وكلكله كما استماز رئيس المِقْنَب النَّفَلا
وقال عدي بن الرقاع يصف ثورين يعدوان:
يتعاوران من الغبار مُلاءةً بيضاء محكمةٌ هما نسجاها
تطوّى إذا وردا مكاناً جاسياً وإذا السنابك أسهلت نشراها
وقال الطِّرمّاح يصف عدوه بسرعة:
يبدو وتُضمره البلاد كأنه سيفٌ على شرفٍ يُسَلّ ويُغمَد
وأما ما قيل في الإيّل - فهو من أصناف البقر الوحشية، وهذا الحيوان يسمن كثيراً، وإذا
سمن اختفى خوفاً أن يصاد لسمنه؛ وهو مولع بأكل الحيّات، يطلبها في كل موضع، فإن
انجحرت أخذ الماء بفمه، ونفخه في الحُجر، فتُخرج له ذنبها فيأكلها، حتى إذا انتهى إلى
رأسها تركه خوفاً من السم، وربما لسعته فتسيل دموعه إلى نقرتين تحت محاجر عينيه
تدخل في كل واحدةٍ منهما الإصبع، فتجمد تلك الدموع فتصير كالشمع، تُتخذ دِرياقاً لسم
الحيات، وهو البازَهر الحيواني؛ قالوا: وإذا لسعته الحيات أكل السراطين فيبرأ ويبرئه أكل
التفاح أيضاً وورق شجره؛ وهو لا تنبت له قرونٌ إلا بعد أن تمضي له سنتان من عمره، فإذا
نبت قرناه نبتا مستقيمين كالوتدين، وفي الثالثة يتشعبان، ولا يزال التشعب في زيادة إلى تمام
ست سنين، وحينئذ يكونان كالشجرتين على رأسه، ثم بعد ذلك يلقي قرونه في كل سنة،
ثم تنبت، وإذا نبتا عرّضهما للشمس حتى يصابا؛ وهما إذا كبرا على رأسه منعاه من
الجري؛ ولا يكاد يفلت إذا طلبته الخبل؛ وإذا ألقى قرونه علم أنه ألقى سلاحه، فهو لا يظهر؛
قال الجاحظ: قال صاحب المنطق: إن أنثى الإيّل إذا وضعت ولداً أكلت مشيمتها فتظنّ

أنه شيء تتداوى به من علة النفاس؛ وزعم أرسطو أن هذا النوع يصاد بالصفير والغناء،
وهو لا ينام ما دام يسمع ذلك، ومن أراد صيده من الصيادين شغله بعضهم بالتطريب،
ويأتيه البعض من خلفه، فإذا رأوه مسترخياً أذناه وثبوا عليه؛ وإذا اشتد عليه العطش من
أكل الحيّات أتى غدير الماء واشتمه، ثم انصرف عنه، يفعل ذلك أربعة أيام، ثم يشرب اليوم
الخامس، وإنما يمتنع من شرب الماء خوفاً على نفسه من سَريان السم في جسده مع الماء؛
والله أعلم.
قال بعض الشعراء:

هجرتك لا قِلىً مني ولكن رأيت بقاء وُدّك في الصّدود
كهجر الظامئات الماء لما تيقّن المنايا في الورود
تذوب نفوسها ظمأً وتخشى هلاكاً فهي تنظر من بعيد

وقال أخر في مثل ذلك:

وما ظامئات طال في القيظ ظِمئها فجاءت وفي الأحشاء غَلْي المراجل
فلما رأين الماء عذباً وقد أتت إليه رأين الموت دون المناهل
فولّت ولم تشفي صداها وقد طوت حشاها على وخز الأفاعي القواتل
بأعظم من شوقي إليكِ وحسرتي عليكِ ولم ألتذ منكِ بطائلِ

الباب الثاني: فيما قيل في
الحمر الوحشية والوَعْل واللّمط
الحُمُر الوحشية
والحمار الوحشي يسمى العير والفرَأ؛ وبه ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل،
فقال: "كل الصيد في جوف الفَرَإ"؛ ويقال: إنه ينزو إذا بلغ ثلاثين شهراً من عمره؛ وهو
يوصف بشدة الغَيرة؛ ويقال: إن الأنثى إذا ولدت جحشاً كَدَم الذكر قضيبه، فالإناث تُعمِل
الحيلة في إبقائه، فتهرب به من أبيه، وتكسر رجله ليستقر بذلك المكان، وهي تتعهده
وترضعه، فإذا انجبرت رجله وقويت وصحت، وأمكنه المشي عليها، يكون قد حصل فيه
من القوة والجري ما يدفع به عن نفسه، ويهرب إذا أبوه أو من هو أقوى منه أراد خصاءه؛
ويقال: إن الحمار الوحشي يعمّر مائتي سنة وأكثر من ذلك، وكلما بلغ مائة سنة صارت له
مبولة ثانية؛ قالوا: وشوهد منها ما له ثلاث مباول وأربع؛ ومعادنه بلاد النوبة وزُغاوة،

ويوجد منه ما تكون شِيَتُه معمَّدةً ببياض وسوادٍ في الطول من أعضائه المستطيلة،
ومستديرة فيما استدار منها بأصح قسمة؛ ومنها صِنفٌ يسمى الأخدري وهو أطولها
أعماراً.
وقد وصفها أبو الفرج الببغاء من رسالةٍ ذكر فيها أتاناً معمّدةً ببياض وسواد كانت قد
أهديت لعز الدولة بُخْتِيار بن بُوَيه من جهة صاحب اليمن، قال: وأما الأتان، الناطقة في
كمال الصنعة بأفصح لسان؛ فإن الزمان لاطف مولانا - أيده الله - منها بأنفس مذخور،
وأحسن منظور؛ وأعجب مرئيّ، وأغرب موشيّ؛ وأفخر مركوب، وأشرف مجنوب؛ وأعز
موجود، وأبهى مخدود؛ كأنما وسمها الكمال بنهايته، أو لحظها الفلك بعنايته؛ فصاغها من
ليله ونهاره، وحلاّها بنجومه وأقماره، ونقشها ببدائع آثاره؛ ورمقها بنواظر سعوده، وجعلها
أحد جدوده؛ ذات إهابٍ مسيّر، وقربٍ محبّر، وذنَبٍ وشَوىً مسوَّر؛ ووجهٍ مزجَّج، ورأس
متوَّج؛ تكنُفه أذنان، كأنهما زُجّان؛ سُبجية الأنصاف، بلّورية الأطراف، جامعة شِيتَها
بالترتيب، بين زمني الشبيبة والمشيب؛ فهي قيد الأبصار، وأمد الأفكار، ونهاية الاعتبار؛
غنيٍ عن الحلْيِ عَطَلها، مُزريةٌ بالزهر حللها؛ واحدة جنسها، وعالَم نفسها صنعةُ المنشئ
الحكيم، وتقدير العزيز العليم.
وقال ابن المعتز:

شغلته لواقحُ ملأته غَيرةً فهو خلقهن كَمِيُّ
قابضٌ جمْعَها إليه كما يج مع أيتامه إليه الوصيّ
كلّما شمّ لاقحاً شُمّ منها رأس فحلٍ برجلها مَفْليُّ
خارجٌ من ظلال نقْعٍ كما فرّ ق جلبابه الخليع الغَويُّ
قد طواها التسويق والشد حتى هي قُبٌّ كأنهنّ القِسيُّ
هربت من رؤوسهن عيونٌ غائراتٌ كأنهنّ الرُّكِيُّ

الوعل
الوعل، هو التيس الجبلي، والأنثى تسمى أُروِيّة؛ وهي شاهُ الوحش؛ وفي طباع هذا
الحيوان أنه يأوي الأماكن الوعرة والخشنة من الجبال؛ ولا يزال مجتمعاً، فإذا كان في وقت
الولادة تفرّق؛ وإذا اجتمع في ضَرْع الأنثى لبنٌ امتصته؛ والذكر إذا ضعُف عن النزو أكل
البلوط فتقوى شهوته، ومتى فقد الأنثى انتزع منيّه بفيه بالامتصاص، وذلك لشدة الشَّبَق؛

وهو إذا جُرح عمد إلى الخضرة التي تكون على الحجارة، فيمضغها ويجعلها على الجرح
فيبرأ؛ وإذا أحسّ بقنّاصٍ وهو في مكانه المرتفع استلقى على ظهره، ثم يُزجّ بنفسه فينحدر
من أعلى الجبل إلى أسفله، وقَرناه يقيانه ألمَ الحجارة، ويُسرعان هبوطَه لملاستهما فإنهما من
رأسه إلى عَجُزه؛ وفي طبع هذا الحيوان الحنوّ على ولده والبر بوالديه؛ أما حنّوه على ولده
فإنه إذا صيد منها شيء تبعته أمه واختارت أن تكون معه في الشرك؛ وأما بره بوالديه،
فإنهما إذا عجزا عن الكسب لأنفسهما أتاهما بما يأكلانه، وواساهما من كسبه، فإن عجزا
عن الأكل مضغ لهما وأطعمهما؛ ويقال: إن في قرنيه ثَقْبين يتنفس منهما، فمتى سُدّا جميعاً
هلك.

ما وصف به الوعل

وقد وصفه الشعراء، فمن ذلك ما قاله الصاحب بن عباد:

وأعيَرَ كالدَّرى في سَفلاته سوادٌ وأعلى ظاهر اللون واضحُ
موقّف أنصاف اليدين كأنه إذا راح يجري بالصريمة رامحُ

وقال أبو الطيب المتنبي:

وأوفَتَ الفُدْر من الوعال مرتدياتٍ بقسِّي الضَّال
نواخِسَ الطراف للكفال يكدن يَنفُذن من الطال
لها لَحى سودٌ بلا سِبال يصلحن ضحاك الإجلال
كل أثيثٍ نبتُه مثْفال لم يُغذَ بالمسك ولا الغوالي

يرضى من الأدهان بالأبوال

اللمط

واللمط حيوانٌ وحشي يكون ببلاد الغرب الجَوّاني، قي قدر المهر اللطيف، له قرونٌ غير
متشعبة، ولا مفاصل لرُكبه، فهو لا يستطيع النوم إلا مستنداً إلى شجرة أو جدار، فإذا أريد
صيده عمد من يريد ذلك إلى تلك الشجرة التي هي في محلّ مظانّ نومه، فينشر أكثرها،
ويترك منها يسيراً إلا يحمله، فإذا استند إليها سقطت وسقط بسقوطها، فيؤخذ ويُذبح
وتُتخذ من جلده دَرَقٌ تباع بالأثمان الغالية، تردّ طعنة الرمح ورشقة السهم، ومهما أصابها
من الحديد انطوى، فإن تمكن منها ونُزع وبقي أثره والتحم في اليوم الثاني وخفي أثره؛
أخبرني بذلك من أثق بقوله.

الباب الثالث

الظبي والأرنب والقرد والنعام

الظبي

للظباء أسماءٌ نطقت بها العرب، واحدها ظبي، والأنثى ظَبية، وولدها طَلا وغزال؛ فإذا
تحرك ومشي فهو رَشَأ؛ فإذا ثبت قرناه فهو شادنٌ وخِشْف؛ فإذا قوِي فهو شَصَر، والأنثى
شَصَرة، ثم هو جَذَع، ثم ثَنيّ، ولا يزال ثَنيّاً حتى يموت. والظِّباء أنواعٌ تختلف بحسب
مواضعها؛ فصِنفٌ منها يسمى الآرام، وهي الخالصة البياض، ومساكنها الرمل، وهي
أشدها حُضراً؛ وصِنفٌ يسمى العُفْر، وألوانها بيضٌ تعلوها حمرة؛ وصِنفٌ يسمى الأدْم،
وألوانها أيضاً كذلك، ومساكنها الجبال؛ ومن طبع هذا الحيوان أنه إذا فقد الماء استنشق
النسيم فاعتاض به عنه؛ وهو إذا طُلب لم يجهد نفسه في الحُضْر لأوّل وهلة، ولكنه يرفق
بنفسه، فإذا رأى طالبه قد قرُب منه زاد في حُضْره حتى يفوت الطالب؛ وهو يخْضَم
الحنظل حتى يرى ماؤه يسيل من شِدقيه؛ ويرد الماء الملح الأُجاج فيغمس لحيته فيه كما
تفعل الشاة في الماء العذب، يطلب النوى المُنْقَع فيه؛ وهو لا يدخل كناسه إلا مستدبراً،
يستقبل بعينيه ما يخافه على نفسه، وله نومتان في مَكْنِسين: مَكْنس الضُّحى، ومكنس
العشيّ، وهو يصاد بالنار، فإنه إذا رآها ذَهِل لها ودُهش، سيما إذا أضيف إلى إشعال
النار تحريك الجرس، فإنه ينخذل ولا يبقى به حراكٌ البتة؛ وبين الظبي والحجل ألفةٌ ومحبّةٌ؛
وهو يوصف بحدّة النظر.

غزال المِسْك

ولونه أسود، وله نابان خفيفان أبيضان خارجان من فيه في فكه الأسفل، قائمان في وجهه
كنابي الخنزير، كل واحدٍ منهما دون الفِتْر، على هيئة ناب الفيل؛ ويكون هذا الغزال ببلاد
التُّبَّت وبالهند؛ ويقال إنه يسافر من التُّبَّت إلى الهند بعد أن يرعى من حشيش التِّبَّت -
وهو غير طيّب - فيُلقي ذلك المسك بالهند، فيكون رديئاً لأنه يحصُل عن ذلك المرعى، ثم
يرعى حشيش الهند الطيب ويعقد منه مسكاً، ويأتي بلاد التُّبَّت فيلقيه فيها، فيكون
أجودَ مما يلقيه في بلاد الهند؛ وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر المسك في بابه في آخر فنّ
النبات في القسم المذيّل به مستوفىً، فلا فائدة في تكراره؛ فلنذكرها ما وُصف به الغزال من

الشعر.
قال ذو الرُّمة - وذكر محبوبته -:
ذكرتُكِ أن مرت بنا أم شادنٍ أمام المطايا تشرئبّ وتسنَحُ
من المؤلفات الرمل أدماءُ حُرّةٌ شعاعُ الضحى في متنها يتوضّح
هي الشبه أعطافاً وجِيداً ومقلةً وميّةُ أبهى بعدُ منها وأملح
وقال آخر:
وحاليةٍ بالحسن والجيد عاطلٌ ومكحولة العينين لم تكتحل قطّ
على رأسها من قرنها الجَعْد وفرةٌ وفي خدِّها من صُدغها شاهدٌ سَبط
وقد أدمجت بالشحم حتى كأنما ملاءتها من فرط ما اندمجت قمْط
الأرنب
قال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان: إن قضيب الأرنب كذكر الثعلب، أحد شطريه
عظم، والآخر عصب؛ وربما ركبت الأنثى الذكر حين الفساد لما فيها من الشَّبَق، وتسفد
وهي حبلى؛ وهي قليلة الإدرار على ولدها؛ ويزعمون أنه يكون شهرين ذكراً، وشهرين
أنثى؛ وحكى ابن الأثير في تاريخه الكامل في حوادث ستة ثلاث وعشرين وستمائة، قال:
وفيها اصطاد صديق لنا أرنباً، فرآها لها أنثيان وذكر وفرج أنثى، فلما شقوا بطنها رأوا
فيه خُرَيقين. والأرنب تنام مفتوحة العينين، وسبب ذلك أن حِجاحَيْ عينيها لا يلتقيان؛
ويقال: إن الأرنب إذا رأت البحر ماتت، ولذلك لا توجد بالسواحل؛ وتزعم العرب أن الجن
تهرب منها إذا حاضت، ويقال: إنها تحيض كالمرأة، وتأكل اللحم وغيره، وتجترّ وتبعر، وفي
باطن أشداقها شعر، وكذلك تحت رجليها، وليس شيء قصير اليدين أسرع منها حُضراً،
ولقصرهما يخفّ عليهما الصعود؛ وهي تطأ الأرض على مؤخَّر قوائمها تعميةً لأثرِها حتى لا
يعرفه الطالب لها، وإذا قربت من المكان الذي تريد أن تجثم فيه وثبت إليه.
وفي الأرنب منافعُ طيّبةٌ ذكرها الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا، قال: إن اِنْفَحة الأرنب
حارّةٌ يابسةٌ ناريةٌ، تحلّل كل جامد من دمٍ ولبنٍ متجبنٍ وخلْطٍ غليظ، وتجمّد كل ذائب، وتمنع
كل سيلانٍ ونزفٍ من النساء؛ قال: ولا شك أنها مع ذلك مجفّفة، وإذا شُربت منعت من

الصَّرْع، وكذلك سائر الأنافح، وهي رديئة للمعدة وإذا حُملت بعد الطُّهر ثلاثة أيام بالخلّ
منعت الحبل ونفت الرطوبة السائلة من الرحم، وتنفع من اختناق الرحم؛ قال: ودم الأرنب
ينفي الكلف؛ ورماد رأسه جيد لداء الثعلب؛ وإذا الأخذ بطن الأرنب كما هو بأحشائه
والإحراِق قلْياً على مِقْلىً كان دواءً منبِتاً للشعر إذا سُحق واستعمل بدهن الورد؛ ودماغه
مشوياً ينفع من الرعشة الحادثة عقيب المرض؛ وإذا حُلّ دماغ الأرنب بسمن أو زبدٍ أو
عسلٍ أسرع إنبات الأسنان، وسهل بغير وجع؛ ودم الأرنب مقلوّاً ينفع من السَّحْج وورم
الأمعاء والإسهال المزمن، وينفع من السهام الأرمنية؛ هذا ما قاله الشيخ الرئيس في الأرنب.
وقد وصف بعض كتّاب الأندلس عدّة من الأرانب، فقال: أفرادٌ إخوان كأنهن أولاد غزلان؛
بين روّاغٍ ينعطف انعطاف البُرَه، ووثّابٍ يجتمع اجتماع الكُره؛ حاك القَصَب إزاره، وصاغ
التبر طوقه وسواره؛ قد غُلّل بالعنبر بطنه، وجلّل بالكافور متنه؛ كأنما تضمّخ بعبير، وتلفّع في
حريرٍ؛ ينام بعيني ساهر، ويَفوت بجناحَيْ طائر؛ قصير اليدين، طويل الساقين؛ هاتانِ في
الصعود تنجدانه، وتانِكَ عند الوثوب تؤيدانه؛ والله أعلم.

القرد

القرد عند المتكلمين في الطبائع مركّبٌ من إنسانٍ وبهيمةٍ؛ وهو إذا سقط في الماء غرِقَ مثل
الإنسان الذي لا يحسن السباحة؛ وهو يأخذ نفسه بالزواج والغَيرة على الأنثى؛ وهو يقمَل،
وإذا قمِل تقلّى، ويأكل ما ينتزعه من بدنه من القمل؛ وهو كثير الشبق، وإذا اشتد به الشبق
استمنى بفيه؛ والأنثى تلد عدة نحو العشرة وأكثر، كما تلد الخنزيرة؛ وهي تحمل بعض
أولادها كما تحمل المرأة؛ ويقال: إن الطائفة من القرود إذا أرادت النوم ينام الواحد في جنب
الآخر حتى يكونوا سطراً واحداً، فإذا تمكن النوم منها نهض أوّلها من الطَّرَف الأيمن،
فيمشي وراء ظهورها حتى يقعد من وراء الأقصى من الطرف الأيسر، فإذا قعد صاح؛
فينهض الذي يليه، ويفعل مثل فعله، فهذا دأبُهم طول الليل؛ فهم يبيتون في أرض ويصبحون
في أخرى؛ وفي القرد من قبول التأديب والتعليم ما لا خفاء به عن أحد حتى إنه دُرّب قرد

ليزيد بن معاوية على ركوب الحمير والمسابقة عليها؛ وحكى المسعودي في كتابه المترجم
بمروج الذهب: أن القرود في أماكن كثيرة من المعمور، منها وادي نخلة بين الجَنَد وبلاد
زَبيد، وهو بين جبلين، وفي كل جبلٍ منهما طائفة من القرود يسوقها هزر، وهو القرد العظيم
المقدّم فيها؛ قال: ولها مجالس يجتمع فيها خلقٌ كثير منها؛ فيُسمع لها حديث والإناث بمعزلٍ
عن الذكور، والرئيس متميز على المرؤوس؛ وباليمن قرود كثيرة في نواحٍ متعددة؛ منها في
ذَمار من بلادٍ صنعاء في براريَّ وجبالٍ كأنها السحب؛ وتكون القرود أيضاً بأرض النوبة
وأعلى بلاد الحبشة، وهذا الصنف من القرود حسن الصورة، خفيف الروح، مدوّر الوجه،
مستطيل الذنب، سريع الفهم، ويسمونه النسناس؛ ومنها أيضاً بخُلجان الرانج في بحر الصين
وبلاد المهراج وفي ناحية الشمال نحو أرض الصقالبة ضرب من القرود منتصب القامات
مستدير الوجوه، والأغلب عليهم صور الناس وأشكالهم، ولهم شعور، وربما صيد منها
القرد في النادر بالحيلة، فيكون في نهاية الفهم والدراية، إلا أنه لا لسان له يعبر به عما في
نفسه، لكنه يفهم كل ما يخاطب به بالإشارة؛ ومن النواحي التي بها القرود جبل موسى،
وهو الجبل المطلّ على مدينة سبتة من بلاد المغرب، والقرود التي فيها قباحُ الصور جداً،
وعظام الجثث، تشبه وجوهها وجوه الكلاب، لها خُرطوم، وليس لها أذناب، وأخلاقها
صعبة لا يكاد ينطبع فيها تعليم إلا بعد جهد؛ وحكى لي بعض المغاربة أنهم إذا أرادوا
صيد هذه القرود يتحيلون عليها بأن يصنعوا لها زرابين بقدر أرجلها، ويلطّخوا نعالها
بالصابون، ويأتوا إلى مكان هذه القرود فيقعدوا حيث تراهم، ويلبسوا زرابيبهم ويمشوا
بها، ويتركوا تلك الزرابين الصغار، فتأتي القرود وتلبس الزرابين، فتخرج عليها الرجال،
فتعدو القرود بتلك الزرابين، فلا تثبت أرجلها على الأرض وتزلَق، فتدركها الرجال
ويأخذوها. ولم أقف على شعرٍ يتعلق بوصف القرد فأثبته؛ والله أعلم.

النعام

والنعامة تسمى بالفارسية: أُشْتُرْمُرْغ، ومعنى أُشْتُر: جمل، ومُرغ: طائر، فكأنهم قالوا: جملٌ
طائر؛ ومن أعاجيبها أنها تضع بيضها عند الحِضان، وتعطى كل بيضة منها تصيبها من
الحَضْن، لأن بدناه لا يشمل جميع ما تحضنه، فإنها تحضن أربعين بيضة أو ثلاثين، وتخرُج
لطلب الطعم، فتمر بطريقها ببيض نعامةٍ أخرى فتحضنه وتنسى بيضها؛ قال ابن هرمة:

وإني وتركي ندى الأكرمين وقَدْحي بكفّي زَنداً شَحاحا
كتاركة بيضها بالعراء ومليسةٍ بيض أخرى جَناحا

ويقال: إنها تقسم بيضها أثلاثاً، منه ما تحضنه، ومنه ما تجعل صفارة غذاء، ومنه ما
نفتحه وتتركه في الهواء حتى يَعْفَن، وتتولّد من عُفونته دوابّ، فتُغذى بها فراخَها إذا
خرجت؛ وكل ذي رجلين إذا انكسرت إحداهما استعان في نهوضه وحركته بالثانية إلا
النعامة، فإنها تبقى في مكانها جاثمةً حتى تهلِك جوعاً؛ قال الشاعر:

إذا انكسرت رجل النعامة لم تجد على أختها نهضاً ولا باستها حَبْوا

والعرب تزعم أن الظليم أصلم، وأنه عوّض عن السمع بالشم، فهو يعرف بأنفه ما لا يحتاج
معه إلى سمع، والعرب تقول في أمثالها: "أحمق من نعامة"، قالوا: لأنها إذا أدركها القانص
أدخلت رأسها في كثيب رمل وتقدّر في نفسها أنها قد استخفت منه؛ والنعام قوي الصبر
على العطش، شديد العدْو، وأشد ما يكون عدْوه إذا استقبل الريح، وهو في عدْوه يضع
عنقه على ظهره، ثم يخترق الريح؛ والنعامة تبتلع العظم والحجر والحديد فيصير في جوفها
كالماء، وتبتلع الجمر؛ وهو يصاد بالنار كسائر الوحش، فإنه إذا رأى النار دهش ووقف
فيتمكّن منه الصائد.

ما وصفت به النعامة

وقد وصفها إبراهيم بن خفاجة الأندلسي فقال:

ولرب طيّارٍ خفيفٍ قد جرى فشلا بجارٍ خلفه طيّار
من كل فاجرة الخُطا مختالةٍ مشي القَناة تجُرّ فضل إزار
مخضوبة المنقار تحسب أنها كَرَعت على ظمأٍ بكأس عُقار
لا تستقر بها الأداحي خشيةً من ليلِ ويلٍ أو نهار بَوار

وقال الحِماني:

قد ألبس الليل حتى يتثنى خَلَقاً وأركب الهول بالغرّ الغَرانيقِ

وأنتحي لنعام الدَّو مُلهِبةً كأنها بعض أحجار المجانيق
تسدي الرياح بها ثوباً وتلحمه كما تلبّس من نسج الخدارِيق
كأنما ريشها والريح تَقرفه أسمال راهبة شيبت بتشقيق
كأنها حين مدت رؤوسها فَرَقاً سود الرجل تعادى بالمزاريق
كأن أعناقها وهْناً إذا خفقت بها البلاقع أدقال الزواريق
فما استلذ بلحظ العين ناظرها حتى تغصّص أعلاهن بالريق

القسم الثالث من الفن الثالث وفيه ثلاثة أبواب
الدواب والأنعام
الباب الأول من هذا القسم
في الخيل
وابتداء خلقها، وأول من ذللها وركبها، وما ورد في فضلها وبركتها من الآثار الصحيحة،
والأحاديث النبوية الثابتة الصريحة، وما ورد في فضل الإنفاق عليها، وما جاء في التماس
نسلها، والنهي عن خصائها والرخصة فيه؛ وما قيل في أكل لحومها من الكراهة، وما ورد
من النهي عن عَسْب الفرس وبيع ماء الفحل، وما نُدِب إليه من إكرام الخيل ومنع إذالتها،
والأمر بارتباطها، وما يُستحبّ من ألوانها وشياتها وذكورها وإناثها، وما ورد في شؤم
الرفس، وما يذم من عصمه ورجله، وما جاء في سباق الخيل، وما يحلّ منه وما يحرم،
وكيفية التضمير عند السباق، وأسماء السوابق في الحلبة، وما يُقسم لصاحب الفرس من
سهام الغنيمة، والفرق في ذلك بين العِراب والهُجُن والبراذين، والعفو عن سقوط الزكاة في
الخيل، وما وصفت العرب به الخيل من ترتيبها في السن، وتسمية أعضائها وأبعاضها
وألوانها وشياتها، والمحمود من صفاتها ومحاسنها، وعدّ عيوبها التي تكون في خَلقتها
وجريها، والعيوب التي تطرأ عليها وتحُدث فيها، وذكر خيل رسول الله صلى الله عليه
وسلم وعدّتها وأسمائها، وكرام الخيل المشهورة عند العرب، وما وُصفت به الخيل في أشعار
الشعراء ورسائل الفضلاء التي تتضمن مدح جيّدها وذم رديئها، وغير ذلك على ما نوضحه
- إن شاء الله تعالى - ونبيّنه، ونأتي به على الترتيب والتحقيق، فنقول وبالله التوفيق،
وإليه المآب.

ابتداء خلق الخيل
وأول من ذللها وركبها

قال أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي في تفسيره:
أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن عقيل الأنصاري، وأبو عبد الله محمد بن
عبد الله الحافظ، قالا: أخبرنا أبو منصور محمد بن القاسم العتكي، قال: حدّثنا محمد بن
الأشرس، قال: حدثنا أبو جعفر المديني، قال: حدثنا القاسم بن الحسن بن زيد، عن أبيه،
عن الحسين بن علي رضي الله عنهما، عن أبيه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم: "لما أراد الله أن يخلق الخيل قال للريح الجنوب: إني خالق منك خلقاً فأجعله عزاً
لأوليائي، ومذلّة على أعدائي، وجمالاً لأهل طاعتي؛ فقالت الريح: اخلق، فقبض منها قبضة
فخلق فرساً، فقال له: خلقتُك عربياً وجعلت الخير معقوداً بناصيتك، والغنائم مجموعةً
على ظهرك، وعطفتُ عليك صاحبك، وجعلتك تطير بلا جناح، فأنت للطلب، وأنت
للهرب، وسأجعل على ظهرك رجالاً يسبحوني ويحمدوني ويهللوني، تسبّحن إذا سبحوا،
وتهلّلان إذا هلّلوا، وتكبرن إذا كبروا؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من
تسبيحة وتحميدة وتكبيرة يكبّرها صاحبها فتسمعه إلا فتجيبه بمثلها، ثم قال: لما سمعت
الملائكة صفة الفرس وعاينت خلقها، قالت: رب، نحن ملائكتك نسبحك ونحمدك، فماذا
لنا؟ فخلق الله لها خيلاً بُلْقاً، أعناقها كأعناق اليُخت، فلما أرسل الله الفرس إلى الأرض،
واستوت قدماه على الأرض صَهَلَ، فقيل: بوركت من دابة، أذِلّ بصهيلك المشركين، أذِلّ به
أعناقهم، وأملأ به آذانهم، وأرعب به قلوبهم؛ فلما عرض الله على آدم من كل شيء قال
هل: اختر من خلقي ما شئت، فاختار الفرس، فقال له: اخترت عزّك وعز ولدك خالداً ما
خلدوا، وباقياً ما بقوا، بركتي عليك وعليهم، ما خلقت خلقاً أحب إليّ منك ومنهم".
وروى المسعودي في كتابه المترجم بمروج الذهب بسنده إلى ابن عباس - رضي الله
عنهما -، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لما أراد أن يخلق الخيل
أوحى إلى الريح الجنوب أني خالق منك خلقاً فاجتمعي، فاجتمعت، فأمر جبريل عليه

السلام فأخذ منها قبضة، قال: ثم خلق الله تعالى منها فرساً كميتاً، ثم قال الله تعالى:
خلقتك فرساً، وجعلتك عربياً، وفضّلتك على سائر ما خلقت من البهائم بسعة الرزق،
والغنائم تقاد على ظهرك، والخير معقود بناصيتك؛ ثم أرسله فصهل، فقال له: باركت فيك،
فصهيلك أرعب به المشركين وأملأ مسامعهم، وأزلزل أقدامهم؛ ثم وسمه بغُرّة وتحجيل، فلما
خلق الله تعالى آدم، قال: يا آدم، أخبرني أي الدابتين أحببت؟ - يعني الفرس والبُراق، قال:
وصورة البُراق على صورة البغل لا ذكر ولا أنثى - فقال آدم: يا رب اخترت أحسنها
وجهاً، فاختار الفرس، فقال له الله: يا آدم، اخترت أحسنهما، اخترت عزك وعز ولدك
باقياً ما بقوا، وخالداً ما خلدوا". هذا ما ورد في ابتداء خلق الفرس؛ والله أعلم
بالصواب؛ وإليه المرجع والمآب.
وأما أول من ذلل الخيل وركبها - فإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ودليل ذلك ما رواه
الزبير بن بكّار في أول كتابه في أناب قريشٍ من حديث داود بن الحُصين، عن عكرمة، عن
ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كانت الخيل وحوشاً لا تُركب فأول من ركبها
إسماعيل، فلذلك سُميت العِراب. وما رواه أحمد بن سليمان النجّاد في بعض فوائده من
حديث ابن جريج، عن ابن عكرمة أبي مليكة، عن ابن عباس رضي الله عنهما - قال:
كانت الخيل وحشاً كسائر الوحوش، فلما أذن الله عز وجل لإبراهيم وإسماعيل عليهما
السلام برفع القواعد من البيت، قال الله عز وجل: إني معطيكما كنزاً ذخرته لكما؛ ثم
أوحى الله تعالى إلى إسماعيل أن اخرج فادع بذلك الكنز، فخرج إسماعيل إلى أجياد -
وكان موطناً له - وما يدري ما الدعاء ولا الكنز، فألهمه الله عز وجل الدعاء، فلم تبق
على وجه الأرض فرس بأرض العرب إلا أجابته، فأمكنته نواصيها، وذلّلها له؛ فاركبوها
واعتقدوها، فإنها ميامين، وإنها ميراث عن أبيكم إسماعيل عليه السلام والله أعلم.
فضل الخيل وبركتها
وفضل الإنفاق عليها قال الله عز جل: "الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانيةً

فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون" قال ابن عباس - رضي الله
عنهما -: "نزلت في علَفِ الدوابّ". ورُوي عن أبي أمامة الباهلي أنه قال: "هي النفقة
على الخيل في سبيل الله"، قال الواحدي: "هذا قول أبي الدرداء ومكحول والأوزاعي"؛
ومن فضل الخيل وشرفها أن الله أقسم بها في كتابه العزيز، فقال: "والعاديات ضبحاً
والموريات قدْحاً فالمغيرات صبحاً فأثرن به نقعاً فوسطن به جمعاً إن الإنسان لربه لكَنودٌ"؛
وسماها الله تعالى الخير في قوله عز وجل إخباراً عن سليمان عليه السلام: "إذا عُرض
عليه بالعشيّ الصافنات الجياد فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت
بالحجاب"؛ وفي الحديث الصحيح عن مالك بن أنس، عن نافع، عن عبد الله بن عمر -
رضي الله عنهم - عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الخيل في نواصيها الخير إلى يوم
القيامة" رواه البخاري؛ وفي لفظٍ آخر: "معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة"؛ ومن طريقٍ
آخر عن الشعْبي، عن عُروة - هو ابنُ أبي الجعد الأردي البارقي - قيل يا رسول الله: وما
ذلك الخير؟ قال: "الأجر والغنيمة" رواه مسلم.
وعن عروة رضي الله عنه، قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى فرساً أشقر
في سوق المدينة مع أعرابي، فلوى ناصيتها بإصبعه وقال: "الخيل معقود في نواصيها الخير
إلى يوم القيامة".
وعن جرير بن عبد الله - رضي الله عنه، - قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يلوي
ناصية فرسه بإصبعه ويقول: "الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة"؛ رواه مسلم
والنسائي؛ وفي لفظ النسائي: "يفتل ناصية فرسٍ بين إصبعيه"؛ وفي حديث آخر موضع
"معقود": "معقوص"، وهو بمعناه، أي ملوي بها ومضفور فيها، والعِقصة: الضفيرة.
وفي حديث أخر عن نعيم بن زياد، عن أبي كبشة - رضي الله عنه - قال: قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم: "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون
عليها، والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة"؛ وفي لفظٍ آخر: "فامسحوا نواصيها، وادعوا

لها بالبركة".
وعن أسماء بنت يزيد - رضي الله عنها - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
"الخيل في نواصيها الخير معقود أبداً إلى يوم القيامة، فمن ربطها عدة في سبيل الله فإن
شبعها وجوعها وريها وظمأها وأرواثها وأبوالها فلاح في موازينه يوم القيامة" رواه الإمام
أحمد في مسنده.
وعن جابر - رضي الله عنه - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الخيل معقود في
نواصيها الخير إلى يوم القيامة وأهلها معانون عليها، فخذوا بنواصيها، وادعوا بالبركة،
وقلدوها ولا تقلدوها الأوتار"، وفي لفظ: "وفي نواصيها الخير والنيل"، وكانوا يقلدون الخيل
أوتار القسي لئلا تصيبها العين، فنهاهم صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وأعلمهم أن الأوتار
لا ترد قضاء الله تعالى شيئاً، وقيل: نهاهم عن ذلك خوفاً على الخيل من الاختناق بها،
وقيل: المراد بالأوتار الذحول التي وترتم بها في الجاهلية، وقد اختلف الناس في تقليد
الدواب والإنسان أيضاً ما ليس بتعاويذ قرآينة مخافة العين، فمنهم من نهى عنه ومنعه قبل
الحاجة إليه، وأجازه بعد الحاجة إليه، لدفع ما أصابه من ضرر العين وشبهه، ومنهم من
أجازه قبل الحاجة وبعدها، كما يجوز الاستظهار بالتداوي قبل حلول المرض، وقصر بعضهم
النهي على الوتر خاصة، وأجازه بغير الوتر، وقال بعضهم فمن قلد فرسه شيئاً ملوناً فيه
خرز: إن كان للجمال فلا بأس به.
وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الخيل
لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي هي له أجر فرجل ربطها في
سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة
كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها
حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له، فهي
لذلك أجر، ورجل ربطها تغنياً وتعففا، ثم لم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي

لذلك ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواءً لأهل الإسلام، فهي على ذلك وزر".
وفي حديث آخر: "الخيل لثلاثة، هي لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي
هن له أجر فالذي يتخذها في سبيل الله ويعدها له، فال تغيب شيئاً في بطونها إلى كتب له
به أجر، ولو رعاها في مرج فما أكلت شيئاً إلا كتب له به أجر، ولو سقاها من نهر كان له
بكل قطرة تغيبها في بطونها - حتى ذكر الأجر في أبوالها وأرواثها - ولو استنت شرفاً أو
شرفين كتب له بكل خطوة تخطوها أجر، وأما الذي هي له ستر فالذي يتخذها تعففاً
وتكرماً وتجملاً، ولم ينس حق ظهورها وبطونها في عسرها ويسرها، وأما الذي هي عليه
وزر يتخذها أشرا وبطراً وبذخا ورثاء الناس، فذلك الذي هي عليه وزر".
شرح غريب هذين الحديثين
الطول والطيل بالواو والياء: الحبلى، وكذلك الطويلة. وقوله: استنت، أي عدت لمرحها
ونشاطها ولا راكب عليها. والشرف: ما يعلو من الأرض، وقيل: الطلق، فكأنه صلى الله
عليه وسلم يقول: جرت طلقاً أو طلقين، بمعنى شوط أو شوطني. والأشر والبطر: شدة
المرح. والبذخ بفتح الذال وبالخاء المعجمتين: الكبر. ونواء لأهل الإسلام معاداة لهم، من
ناوأه نواء ومناوأة، وأصله من ناء إليك ونؤت إليه، أي نهضت.
وعن زياد بن مسلم الغفاري - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
كان يقول: "الخيل ثلاثة، فمن ارتبطها في سبيل الله وجهاد عدوه كان شبعها وجوعها وريها
وعطشها وجريها وعرقها وأرواثها وأبوالها أجر في ميزانه يوم القيامة، ومن ارتبطها للجمال
فليس له إلا ذاك، ومن ارتبطها فخرا ورياء كان مثل ما قص في الأول وزراً في ميزانه يوم
القيامة".
وعن حباب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الخيل ثلاثة:
فرس للرحمن، وفرس للإنسان،وفرس للشيطان، فأما فرس الرحمن فما أعد في سبيل الله،
وقوتل عليه أعداء الله، وأما فرس الإنسان فما استبطن وتجمل عليه، وأما فرس الشيطان
فما قومر عليه، رواه الأجري في النصيحة.

والقمار في السباق: أن يكون الرهان بني فرسين لا محلل معهما. والاستبطان: طلب ما
البطن والنتاج.
وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنهما - عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال:
"الخيل ثلاثة، ففرس للرحمن، وفرس للإنسان، وفرس للشيطان، فأما فرس الرحمن فالذي
يرتبط في سبيل الله، فعلفه وروثه وبوله - وذكر ما شاء الله -، وأما فرس الشيطان فالذي
يقامر ويراهن عليه، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي ستر من
فقر" رواه الإمام أحمد في مسنده.
وروي ابن أبي شيبة في مسنده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الخيل ثلاثة: فرس
يرتبطه الرجل في سبيل الله، فثمنه أجر، وركوبه أجر، ورعايته أجر، وعلفه أجر، وفرس
يغالق عليه الرجل ويراهن عليه، فثمنه وزر، وعلفه وركوبه وزر، وفرس للبطنة فعسى أن
يكون سداداً من فقرٍ إن شاء الله.
وعن أنس بن مالك - رضي الله عه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "البركة
في نواصي الخيل" رواه البخاري ومسلم والنسائي. والناصية: الشعر المسترسل على
الجبهة، وقد يكنى بها عن النفس، نحو قولهم: "فلان مبارك الناصية" أي النفس، قال
شيخنا الشيخ الإمام المحدث النسابة القدوة شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف
الدمياطي في كتاب الخيل، قال أبو الفضل: وإذا كان الخير والبركة في نواصيها فبعيد أن
يكون فيها شؤم على ما جاء في الحديث، وقد تأول العلماء ذلك أن معناه على اعتقاد
الناس في ذلك، لا أنه خبر من النبي صلى الله عليه وسلم عن إثبات الشؤم.
وعن مكحول، قال: قيل لعائشة - رضي الله عنها -: إن أبا هريرة يقول: قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم: "الشؤم في ثلاثة: في الدار والمرأة والفرس" فقالت: لم يحفظ أبو هريرة،
لأنه دخل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قاتل الله اليهود، يقولون: الشؤم في ثلاثة:
في الدار والمرأة والفرس"، فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله. وسنذكر الحديث والكلام
عليه - إن شاء الله تعالى - في موضعه.

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: لم يكن شيء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم بعد النساء من الخيل.
وعن معقل بن يسار - رضي الله عنه - قال: ما كان شيء أحب إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم من الخيل، ثم قال: اللهم غفراً إلا النساء.
وعن زيد بن ثابت - رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:
"من حبس فرساً في سبيل الله كان ستره من النار".
وعن محمد بن عقبة، عن أبيه، عن جده، قال: أتينا تميماً الداري وهو يعالج عليق فرسه
بيده، فقلنا له: يا أبا رقية، أما لك من يكفيك؟ قال: بلى، ولكنني سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول: "من ارتبط فرساً في سبيل الله فعالج عليقه بيده كان له بكل حبة
حسنة.
وروى أن روح بن زنباع الجذامي زار تميماً الداري فوجده ينقى لفرسه شعيرا، ثم يلعفه
عليه وحوله أهله، فقال له روح: أما كان لك من هؤلاء من يكفيك؟ قال تميم: بلى، ولكنني
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من امرئ مسلم ينقى لفرسه شعيراً ثم
يعلفه عليه إلا كتب الله له بكل حبة حسنة رواه الإمام أحمد في مسنده.
وروى أن معاوية بن أبي سفيان قال لأبن الحنظلية: حدثنا حديثا سمعته من رسول الله
صلى الله عليه وسلم، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من ارتبط
فرساً في سبيل الله كانت النفقة عليه كالماد يده بصدقة لا يقطعها، وفي حديث آخر عنه: لا
يقبضها.
فضل الطرق
روي عن أبي عامر الهوزني، عن أبي كبشة الأنماري، أنه أتى رجلاً فقال: أطرقني من
فرسك، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من أطرق مسلماً فرساً
فأعقب له الفرس كتب الله له أجر سبعين فرساً يحمل عليها في سبيل الله، وإن لم يعقب كان
له كأجر فرس حمل عليه في سبيل الله عز وجل رواه الطبراني في المعجم الكبير.
وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: ما تعاطى الناس بينهم شيئاً قط أفضل من

الطرق، ويطرق الرجل فحله فيجرى له أجرة ويطرق كبشه فيجرى له أجره. والله الموفق
للصواب، وإليه المراجع المآب، حسبنا الله وكفى.
دعاء الفرس لصاحبه
حكي الأبيوردي في رسالته، قال: حكى عبد الرحمن بن زياد أنه لما نزل المسلمون مصر
كانت لهم مراغة للخيل، فمر حديج بن صومي بأبي ذر - رضي الله عنه - وهو يمرغ
فرسه الأجدل، فقال: ما هذا الفرس يا أبا ذر؟ قال: هذا فرس لي، لا أراه إلى مستجاباً،
قال: وهل تدعو الخيل فتجاب؟ قال: نعم، ما من ليلة لا والفرس يدعو فيها ربه يقول: اللهم
إنك سخرتني لأبن آدم، وجعلت رزقي بيده، فاجعلي أحب إليه من أهله وماله، اللهم أرزقه
مني، وأرزقني على يده. وروي أن هذا الخبر عن معاوية بن حديج، عن أبي ذر، وكلاهما
روى عن عبد الله بن عمر، ومعاوية هذا يعد من الصحابة الذين سكنوا مصر، وفي حديثه
عن أبي ذر "أحب إليه من أهله وولده" الحديث، وزاد فيه: فمنها المستجاب، ومنها غير
المستجاب، ولا أرى فرسي هذا إلا مستجاباً. ورواه النسائي في كتاب الخيل من سننه،
ولفظه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من فرس عربي إلى يؤذن له عند كل سحر
- وفي رواية: عند كل فجر - بدعوتين: الله خولتني من خولتني من بين آدم، وجعلتني له،
فاجعلني أحب أهله وماله، أو من أحب أهله وماله إليه، والله أعلم.
الشيطان والفرس
ذكر ما ورد من أن الشيطان لا يخبل من في داره فرس عتيق، ولا يدخل داراً فيها
فرس عتيق
عن عبد الله بن عريب المليكي، عن أبيه - رضي الله عنهما - أن النبي صلى الله عليه
وسلم قال: لن يخبل الشيطان أحداً في داره فرس عتيق. وفي لفظ آخر: الجن لا تخبل
أحداً في بيته عتيق من الخيل. ورواه ابن قانع أيضاً في معجمه من حديث عريب المليكي،
عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: "وآخرين من دونهم لا تعلمونهم" قال: الجن،
ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الشيطان لا يخبل أحداً في دارٍ فيها فرس

عتيق" وقيل: المراد أن الشيطان لا يدخل داراً فيها فرس عتيق.
وروي أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إني أرجم بالليل،
فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ارتبط فرساً عتيقاً" قال: فلم يرجم بعد ذلك، ورواه
محمد بن يعقوب الخيلي في كتاب الفروسية وعلاجات الدواب.
ذكر ما جاء في التماس نسل الخيل والنهي عن خصائها والرخصة فيه والنهي عن هلبها وجز أعرافها ونواصيها
روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: أصاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم فرساً من جدس، حي باليمن، فأعطاه رجلاً من الأنصار، وقال: إذا
نزلت فانزل قريباً مني فإني أتسار إلى صهيله ففقده ليلة، فسأل عنه، فقال يا رسول الله: إنا
خصيناه، فقال: مثلت به يقو لها ثلاثاً، الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة،
أعرافها أدفاؤها، وأذنابها مذابها، التمسوا نسلها، وباهوا بصهيلها المشركين.
وعن مكحولٍ - رضي الله عنه - قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جز
أذناب الخيل وأعرافها ونواصيها، وقال: "أما أذنابها فمذابها، وأما أعرافها فأدفاؤها، وأما
نواصيها ففيها الخير".
وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "لا
تهلبوا أذناب الخيل، ولا تجزوا أعرافها ونواصيها، فإن البركة في نواصيها ودفاؤها في
أعرافها، وأذنابها مذابها".
وعن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - قالت: نهى رسول الله صلى الله عيه وسلم
عن خصاء الخيل. عن عبد الله بن عمر -، قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن خصاء الخيل والإبل والغنم، قال ابن عمر - رضي الله عنهما -: "فيها نشأة الخلق،
ولا تصلح الإناث إلا بالذكور".
وروي عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهم - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال: "لا خصاء في الإسلام ولا بنيان كنيسة".
وكتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -

ينهي عن حذف أذناب الخيل وأعرافها وخصائها. ومن العلماء من رأى الخصاء، وذكر أن
عروة بن الزبير خصى بغلاً له، وأن عمر بن عبد العزيز خصى بغلاً له في زمن خلافته، وان
الحسن سئل عن الخصاء فقال: لا بأس به، وان ابن سيرين قال: لا بأس بخصاء الخيل، لو
تركت الفحول لأكل بعضها بعضاً، وأن عطاء قال: "ما خيف عضاضه وسوء خلقه فلا
بأس". قال البيهقي: ومتابعة قول ابن عمر وابن عباس - رضي الله عنهم - مع ما فيه من
السنة المروية أولى. ويحتمل جواز ذلك إذا اتصل به غرض صحيح.

أكل لحوم الخيل

ما قيل من الإباحة والكراهة

قد أباح أكلها جماعة، منهم شريح والحسن وعطاء وسعيد بن جبير وحماد بن أبي
سليمان والثوري وأبو يوسف ومحمد بن الحسن وابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق
وأبو ثور في جماعة من السلف، ودليلهم على ذلك ما اتفق عليه البخاري ومسلم من
حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق وجابر بن عبد الله - رضي الله عنهم -، فأما
حديث أسماء فقالت: نحرنا فرساً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكلناه.
وأما حديث جابر - رضي الله عنه - فقال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسمل يوم
خيبر من لحوم الحمر، ورخص - و أذن - في لحوم الخيل.
وذهب مالك وأبو حنيفة والأوزاعي إلى أنها مكروهة، إلى أن كراهيتها عند مالك
كراهية تنزيه، لا تحريم في إحدى الروايتين عنه، ودليلهم ما رواه أبو داود والنسائي وابن
ماجة من حديث بقية بن الوليد الحمصي، عن ثور بن يزيد، عن صالح بن يحيى بن المقدام
بن معد يكرب، عن أبيه، عن جده، عن خالد بن الوليد - رضي الله عنه - أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير. وما تضمنته الآية من
قوله تعالى: "والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينةً". قال صاحب الهداية الحنفي: خرجت
- أي الآية مخرج الامتنان، والأكل من أعلى منافعها، والحكيم لا يترك الامتنان بأعلى لنعم

ويمتن بأدناها، ولأنها آلة إرهاب العدو، فيكره أكله احتراماً له، ولهذا يضرب له بسهم في
الغنيمة، ولا، في إباحته تقليل آلة الجهاد، وحديثُ جابرٍ معاوض بحديث خالد ابن الوليد،
والترجيح المحرم، ثم قيل: الكراهية عنده كراهية تحريم، وقيل: كراهية تنزيه، والأول أصح،
وأما لنبه - فقد قيل: لا باس به، إذ ليس في شربه تقليل آلة الجهاد، انتهى كلام صاحب
الهداية.
وقد عورض في أدلته بأقوال، أما الآية، فقد قيل: الغالب في الانتفاع بهذه الدواب ما أشار
الله تعالى إليه فيها الركوب والزينة، فأما أكلها فنادر، فخرجت الآية مخرج الغالب، وقالوا: ألا
ترى أن الأنعام لما كانت متقاربة الحال عند العرب في الانتفاع بها أكلاً وتجملاً وركوباً
وتحميلاً، من الله عليهم بتفصيل أحوالها المألوفة والمعتادة عندهم المعروفة في الآية قبلها،
فقال تعالى: "والأنعام خلقها لكم فيها دفئ ومنافع ومنها تأكلون ولكن فيها جمال حين
تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد. لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم
لرؤف رحيم" وقوله تعالى: "أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون
وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون"، وأما
حديث خالد فإنه وإن كان أحوط من حديث جابر وأسماه فإن حديث جابر وأسماء
أسند وأصح، وحديث خالدٍ لا يعرف إلا من رواية بقية ابن الوليد الحمصي، وفيه مقال،
حتى إن بعضهم قال: إن أحاديث بقية غير نفيه، فكن منها على تقيه، وصالح بن يحيى بن
المقدام بن معد يكرب الكندي الحمصي، قال البخاري: فيه نظر، وقال موسى بن هارون:
لا يعرف صالح ولا أبوه إلى بجده، وقال أبو داود في سننه: وحديث خالد هذا منسوخ، قد
أكله جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الاعتراض على الحنقية
أو رده شيخنا الشيخ شرف الدين الدمياطي عليهم في كتاب الخيل له، هذا ما قيل في أكل
لحومها.
عسب الفحل وبيع مائه

روي عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: "نهى رسول الله صلى الله عليه
وسلم عن عسب الفحل". وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رجلا من كلابٍ
سأل النبي صلىً الله لعيه وسلم عن عسب الفحل، فنهاه، فقال يا رسول الله، إنا نطرق
الفحل فنكرم، فرخص له في الكرامة، رواه الترمذي، وقال: حسن غريب. والعسب:
الضراب، والنهي عنه، أي عن كرائه، وقيل: العسب، ماء الفحل.
إكرام الخيل
ومنع إذالتها
روى أبو داود في المراسيل، عن نعيم بن أبي هند - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله
عليه وسلم أتى بفرس، فقال إليه يمسح وجهه وعينيه ومنخريه بكم قميصه، فقيل: يا
رسول الله، تمسح بكم قميصك؟ فقال: "إن جبريل عاتبني في الخيل"، وفي حديث آخر: أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح بطرف ردائه وجه فرسه، وقال: "إني عوتبت الليلة
في إذالة الخيل". وعن الوضين بن عطاء - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم: "لا تقودوا الخيل بنواصيها فتذلوها.وعن مكحول - رضي الله عنه - قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أكرموا الخيل وجللوها. وعن مجاهد - رضي الله
عنه - قال: أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إنساناً ضرب وجه فرسه ولعنه، فقال:
"هذه مع تلك" لتمسنك النار إلى أن تقاتل عليه في سبيل الله، فجعل الرجل يقاتل عليه إلى
أن كبر وضعف، وجعل يقول: اشهدوا اشهدوا. وعن زيد بن ثابت - رضي الله عنه -
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في عين الفرس ربع ثمنه.وعن رعوة البارقي قال:
كانت لي أفراس فيها فحل شراؤه عشرون ألف درهم، ففقأ عينه دهقان، فأتيت عمر –
رضي الله عنه - فكتب إلى سعد بن أبي وقاص أن خير الدهقان بني أن يعطيه عشرين
ألفاً ويأخذ الفرس، وبين أن يغرم ربع الثمن، فقال الدهقان: مال أصنع بالفرس؟ فغرم ربع
الثمن. وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: ما من ليلة إلا ينزل ملك من السماء
يحس عن دواب العزاة الكلال إلا دابة في عنقها جرس.

ما يستحب في الخيل
ذكر ما ورد من الأمر بارتباط الخيل وما يستحب
من ألوانها وشياتها وذكورها وإناثها
قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا"،
قال الزمخشري في تفسيره:
اصبروا على الدين وتكاليفه، وصابروا أعداء الله في الجهاد، أي غالبوهم في الصبر على
شدائد الحب ولا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً، ورابطوا: أقيموا في الثغور رابطين خيلكم
مترصدين مستعدين للغزو. وقال تعالى: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل
ترهبون به عدو الله وعدوكم".
وعن قيس بن باباه، قال: سمعت سلمان - رضي الله عنه - يقول: سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من رجل مسلم إلا حق عليه أن يرتبط فرساً إذا أطاق
ذلك".
وعن أبي وهب الجشمي - وكانت له صحبة، رضي الله عنه - قال: قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم: "تسموا بأسماء الأنبياء، وأحب الأسماء إلى الله عزّ وجلّ وجل
عبد الله وعبد الرحمن، وارتبطوا الخيل، وامسحوا نواصيها وأكفالها وقلدوها ولا تقلدوها
الأوتار، وعليكم بكل كميت أغر محجل، أو أشقر أغر محجل، أو أدهم أغر محجل".
هكذا ساقه السنائي في سننه.
وعن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عيه وسلم: "إذا
أردت أن تغزر فاشتر فرساً أدهم محجلاً مطلق اليمنى فإنك تغنم وتسلم رواه الدمياطي
بسنده في كتاب الخيل له.
وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: يمن الخيل في
شقرها. واليمن: البركة. رواه أبو داود الترمذي، ولفظ الترمذي: يمن الخيل في الشقر.
وروى الواقدي، عن سعيد بن خالد، عن داود بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه،
عن جده - رضي الله عنهم - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "خير الخيل
الشقر" وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم: "خير الخيل الشقر وإلا فأدهم أغر محجل ثلاث، ملطق اليمنى".
وذكر سليمان بن بنين النحوي المصري في كتاب آلات الجهاد، وأدوات الصافنات الجياد،
عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق
تبوك، وقد قل الماء، فبعث الخيل في كل وجه يطلبون الماء، فكان أول من طلع بالماء
صاحب فرس أشقر، والثاني صاحب أشقر، وكذلك الثالث، فقال صلى الله عليه وسلم:
"اللهم بارك للشقر".
وعن عمرو بن الحارث الأنصاري، عن أشياخ أهل مصر، قالوا: قال النبي صلى الله عليه
وسلم: "لو أن خيل العرب جمعت في صعيد واحد ما سبقها إلى أشقر". وكان صلى الله
عليه وسلم يحب الشقر.
وعن أبي قتادة الأنصاري - رضي الله عنه - عن البني صلى الله عليه وسلم، قال:
"خير الخيل الأدهم والأقرح الأرثم، ثم الأقرح المحجل طلق اليمين، فإن لم يكن أدهم فكميت
على هذه الشية" هكذا ساقه الترمذي، ورواه أيضاً ابن ماجة، ولفظه: "خير الخيل الأدم
الأقرح الأرثم المحجل طلق اليد اليمنى، فإن لم يكن أدهم فكميت على هذه الشية". وفي
بعض ألفاظه عن يزيد بن أبي حبيب، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الخير في
الأدهم الأقرج الأرثم محجل ثلاث، طلق اليمين ثم أغربهيم - وفي لفظ: الأدهم البهيم، أو
أغر بهيم - ويسلم إن شاء الله، فإن لم يكن أدهم فكميت في هذه الشيه وروى أبو عبيدة
من حديث ابن شبرمه، قال حدثني الشعبي في حديث رفعه، أنه قال: التمسوا الحوائج على
الفرس الكميت الأدهم المحجل الثلاث، المطلق اليد اليمنى.
وعن عقبة بن عامر - رضي
الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أردت أن تغزو فاشتر فرساً
أغر محجلاً مطلق اليمنى، فإنك تسلم وتغنم". وعن موسى بن علي بن رباح عن أبيه -
رضي الله عنهما - قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إني أريد
أن أبتاع فرساً، أو أفند فرساً، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عليك به كميتاً

أو أدهم أقرح أرثم محجل ثلاث، طلق اليمنى.
وعن عطاء - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وإن خير
الخيل الحو". الحو: جمع أحوى، وسيأتي شرح لونه في ذكر الألوان والشيات.
وعن نافع بن جبير، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اليمن في الخيل في كل أحوى
أحم".
الإناث والفحول
ذكر ترجيح إناث الخيل على فحولها وترجيح فحولهاعلى إناثها وما جاء في ذلك
عن يحيى بن كثير - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
"عليكم بإناث الخيل، فإن ظهورها عز، وبطونها كنز". وفي لفظ ظهورها حرز.
وروي أن خالد بن الوليد - رضي الله عنه - كان لا يقاتل إلا على أنثى لأنها تدفع البول
وهي تجري، والفحل يحبس البول في جوفه حتى ينفتق، ولأن الأنثى أقل صهيلاً.
وروى عن عبادة بن نسي، أو ابن محيريز أنهم كانوا يستحبون إناث الخيل في الغارات
والبيات ولما خفي من أمور الحرب، وكان يستحبون فحول الخيل في الصفوف والحصون
والسير والعسكر ولما ظهر من أمور الحرب، وكانوا يستحبون خصيان الخيل في الكمين
والطلائع، لأنها أصبر وأبقى في الجهد.
وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: كان السلف يستحبون الفحولة من الخيل،
ويقولون: هي أجسر وأجرأ. وحكاه البخاري في جامعة عن راشد بن سعد قال: كان
السلف يستحبون الفحول من الخيل، لأنها أجرأ وأجسر.
شؤم الفرس
وما يذم عن عصمها ورجلها
روي عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال: "الشؤم في الدار والمرأة والفرس". وفي لفظ عنه صلى الله عليه وسلم: "الشؤم في
ثلاثة: في الفرس والمرأة والدر". وقد قيل في هذا الحديث: إن المراد بالشؤم: شؤم المرأة إذا
كانت غير ولود، وشؤم الفرس إذا لم يغز عليها وشؤم الدار جار السوء، قال معمر.

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "البركة في ثلاث: في الفرس والمرأة
والدار". وسئل سالم بن عبد الله - وهو راوي هذا الحديث عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم - ما معناه؟ فقال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا كان الفرس ضروباً
فهو مشئوم، وإذا كانت المرأة قد عرفت زوجاً قبل زوجها فحنت إلى الزوج الأول فهي
مشئومة، وإذا كانت الدار بعيدة من المسجد لا يسمع منها الأذان والإقامة فيه مشئومة،
وإذا كن بغير هذا الوصف فهن مباركات".
وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يكره الشكال
من الخيل. والشكال: أن يكون الفرس في رجله اليمنى بياض وفي يده اليسرى، أو في يده
اليمنى وفي رجله اليسرى، قال أبو داود: أي مخالف، رواه مسلم وأبو داود وابن ماجة،
ورواه الترمذي والنسائي، ولفظهما: أنه كان يكره الشكال في الخيل، وزاد النسائي:
والشكال من الخيل: أن تكون ثلاث قوائم محجلة وواحدة مطلقة، أو تكون الثلاث مطلقة
وواحدة محجلة. وقال شيخنا شرف ا لدين الدمياطي - رحمه الله -: وليس يكون
الشكال إلا في الرجل، ولا يكون في اليد. وهذا الذي زاده النسائي هو قول أبي عبيدة.
وقال ابن دريد: الشكال: أن يكون الحجل في يد ورجل من شق واحد، فإن كان مخالفاً قيل:
شكال مخالف. وقال أبو عمر المطرز: وقيل،الشكال: بياض الرجل اليمنى واليد اليمنى،
وقيل: بياض اليد اليسرى والرجل اليسرى، وقيل: بياض الرجلين ويد واحدة. قال الشيخ:
والصحيح من صفة الشكال ما ذكره أبو عبيدة معمر بن المثنى وغيره: أنه البياض الذي
يكون بيد ورجل من خلاف قل أو كثر، وهو الذي ورد في صحيح مسلم وسنن أبي داود،
قال الشيخ: وكرامته تحتمل وجهين: إما تفاؤلاً، لشبهه المشكول المقيد الذي لا نهوض فيه،
وإما لجواز أن يكون هذا النوع قد جرب فلم توجد فيه نجابة، وقيل: إذا كان مع ذلك أغر
زالت الكراهة لزوال شبهه الشكال. والرجل: إذا كان البياض بإحدى رجليه فهو أرجل،

ويكره إلا أن يكون به وضح غيره، وقيل: لا يكره إلا إذا كان البياض في رجله اليسرى
خاصة، وقيل: الأرجل، وهو الذي لا يكون فيه بياض سوى قطعة في رجله غير دائرة
حوالي الإكليل، يقال: رجل الفرس، إذا ابيضت إحدى رجليه، وسيأتي بيان التحجيل
والعصم ويغرهما عند ذكرنا للشيات، والله أعلم.
سباق الخيل
ما يحل منه وما يحرم وكيفية.
التضمير عند السباق، وأسماء السوابق في الحلبة
روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا
سبق إلا في خف أو حافر أو نصل" رواه أبو داود والترمذي والنسائي.
وفي رواية أخرى للنسائي: "لا يحل سبق إلا على خف أو حافر"، وسئل ابن عمر -
رضي الله عنهما- أكنتم تراهنون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: لقد
راهن رسول الله صلى الله عليه وسلم على فرس له.
وعنه - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابق بين الخيل التي قد
ضمرت من الحفياء، وكان أمدها ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى
مسجد بني زريق، وأن ابن عمر كان ممن سابق بها. قال سفيان الثوري: بين الحفياء إلى
ثنية الوداع خمسة أميال أو ستة، ومن الثنية إلى مسجد بني زريق ميل. وقال موسى بن
عقبة: بين الحفياء وثنية الوداع ستة أميال أو سبعة، وبين الثنية والمسجد ميل أو نحوه،
رواه البخاري ويغره.
وفي لفظ آخر عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
سبق بين الخيل ، فجعل غاية المضمرة من الحفياء إلى ثنية الوداع، وما لم يضمر من ثنية
الوداع إلى مسجد بني زريق، قال ابن عمر: فجئت سابقاً فطفر بي الفرس المسجد.
وذكر بأن بنين في كتابه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابق بين الخيل على حلل أتته
من اليمن، فأعطى السابق ثلاث حلل، والمصلى حلتين، والثالث حلة، والرابع ديناراً،
والخامس درهماً، والسادس قصبة، وقال: "بارك الله فيك وفي كلكم وفي السابق

والفسكل".وروي البلاذري عن ابن سعد عن الواقدي، عن سليمان بن الحارث، عن عبد
المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جده، قال: أجرى رسول الله صلى الله
عليه وسلم الخيل، فسبقت على فرس رسول الله صلى الله عليه وسلم الظرب فكساني
برداً يمانياً.
وعن الواقدي، عن سليمان بن الحارث، عن الزبير بن المنذر بن أبي أسيد، قال: سبق أو
أسيد الساعدي على فرس رسول الله صلى الله عليه وسلم لزاز، فأعطاه حلة يمانية.
وعن مكحول - رضي الله عنه - قال: طلعت الخيل وقد تقدمها فرس النبي صلى الله
عليه وسلم، فبرك على ركبتيه، وأطلع رأسه من الصف، وقال: كأنه بحر.وفي لفظ عن
مكحول: فجاء فرس له أدهم سابقاً، وأشرف على الناس، فقالوا: الأدهم الأدهم، وجثا
رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه ومر به وقد انتشر ذنبه وكان معقوداً، فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: "البحر".
وأول مسابقة كانت في الإسلام سنة ست من الهجرة، سابق رسول الله صلى الله عليه
وسلم بين الخيل، فسبق فرس لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - فأخذ السبق.
والمسابقة مما كان في الجاهلية فأقره الإسلام، وليس هو من باب تعذيب البهائم، بل من
تدريبها بالجري وإعدادها لحاجتها للطلب والكر، وأختلف فيه، هل من باب المباح، أو من
باب المرغب فيه والسنن.
وعن سعيد بن المسيب أنه قال: ليس برهان الخيل بأس إذا أدخلوا فيها محللا ليس
دونها، إن سبق أخذ السبق، وإن سبق لم يكن عليه شيء.
وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "من أدخل
فرساً بين فرسين - يعني وهو لا يؤمن أن يسبق - فليس بقمار، ومن أدخل فرساً بين فرسين
وقد أمن أن يسبق فهو قمار"، رواه أبو داود في الجهاد في باب المحلل، ورواه ابن ماجة.
قال الشيخ شرف الدين الدمياطي - رحمة الله تعالى - وقوله: من أدخل فرساً، هو فرس
المحلل إذا كان كفؤاً يخافان أن يسبقهما فيحرز السبق، فهو جائز، وإن كان بليداً مأموناً أن

يسبق فيحرز السبق لم يحصل به معنى التحليل، وصار إدخاله بينما لغواً لا معنى له،
وحصل الأمر على رهان من فرسين لا محلل بينهما، وهو عين القمار. وقال القاضي أبو
الفضل: لا خلاف في جواز المراهنة فيها - يعني المسابقة - وأنها خارجة من باب القمار،
لكن لذلك صور: إحداها متفق على جوازها، والثانية متفق على منعها، وفي الوجوه الأخر
خلاف، فأما المتفق على جوازه فأين خرج الوالي سبقاً يجعله للسابق من المتسابقين ولا
فرس له في الحلبة، فمن سبق فهو له، وكذلك لو أخرج أسباقاً أحدها للسابق، والثاني
للمصلي، والثالث للثالث، وهكذا، فهو جائز، ويأخذونه على شروطهم، وكذلك لو فعل
متطوعاً رجل من الناس ممن لا فرس له في الحلبة، لأن هذا قد خرج من معنى القمار إلى
باب المكارمة والتفضل على السابق، وقد أخرجه عن يده بكل حال، وأما المتفق على
منعه فإن يخرج كل واحد من المتسابقين سبقاً، فمن سبق منهما أخذ سبق صاحبه
وأمسك متاعه، فهذا قمار عند مالك والشافعي وجميع العلماء ما لم يكن بينما محلل فإن
كان بينهما محلل فجعلا له السبق إن سبق ولا شيء عليه إن سبق فأجازه ابن المسيب،
وقاله مالك مرة، والمشهور عنه أنه لا يجوز، وقال الشافعي مثل قول ابن المسيب، فإن سبق
أحد المتسابقين أحرز سبقه وسبق صاحبه، وإن تساويا كان لكل واحد منهما ما أخرج،
وإن سبق المحلل لتحليه السبق بدخوله، لأنه علم أن المقصد بدخوله السبق لا المال، وإن لم
يكن بينهما محلل فمقصدهما المال والمخاطرة فيه، وقال محمد بن الحسن نحوه والأوزاعي
وأحمد وإسحاق، ومن الوجوه المختلف فيها أن يكون الوالي أو غيره ممن أخرج السبق له
فرس في الحلبة، فيخرج سبقاً على أنه إن سبق هو حبس سبقه، وإن سبق أخذه السابق،
فأكثر العلماء يجيزون هذا الشرط، وهو أحد أقوال مالك وبعض أصحابه، وهو قول
الشافعي والليث والثوري وأبي حنيفة قالوا: الأسباق على مالك أربابها، وهم فيها على
شروطه، وأبي ذلك مالك في الرواية الأخرى وبعض أصحابه وربيعة والأوزاعي، وقالوا: لا

يرجع إليه سبقه، قال مالك: وإنما يأكله من حضر إن سبق مخرجه إن لم يكن مع المتسابقين
ثالث، فإن كان معهما ثالث فللذي يلي مخرجه إن سبق، فإن سبق غيره فهو له بغير
خلاف، فخرج هذا عندهم عن معنى القمار جملة، ولحق بالأول، لأن صاحبه قد أخرجه
عن ملكه جملة، وتفضل بدفعه، وفي الوجوه الأخر معنى من القمار والخطر، لأنها مرة ترجع
الأسباق لمخرج أحدها، ومرة تخرج عنه إلى غيره.
ومن شرط وضع الرهان في المسابقة أن تكون الخيل متقاربة الحال في سبق بعضها بعضاً،
فمتى تحقق حال أحدها في السبق كان الرهان في ذلك قماراً لا يجوز، وإدخال المحلل لغواً لا
معنى له، وكذلك إن كانت متقاربة الحال مما يقطع غالباً بسبق جنسها، كالمضمرة مع غير
المضمرة، والعراب مع غيرها، فلا تجوز المراهنة في مثل هذا، وقد ميز النبي صلى الله عليه
وسلم ما ضمر في السباق، وأفرده عن ما لم يضمر، وتجوز فيها المسابقة بغير رهان، وإنما
يدخل التحليل والتحريم مع الرهان.
ومن شرطها أيضاً الأمد لسباقها، وحكى عبد الله بن المبارك عن سفيان قال: إذا سبق
الفرس بأذنه فهو سباق إذا تساوت أعناق الخيل في الطول فإن اختلفت أعناقها بالطول
والقصر كان السبق بالكاهل.
وأما أسماء السوابق في الحلبة - فالسوابق عند أبي عبيدة عشرة: أولها السابق، ثم
المصلي، ثم الثالث والرابع كذلك إلى التاسع، والعاشر السكيت، ويقال بالتشديد. وقال ابن
قتيبة: فما جاء بعد ذلك لم يعتد به، والفسكل: الذي يجيء في الحبة آخر الخيل. وأما
الأصمعي فإنه يقول: أولها المجلي، وهو القمصب، أي محرز قصب السبق، ثم المصلى ثم
المسلي، ثم التالن، ثم المؤمل، ثم المرتاح، ثم العاطف، ثم الحظي، ثم اللطيم، ثم السكيت.
وقال ابن الأنباري في الزاهر: الأولى المجلي، الثاني المصلي، الثالث المسلي، الرابع التالي،
الخامس المرتاح، السادس العاطف، السابع الحظي، الثامن المؤمل، التاسع اللطيم، العاشر
السكيت، والكاف منه تخفف وتشدد، قال الشاعر:

جاء المجلى والمصلى بعده ثم المسلى بعده والتالي
نسقا وقاد حظيها مرتاحها من قبل عاطفها بال إشكال

وقال أبو الغوث: أولها المحلي، وهو السابق، ثم المصلى، ثم المسلي، ثم التالي، ثم العاطف،
ثم المرتاح، ثم المؤمل، ثم الحظي، ثم اللطيم، ثم السكيت، وأنشد بعضهم في العشرة:

أتانا المجلي والمصلي بعده مسل وتالٍ بعده عاطف يجري
مرتاحها ثم الحظي ومؤمل وجاء اللطيم والسكيت له يبري

وقال الجاحظ: كانت العرب تعد السوابق ثمانية، ولا تجعل لما جاوزها حظاً، فأولها
السابق، ثم المصلى، ثم المقفى، ثم التالن، ثم العاطف، ثم المذمر، ثم البارع، ثم اللطيم،
وكانت العرب تلطم وجه الآخر وإن كان له حظ. وقال ابن الأجدابي: المحفوظ عن العرب
السابق والمصلي والسكيت الذي هو العاشر، وأما باقي الأسماء فأراها محدثة، والفسكل:
الذي يأتي آخر الخيل في الحلبة. وقال غيره: وما يجيء بعد هذه - يعني العشرة - فهو
المقردح، وانشد على ذلك:

قد سبق الخيل الهجان الأقداح وأقبلت من بعده تُقردحُ

والفسكل: الذي يجيء في آخريات الخيل، والذي يجيء بعده القاشور، وما جاء بعد ذلك
لاحظ له ولا اعتداد به، وقيل: السكيت والفسكل والقاشور بمعنى واحد.
ومما يتصل بهذا الفصل ترتيب عدو الفرس - وأوله الخبب، ثم التقريب، ثم الإمجاج، ثم
الإحضار، ثم الإرخاء، ثم الأهداب، ثم الإهماج.
تضمير الخيل
قد حكي ابن بنين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بإضمار خيله بالحشيش
اليابس شيئاً بعد شيء، وطيا بعد طي، ويقول: "أرووها من الماء، واسقوها غدوة
وغشياً، وألزموها الحلال... فتصفو ألوانها، وتتسع جلودها". وأمر صلى الله عليه
وسلم أن يقودوها في كل يوم مرتين، ويؤخذ منها من الجري الشوط والشوطان، ولا تركض
حتى تنطوى. قال الشيخ - رحمة الله -: والتضمير: تقليل علفها مدة، وإدخالها بيتاً
كنيناً، وتجليلها فيه لتعرق ويجف عرقها، فيصلب لحمها ويخف، وتقوى على الجري، يقال:
ضمرت الفرس وأضمرته.
سهم صاحب الفرس
والفرق في ذلك بين العراب والهجن والبرازين

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل
للفرس سهمين، ولصاحبه سهماً. وفي لفظ: قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر
الفرس سهمين، وللرجل سهماً، رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة. وفي
لفظ أبي داود: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم لرجل ولفرسه ثلاثة أسهم: سهماً
له، وسهمين لفرسه، ولفظ ابن ماجة: أن النبي صلى الله عليه وسلم أسهم يوم خيبر للفارس
ثلاثة أسهم: للفرس سهمان، وللرجل سهم.
وعن مكحول - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هجن الهجين يوم
خيبر، وعرب العرب، للعربي سهمان، وللهجين سهم. وعن خالد ابن معدان - رضي الله
عنه - قال: أسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للعربي سهمين، وللهجين سهماً.
وعن أبي موسى أن كتب إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - إنا وجدنا بالعراق
خيلاً عراضاً دكا، فما يرى أمير المؤمنين في سهامها؟ فكتب: تلك البرازين، فما قارب
العتاق فاجعل له سهماً واحداً، وألغ ما سوى ذلك.
وعن أبي الأقمر قال: أغارت الخيل على الشأم، فأدركت العرابُ من يومها، وأدركت
الكوادن ضحى الغد، وعلى الخيل رجل من همدان يقال له المنذر بن أبي حمضة، فقال: لا
أجعل التي أدركت من يومها مثل التي لم تدرك، ففضل الخيل، فكتب في ذلك إلى عمر بن
الخطاب - رضي الله عنه - فقال: "هبلت الوادعي أمه، لقد أذكرني أمراً كنت أنسيته،
أمضوها على ما قال. والكوادن: جمع كودن، وهو البرذون، ومذهب مالك والشافعي وأبي
حنيفة التسوية بني العربي وغيره، إلا أنهم جعلوا لكل واحد منهما سهماً واحداً، قال
مالك: ولا أرى البراذين والهجن إلا من الخيل لأن الله تعالى قال في كتابه: "والخيل والبغال
والحمير لتركبوها"، وقال: "وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل" قال: فأنا أرى
البراذين والهجن من الخيل إذا أجازها الوالي. قال ابن حبيب: الراذين هي العظام، يريد
الجافية الخلقة، العظمية الأعضاء، وليست العرابُ كذلك، فإنها أضمر وأرق أعضاء وأعلى

خلقة، وأما الهجن فهي التي أبوها عربي وأمها من البراذين.
قال شيخ - رحمه الله تعالى
-: ومذهب جمهور العلماء أنه يقسم للفرسان سهمان، ولصاحبه سهم على ما فرضه النبي
صلى الله عليه وسلم، لأن مؤونة الفرس أكثر من مؤونة فارسه، وغناءه أكثر من غناء
الفارس، فاستحق الزيادة في القسم من أجل ذلك، قال: وذهب أبو حنيفة إلى أنه يقسم
للفرس كما يقسم للرجل، وقال: لا يكون أعظم منه حرمة، ولم يتابعه أحد على ذلك إلى
شيء يروي عن علي وأبي موسى، وذهب مالك وأبو حنيفة ومحمد بن الحسن والشافعي
إلى أنه لا يقسم إلا لفرس واحد، ودليلهم ما رواه ابن سعد في طبقاته: أن النبي صلى الله
عليه وسلم أمر زيد بن ثابت يوم حنين بإحصاء الناس والغنائم فكان السبي ستة آلاف
رأس، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف
أوقية فضة، فأخذ من ذلك الخمس، ثم فض الباقي على الناس، فكانت سهامهم لكل رجلٍ
أربع من الإبل وأربعون شاة، وإن كان فارساً أخذ اثني عشر من الإبل وعشرين ومائة شاة،
وإن كان معه أكثر من فرس لم يسهم له. وذهب الأوزاعي والثوري والليث بن سعد وأبو
يوسف وأحمد ابن حنبل - رحمهم الله - إلى أنه يسهم لفرسين، وروي مثله عن مكحول
ويحيى ابن سعيد وابن وهب ومحمد بن الجهم من المالكية، وحكاه محمد بن جرير الطبير
في تاريخه، فقال: ولم يكن يسهم للخيل إذا كانت مع الرجل إلا لفرسين ودليلهم ما ذكره ابن
مندة في ترجمة البراء بن أوس بن خالد أنه قاد مع النبي صلى الله عليه وسلم فرسين،
فضرب له النبي صلى الله عليه وسلم خمسة أسهم، ولم يقل أحد إنه يسهم لأكثر من فرسين
إلا شيئاً يروى عن سليمان بن موسى أنه يسهم لمن غزا بأفراس لكل فرس سهمان،
واختلفوا في الإسهام للفرس المريض الذي يرجى برؤه على قولين، أحدهما: يسهم له نظراً إلى
الجنس، والثاني: لا يسهم له، لأنه لا غناء فيه كالبغل والحمار، والله الموفق للصواب.
سقوط الزكاة في الخيل

روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:
"ليس على المرء المسلم في فرسه ولا مملوكه صدقة" متفق عليه. وفي لفظ عنه: "ليس على
المسلم في عبده ولا في فرسه صدقة". وفي لفظ: "ليس في الخيل والرقيق زكاة إلا زكاة الفطر
في الرقيق". وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم: "إن الله وضع الصدقات فليس على الخيل صدقة، وليس على الحمر صدقة، وليس
على البغال صدقة، وليس على الإبل التي يسقى عليها الماء للنواضح صدقة".
وعن أبي عمرو عبد الله بني يزيد الحراني، قال: حدثني سليمان بن أرقم، عن الحسن، عن
عبد الرحمن بن سمرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا صدقة في الكسعة والجبه
والنخة"، فسره أبو عمرو، الكسعة: الحمير. والجبهة: الخيل. والنخة: العبيد. ويقال:
النخة، البقر العوامل، قال ثعلب: هذا هو الصواب، لأنه من النخ، وهو السوق الشديد، وقال
الكسائي: إنما هو النخة بالضم، قال: وهو البقر العوامل، وقال الفراء: النخة بالفتح، أن
يأخذ المصدق ديناراً لنفسه بعد فراغه من أخذ الصدقة، وأنشد:
عمى الذي منع الدينار صاحبه دينار نخة كلبٍ وهو مشهود
وعن علي - رضي الله عنه - قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "عفوت لكم عن
الخيل والرقيق". وعنه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
"قد عفوت لكم عن الخيل والرقيق فهاتوا صدقة الرقة من كل أربعين درهماً درهماً، وليس
فيه في تسعين ومائة شيء، فإذا بلغت مائتين ففيها خمسة دراهم". وفي لفظ أخر عنه، عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال: "فإذا كانت لك مائتا درهم وحال عليها الحول، ففيها
خمسة دراهم، وليس عليك شيء - يعني في الذهب - حتى يكون لك عشرون ديناراً
وحال عليها الحول، ففيها نصف دينار، فما زاد فبحساب ذلك".
قال الجوهري: الورق،
الدراهم المضروبة، وكذلك الرقة، والهاء عضو من الواو، وفي الورق ثلاث لغات حكاهن
الفراء: ورق، وورق، وورق.

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
"إن الله عز وجل تجوز لكم عن صدقة الخيل والرقيق".
وعن عبد الله بن دينار قال: سألت سعيد بن المسيب، فقلت: أفي البراذين صدقة؟ فقال:
في الخيل صدقة؟. وعن حارثة بن مضرب قال: جاء ناس من أهل الشام إلى عمر فقالوا:
إنا قد أصبنا أموالاً خيلاً ورقيقاً نحب أن يكون لنا فيها زكاة وطهور، فقال: ما فعله
صاحباي فأفعله، فاستشار أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وفيهم علي - رضي
الله عنه - فقال علي: "هو من إن لم تكن جزية يؤخذون بها بعدك".
وعن مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن سليمان بن يسار أن أهل الشأم قالوا لأبي
عبيدة: خذ من خيلنا ورقيقنا صدقة، فأبى، ثم كتب إلى عمر بن الخطاب، فأبى، فكلموه
أيضاً، فكتب إلى عمر، فكتب إليه أيضاً عمر: إن أحبوا فخذها منهم وأرددها، يعني في
فقرائهم.
فدلت هذه الأحاديث والأخبار على أن لا صدقة في الخيل السائمة ولا في الرقيق إذا كانوا
للخدمة، إلا أن يكونوا للتجارة، فإن كانوا للتجارة ففي أثمانهم أو قيمهم الزكاة إذا حال عليها
الحول، وعلى هذا مذهب الجمهور، وذهب أبو حنيفة - رحمة الله - دون صاحبيه إلى
وجوب الزكاة في الخيل السائمة إذا كانت إناثاً، أو إناثاً وذكوراً، وقال: هو مخير بين أن تقوم
وتؤخذ الزكاة من القيمة، وبين أن يخرج عن كل فرس ديناراً، واحتجوا له بقوله عليه السلام
"ثم لم ينس حق الله في رقابهم وظهورها"، قال المخالف لهم: وليس فيه دليل من وجهين:
أحدهما أنه صلى الله عليه وسلم لما ذكر الإبل السائمة وقال: فيها حق سئل عن ذلك الحق
ما هو؟ فقال: إطراق فحلها وإعارة دلوها، ومنحة لبنها أو سمنها، وحلبها على الماء،
وحمل عليها في سبيل الله، فلما كانت الإبل فيها حق سوى الزكاة احتمل أن يكون في الخيل
أيضاً حق سوى الزكاة وقد روي الترمذي وابن ماجة حديث فاطمة بنت قيس، قال: قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن في المال حقاً سوى الزكاة" وتلا هذه الآية "ليس البر

أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب" الخ الآية، فيجوز أن يحمل الحق في رقابهم
وظهورها على هذا الوجه. الثاني أن يحمل الحق فيها على التأكيد لا على الوجوب، كقوله
صلى الله عليه وسلم في حديث معاذ: "وحق العباد على الله عز وجل أن لا يعذبهم إذا
فعلوا ذلك"، فهذا محمل قوله عليه السلام: "ثم لم ينس حق الله في رقابهم" وتأويله.
قال شيخنا شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي - رحمه الله -: ولنا أن نقول
فيه أيضاً: هو مجمل، والأحاديث المتقدمة مفسرة تقضي عليه، وظواهرها حجج متضافرة
على ترك الزكاة في الخيل، قال: فهذا وجهه من طريق السنة والأثر، وأما وجهه من طريق
النظر فمن وجهين: أحدهما أن السؤم في الخيل نادر عند العرب فلا زكاة فيها كالبغال
والحمير، الثاني أن الزكاة لو وجبت في الخيل لتعدى ذلك إلى ذكورها قياساً على المواشي
من الإبل والبقر والغنم. وقال الطبري والطحاوي: والنظر أن الخيل في معنى البغال والحمير
التي قد أجمع الجميع على أن لا صدقة فيها، ورد المختلف فيه إلى المتفق عليه إذا اتفقا في
المعنى أولى. وقال أبو عبيد: وكان بعض الكوفيين يرى من الخيل صدقة إذا كانت سائمة
يبتغي منها النسل، فقال: إن شاء أدى عن كل فرس ديناراً، وإن شاء قومها ثم زكاها، قال:
وإن كانت للتجارة كانت كسائر أموال التجارة يزكيها، قال أبو عبيد: أما قوله في التجارة
فعلى ما قال، وأما إيجابه الصدقة في السائمة فليس هذا على اتباع السنة، ولا على طريق
النظر، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عفا عن صدقتها، ولم يستثن سائمة ولا
غيرها، وأما في النظر، فكان يلزمه إذا رأى فيها صدقة أن يجعلها كالماشية تشبيهاً بها،
لأنها سائمة مثلها، فلم يصر إلى واحد من الأمرين، وقد جاء عن غير واحد من التابعين
إسقاط الزكاة من سائمتها، فروي عن الحسن أنه قال: ليس في الخيل السائمة صدقة، وعن
عمر بن عبد العزيز قال: ليس في الخيل السائمة زكاة، وقال أبو عبيد: وقد قال مع هذا
بعض من يقول بالحديث ويذهب إليه: إنه لا صدقة في سائمتها ولا فيما كان منها للتجارة

أيضاً، يذهب إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "قد عفونا لكم عن صدقة
الخيل والرقيق"، فجعله عاماً، فلا زكاة في شيء منها، قال أبو عبيد: فأوجب ذلك الأول
الصدقة عليها في الحالين جميعاً وأسقطها هذا فهما كلتيهما وأحد القولين فأوجب القولين
عندي غلو، والآخر تقصير، والقصد فيما بينهما هو أن تجب الصدقة فيما بينهما هو أن
تجب الصدقة فيما كان منها للتجارة، وتسقط من السائمة، على هذا وجدنا مذهب
العلماء، وهم أعلم بتأويل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو قول سفيان بن
سعيد ومالك وأهل العراق وأهل الحجاز والشأم، لا أعلم بينهم في هذا اختلافاً، والله أعلم
بالصواب.

وصفت العرب للخيل
من ترتيبها في السنّ، وتسمية أعضائها، وأبعاضها، وألوانها، وشياتها، وغررها،
وحجولها، وعصمها، ودوائرها، وما قيل في طبائعها وعاداتها، والمحمود من صفاتها
ومحاسنها، والعلامات الدّالة على جودتها ونجابتها، وعدّ عيوبها التي تكون في خلقها
وجريها، والعيوب التي تطرأ عليها وتحدث فيها

ترتيبها في السنّ
فالعرب تقول: سنّ الفرس إذا وضعته أمه فهو مهر. ثم هو فلوٌّ. فإذا استكمل سنةٌ فهو
حوليّ. ثم هو في الثانية جذع. ثم في الثالثة ثنيٌّ. ثم في الرابعة ربّاعٌ. ثم في الخامسة قارحٌ.
ثم هو إلى نهاية عمره مدّكٌّ.

تسميتها
وتسمية أعضائها وأبعاضها فقد قالوا: الخيل مؤنّثةٌ، ولا واحد لها من جنسها، وجمعها
خيول. ويقال في صفاتها: أذنٌ مؤلّلةٌ ومرهفةٌ، أي محدّدة الطرف. قال عديّ بن الرقاع:

تخوص في فرجات النّقع داميةٌ كأنّ آذانها أطراف أقلام

وحشرةٌ: صغيرة مستديرةٌ. ومقدودةٌ: مدوّرةٌ. وأذنٌ غضنفرةٌ أي غليظةٌ. وزبعراةٌ أي
غليظةٌ شعراء. وخذاويّةٌ أي خفيفة السمع. قال عديّ بن زيد:

له أذنان خذاويّتان والعين تبصر ما في الظّلم

ثم الناصية وهي الشعر السائل على الجبهة، يقال: واردةٌ وهي الطويلة، وجثلة وهي

الكثيرة الملتفّة. والفاشغة والغمّاء وهي الكثيرة المنتشرة. والسّفواء وهي القليلة.
وعصفورها: أصل منبت شعرها. وقونسها: العظم الناتئ بين الأذنين.
الوجه وما فيه
مما لم يذكر في خلق الإنسان
النّواهق وهما عظمان شاخصان في وجهه من الجبهة إلى المنخرين. واللّهزمتان: وما اجتمع
من اللحم في معظم الجبين. وعينّ مغربةّ أي بيضاء الحماليق وما حولها. وخيفاء: إذا
كانت إحداهما سوداء والأخرى زرقاء. والمحملقة: التي حول مقلتيها بياضّ لم يخالف
السّواد.
وأنفٌ مصفّحٌ أي معتدل القصبة. والسّمُ: ثقبه، قال: ومنخراً واسعةٌ سمومه
وقال مزاحم بن طفيل الغنويّ، وقيل: العبّاس بن مرداس السّلمي،:

ملء الحزامين وملء العين ينفش عند الرّبو منخرين
كنفش كيرين بكفّي قين

والحجفلة: الشّفة. والفيد: الشّعر النابت عليها. والشّدقان: مشقّ الفم إلى حدّ اللجام:
العنق وما فيه
فالمعرفة: موضع العرف. والعرف: شعر أعلى العنق. والعذوة: ما على المنسج يقبض
عليه الفارس إذا ركب. والعرشان: اللحمان من جانبي العرف.
والجران: جلد أسفل
العنق. والدّسيع: مركّب العنق في الكاهل. قال سلامة بن جندل:

يرقى الدّسيع إلى هادٍ له بتعٍ في جؤجؤٍ كمداك الطّيب مخضوب

واللّبان: ما جرى عليه اللّبب. ويقال: عنقٌ قوداء أي طويلةٌ. وسطعاء أي طويلةٌ منتصبةٌ
غليظةٌ. وتلعاء: منتصبةٌ غليظة الأصل مجدولة الأعلى. ودنّاء أي مطمئنةٌ من أصلها،
هنعاء: مطمئنةٌ من وسطها. ووقصاء: قصيرة. ومرهفةٌ: رقيقةٌ.
الظهر وما اتصل به
من الوركين
فمنه: المتنان وهما لحمان يكتنفان الظهر من مركّب العنق إلى علوة ظهر الذّنب. والحارك:
عظمٌ مشرفٌ من بين فرعي الكتفين. والقردودة: حدّ الفقار. والفقار: المنتظمة في الصّلب.

والصّهوة: مقعد الفارس. والقطاة: مقعد الرّدف خلفه.
والمعدّان: موضع السّرج من
جنبيه. قال شاعرُ:
فإمّا زال سرجي عن معدٍّ وأجدر بالحوادث أن تكونا
والصّرد: بياضٌ على الظهر. والغرابان: ملتقى أعالي الوركين
في ناحية الصّلب. والصّلوان:
ما أسهل من جانبي الوركين. والعجب: ما ارتفع من أصل
الذّنب. والعلوة: أصله.
والعسيب: عظم الذّنب. والأعوج العسيب: أعزل.
الصدر
وما اتصل به من البطن
فمنه: الكلكل: ما مسّ الأرض من فهدتيه. والفهدتان: اللّحمتان
الناتئتان في الصدر.
والمحزم: ما شدّ عليه الحزام. والناحران: عرقان يودج منهما.
الذّراعان
وما دونهما
المرفقان: مآخير رءوس الذّراع. والخصيلة: لحمة الذراع مع
العصب. والصّافن: عرق
الذراع. والحبال: عصبها. والرّقمتان: لحمتان في باطنهما لا
تنبتان شعراً. والرّكبة: موصل
ما بين الذّراع والظيف. والوظيفان: العظمان تحت الركبتين
والعرقوبين. والرّضفتان: عظمان
مستديران على الرّكبة، والسّنبك: طرف مقدّم الحافر. والنّسر:
ما يتطاير من أسفله
كالنّوى. والمنقل: مجتمع الحافر من باطنه. وألية الحافر:
مؤخّره. ويقال: حافرٌ أرحّ: منبطح
السّنابك. وفرشاح أي منبطحٌ. ووأبٌ: مقعّبٌ.ومصرورٌ: مضمومٌ
صغيرٌ. ومكنبٌ أي
كثيفٌ. والله أعلم بالصواب.
ألوانها وشياتها
وغررها وحجولها وعصمها وما فيها من الدوائر
من ألوانها: البهيم والمصمت: كلّ ذي لونٍ واحدٍ لا شية فيه، إلا
الأشهب فإنه لا يقال له
بهيمٌ. يقال: فرسٌ مصمتٌ، والأنثى مصمتةٌ، والجمع مصامت.
وكذلك يقال في قوائم الفرس
إذا لم يكن بهنّ تحجيلٌ. قال أبو حاتم:
مبهمةٌ مصمتة القوائم
ومن ألوان الخيل: الدّهم، وهي ستة: أدهم غيهبٌ وهو أشدّها
سواداً، والأنثى غيهبةٌ.
والغيهب: الظلمة، والجمع غياهب. وكذلك الغربيب. والحالك.
وأدهم دجوجيٌّ: صافي

السّواد؛ وقيل: هو مأخوذ من الدّجّة، وهي شدّة السواد والظّلمة. وأدهم يحمومٌ وأدهم
أحمّ وهو الذي أشربت سراته وحجزته حمرةً. قال أبو تمام:
أو أدهم فيه كمتةٌ أممٌ كأنه قطعةٌ من الغلس
ثم أدهم أكهب وهو إلى الكدرة.
ثم أحوى والجمع حوٌ؛ وهو أهون سواداً من الجون، ومناخره محمرّةٌ، وشاكلته مصفرّةٌ.
والأحوى أربعة ألوانٍ: أحوى أحتم وهو المشاكل للدّهمة والخضرة؛ ولا فرق بينه وبين
الأخضر الأحمر إلا باحمرار مناخره واصفرار شاكلته. وأحوى أصبح وهو الي تقلّ حمرة
مناخره فتصير إلى السواد ويكون البياض فيه غالباً على أطراف المنخرين. وأحوى أطحل
وهو الذي تعتريه صفرةٌ وخضرةٌ مخالطتان لكدرةٍ. وأحوى أكهب. والكهب: قلّة ماء اللّون
وكدرته في موضع المنخرين في حمرتهما وفي سواد السّراة في بياض الأقراب.
ومنها الخضر، وهي أربعةٌ: أخضر أحمّ وهو أدناها إلى الدّهمة. قال الشاعر:
خضراء حمّاء كلون العوهق
وهو اللاّزورد. وأخضر أدغم وهو الأخطب لون وجهه وأذنيه ومناخره. وهذا اللّون
يسمّى بالفارسيّة ديزجاً. وأخضر أطحل وهوالذي تعلو خضرته صفرةٌ. وأخضر أورق هو
الذي كلون الرّماد.
ومنها الكميت، والجمع كمتٌ، والذكر والأنثى فيه كميتٌ، وهي تسعةٌ. قالوا: وكميتٌ من
الأسماء المصغّرة المزحّمة التي لا تكبير لها، ومن أكمت بمنزلة حميدٍ من أحمد، غير أن
أكمت لم يستعمل. والكميت بين الأحوى والأصدأ، وهو أقرب من الشّقر والوارد إلى
السواد وأشدّ منها حمرةً. والفرق ما بين الكميت والأشقر بالعرف والذنب، فإن كانا أحمرين
فهو أشقر، وإن كانا أسودين فهو كميتٌ؛ والورد بينهما.
والكميت أحبّ الألوان إلى
العرب. ومن ألوانه: كميتٌ أحمّ وهو الذي يشاكل الأحوى، غير أنه تفصل بينهما حمرة
أقرابه ومراقّه مربطائه. والمربطاء: الجلدة التي بين العانة والسّرّة. والأقراب: من الشاكلة التي
هي الخاصرة إلى مراقّ البطن، واحدها: قربٌ وقربٌ. قال الأصمعيّ: أشدّ الخيل جلوداً

وحوافر الكمت والحمّ. وكميتٌ أصحم وهو الأسود الذي يضرب إلى الصّفرة. وكميتٌ
أطخم والطّخمة: سوادٌ مقدّم الأنف. وكميتٌ مدمّى وهو الشديد الحمرة وكلّما انحدر إلى
مراقّ البطن يزداد صفاءً. وكميتٌ أحمر وهو أشدّ حمرةً من المدمّى، وهو أحسن الكمت.
وكميتٌ مذهبٌ وهو الذي تعلو حمرته صفرة. وكميتٌ محلفٌ وهو أدنى الكمت إلى الشقرة
وظاهر شعر ذنبه وعرفه كلون جسده وباطنه أسود، والأنثى محلفةٌ. وأنشدوا:

كميتٌ غير محلفةٍ ولكن كلون الصّرف علّ به الأديم

قال أبو خيرة: المحلف بين الأصهب والأحمر، وهو من الإبل الأصحر. وكميتٌ أكلف وهو
الذي لم تصف حمرته ويرى في أطارف شعره سوادٌ. وكميتٌ أصدأ وهو الذي فيه صدأةٌ
أي كدرةٌ بصفرةٍ قليلة، شبّهت بلون صدأ الحديد.
ومنها الوارد، وهي جمع وردٍ وهي ثلاثةٌ، والورد هو الذي تعلوه حمرةٌ إلى الشّقرة الخلوقيّة
وجلده وأصول شعره سودٌ. وقيل: الوردة: حمرةٌ تضرب إلى الصّفرة. وتحقيقه أنه بين
الكميت الأحمر وبين الأشقر، منها: وردٌ خالصٌ وورِدٌ مصامص وهو الخالص أيضاً، والأنثى
مصامصة. وورِدٌ أغبس تدعوه العجم السّمند وهو الذي لونه كلون الرّماد.
ومنها الشّقر، وهي تسعةٌ، والأشقر: أشدّ حمرةً من الورد، يقال: أشقر أدبس وهو الذي
لونه بين السواد والحمرة. وأشقر خلوقيّ. وأشقر أصبح وهو قريبٌ من الأصهب.
والصّهبة: الشّقرة في شعر الرأس. وأشقر سلّغد وهو الذي خلصت شقرته، والأنثى
سلّغدةٌ، والجمع سلّغداتٌ. قال شاعرُ:

أشقر سلّغدٌ وأحوى أدعج وأصكّ أظمى وحيفسٌ أفلج

وأشقر قرفٌ والأنثى قرفةٌ، والجمع قروفٌ وقرافٌ وأقرافٌ وهو كالسلّغد. وأشقر مدمّى
وهو الشديد الحمرة. وأشقر أقهب. والقهبة: غبرةٌ إلى سوادٍ. وقال ابن الأعرابيّ: الأقهب:
الذي فيه حمرةٌ فيها غبرةٌ. وأشقر أمغر، وهو الذي تعلو شقرته مغرةٌ، أي كدرةٌ. وأشقر
أفضح: بين الفضحة، وهي البياض ليس بالشديد.
ومنها الصّفر، وهي أربعةٌ: أصفر فاقعٌ. وأصفر أعفر وهو بياضٌ تعلوه حمرةٌ. وأصفر

ناصعٌ. وأصفر ذهبيٌّ وهو الذي يضرب إلى البياض، وهو السّوسنيّ.
ومنها الشّهب، وهي خمسةٌ. الأشهب: كلّ فرس تكون شعرته على لونين ثم تفترق شعراته
فلا تجمع واحداً من اللّونين شعراتٌ تخلص بلون كقدر النّكتة فما فوقها. وقيل: الأشهب
الأبيض الشّعرة ليس بالبياض الصّافي القرطاسيّ وجلده أسود يقال له أشهب أبيض.
والشّهبة في الألوان: البياض الذي يغلب على السّواد. ويقال للأشهب أيضاً: أضحى،
والأنثى ضحياء. وأسماء ألوانه: أشهب ناصعٌ. وأشهب أحمّ وهو أسود تنفذه شعراتٌ
بيضٌ. وأشهب زرزوريّ وهو الذي اعتدل فيه السواد والبياض. وأشهب مفلّسٌ وهو
الذي خالط بياضه سوادٌ أو حمرة. وأشهب سامريّ وهو الذي شبهته بسواد أورق.
ومنها الجون، وهو اختلاط بياض بحمرة الأشقر أو الكميت.
ومنها الصّنابيّ، وهو دهمة فيها شهبة، أو كمتة فيها شهبة أقلّ من بياض الأشهب. نسب
إلى الصّناب وهو الخردل بالزبيب.
ومنها الأغبر، وهو أشقر شملت شقرته شهبةٌ.
ومنها الأبرش، وهو الذي فيه لمع بياض كالرّقط، وقيل: هو الذي يكون في شعره نكتٌ
صغارٌ تخالف سائر لونه، وإنما يكون ذلك في الدّهم والشّقر خاصّةً، وربما أصابها ذلك من
شدّة العطش. فإذا عظمت النّكت فهو مدنر. وإذا كان في جسده بقعٌ متفرقةٌ مخالفةٌ للونه
فهو ملمعٌ وأبقع وأشيم. وقيل: الأشيم: أن تكون فيه شامةٌ بيضاء؛ وقيل: قد تكون
الشّامة غير بيضاء. وإذا كان في الشامة استطالةٌ فهو مولّعٌ. وقال ابن بنين: إذا كان في
الدابّة عدّة ألوان من غير بلقٍ فذلك التوليع، يقال: برذونٌ مولّعٌ. وإذا كانت الشامة في مؤخّره
أو شقّه الأيمن كرهت.
ومنها العرسيّ وهو الذي يشبه لون ابن عرس.
ومنها الأنمر، وهو الذي يكون فيه بقعةٌ بيضاء وبعقةٌ أخرى من أيّ لون كان.
ومنها الأبلق، وهو ما يكون نصف لونه أو ما قارب النصف أبيض، والنصف الآخر أسود
أو أحمر.
ومنها الأغشى بالغين المعجمة، وهو ما ابيضّ رأسه دون جسده مثل الأرخم.

ومنها الأبيض، وهو الذي ابيضّ شعره بياضاً مثل بياض الأوضاح أشدّ ما يكون من
البياض وأصفاه لا يخالطه شيءٌ من الألوان فيقال، فيه: أبيض قرطاسيّ. وربما كان أزرق
العين أو أسود أو أكحل. ويدعى بما في عينيه من زرقة وسواد وكحلٍ؛ ولا يكون أكحل
حتى تسودّ أشفار عينيه وجفونه.
قال الشيخ رحمه الله تعالى في كتابه فضل الخيل: وألوان الخيل أدهم، وأخضر، وأحوى،
وكميت، وأشقر، وأصفر، وأشهب،وأبرش، وملمّع، ومولّع، وأشيم. هذا قول أبي عبيدة.
وقال الأبيورديّ في رسالته: الدّهمة، ثم الحوّة، ثم الصّدأة، ثم الخضرة، ثم الكمتة، ثم الوردة،
ثم الشّقرة، ثم الصّفرة، ثم العفرة، ثم الشّهبة. هذا ما وقفنا عليه من ألوانها. والله أعلم.
وأما الشّية وجمعها شيات
فقالوا: كلّ لون يخالف معظم لون الفرس فهو شيةٌ. فإذا لم يكن فيه شية فهو أصمّ بهيمٌ من
أيّ الألوان كان، والأنثى أيضاً بهيم. وكذلك فرسٌ مصمتٌ بمنزلة البهيم من أيّ لون كان،
والأنثى مصمتة، والجمع مصامت. وقد تقدّم ذكر ذلك، فلنذكر الشّيات.
من الشيّة، : الغرّة، والقرحة، والرّثمة، والتّحجيل، والسّعف، والنّبط، والصّبغ، والشّغل،
واللّمظ، واليعسوب، والتعميم، والبلق.
فالغرّة، : البياض في الوجه؛ وهي أنواع: لطيمٌ، وشادخةٌ، وسائلةٌ، وشمراخ، ومتقطّعة،
وشهباء.
فاللّطيم: الذي يصيب البياض عينيه أو إحداهما أو خدّيه أو أحدهما، والأنثى أيضاً
لطيم. فإذا فشت في الوجه ولم تصب العين فهي شادخةٌ. فإذا اعتدلت على قصبة الأنف
وإن عرضت في الجبهة فهي سائلةٌ. وإذا دقدت وسالت في الجبهة وعلى قصبة الأنف ولم
تبلغ الحجفلة فيه شمراخٌ. وكلّ بياض في جبهة الفرس فشا أو قلّ ينحدر حتى يبلغ المرسن
ثم ينقطع فهي غرّة متقطعةٌ. وإذا كان البياض في منخريه ثم ارتفع مصعداً حتى يبلغ بين
عينيه ما لم يبلغ جبهته فهي أيضاً غرّة متقطعة. وإذا كان في الغرّة شعر يخالف البياض فهي
غرّة شهباء. وقال ابن قتيبة: إن سالت غرته ودقّت فلم تجاوز العينين فهي العصفور. وإن

أخذت جميع وجهه غير أنه ينظر في سوادٍ فهي المبرقعة. فإن فشت حتى تأخذ العينين
فتبيضّ أشفاهرما فهو مغربٌ. فإن كانت إحدى عينيه زرقاء والأخرى كحلاء فهو
أخيف.
وأما القرحة، وهي دون الغرّة؛ فقال ابن قتيبة: الغرّة: ما فوق الدّرهم، والقرحة: قدر
الدرهم فما دونه. قالوا: والقرح: كلّ بياض كان في جبهة الفرس ثم انقطع قبل أن يبلغ
المرسن. وتنسب القرحة إلى خلفتها في الاستدارة والتثليث والتربيع والاستطالة والقلّة؛
فإذا قلّت قيل: خفيّة. وإذا كان في القرحة شعر يخالف البياض فهي قرحةٌ شهباء.
وأما الرّثمة بالثاء المثلثة، فكلّ بياض أصاب الحجفلة العليا قلّ أو كثر فهو رثمٌ إلى أن يبلغ
المرسن. وتنسب الرّثمة إذا هي فشت إلى الشّدوخ. وإذا لم تجاوز المنخرين نسبت إلى
الاعتدال. وإذا قلّت واشتدّ بياضها نسبت إلى الاستنارة. وإذا لم يظهر للناظر حتى يدنو
نسبت إلى الخفية.
واللّمظة، كلّ بياض أصاب الحجفلة السّفلى قلّ أو كثر فهو لمظٌ والفرس ألمظ.
واليعسوب، : كلّ بياض يكون على قصبة الأنف قلّ أو كثر ما لم يبلغ العينين. وإذا شاب
الناصية بياضٌ فهو أسعف. فإذا خلص البياض في الناصية فهو أصبغ. فإذا انحدر
البياض إلى منبت الناصية فهو المعمّم. وإذا كان في عرض الذّنب بياضٌ فهو أشعل.
والعرب تكره شعلة الذّنب. وإذا كان في قمعة الذّنب، وهي طرفه، بياضٌ فهو أصبغ. وإذا
ارتفع البياض حتى يبلغ البطن فهو أنبط. وإذا ظهر البياض وزاد فهو أبلق. وقال ابن قتيبة
وابن الأجدابي: إذا كان الفرس أبيض الظّهر فهو أرحل، وإن كان أبيض البطن فهو أنبط.
وقال غيرهما: الأدرع من الخيل والشاء: الذي اسودّ رأسه ولو سائره أبيض، والأنثى
درعاء، من الدّرعة. والأخصف من الخيل والغنم: الأبيض الخاصرتين الذي ارتفع البلق من
بطنه إلى جنبيه، ولونه كلون الرّماد فيه سوادٌ وبياضٌ. وقيل: كلّ ذي لونين مجتمعين فهو
خصيفٌ وأخصف؛ وأكثر ذلك السواد والبياض. ويقال: فرسٌ آزر إذا كان أبيض العجز.

ومن الشّية التحجيل، وهو البياض في قوائم الفرس الأربع، أو في ثلاث منها، أو في رجليه
قلّ أو كثر إذا استدار حتى يطيف بها. وأصل الحجلة من الحجل بفتح الحاء وكسرها وهو
القيد والخلخال. قال ابن الأجدابيّ: فإن كانت قوائمه الأربع بيضاء لا يبلغ البياض منها
الركبتين فهو محجّلٌ. وطليق اليد وطلق اليد بفتح الطاء وإسكان اللام وبضمهما أيضاً: إذا
كانت على لون البدن ولم يكن بها بياضٌ. فإذا أصاب البياض القوائم كلها فهو محجّل أربعٍ.
وإن كان في ثلاث قوائم فهو محجّل ثلاثٍ مطلق يدٍ أو رجلٍ يمنى أو يسرى. وكلّ قائمةٍ بها
بياضٌ فهي ممسكةٌ. وكلّ قائمة ليس بها وضحٌ فهي مطلقةٌ. فإن كان البياض في الرجلين
جميعاً فهو محجّل الرجلين. وإن كان في إحداهما فهو الأرجل؛ وقد ذكرناه.
ولا يكون التحّجيل واقعاً بيدٍ ما لم يكن معها رجلٌ أو رجلان. ولا بيدين ما لم يكن معهما
رجلٌ أو رجلان أو وضحٌ بالوجه. فإن كان التحجيل في يد ورجل من شقٍّ واحدٍ فهو
ممسك الأيامن مطلق الأياسر، أو ممسك الأياسر مطلق الأيامن، ويقال: الأيمنين والأيسرين.
وإن كان من خلافٍ قلّ أو كثر فهو مشكولٌ؛ وهو مكروه في الحديث. وقد تقدم ذكره.
ومنها العصم، وهو إذا كان البياض بإحدى يديه قلّ أو كثر فهو أعصم اليمنى أو
اليسرى. واسم العصمة مأخوذٌ من المعصم وهو موضع السّوار من الساعد. فإن كان
البياض في يده اليسرى قيل: منكوسٌ؛ وهو مكروه. وإن كان البياض بيديه جميعاً فهو
أعصم اليدين، وإلا أن يكون بوجهه وضحٌ فهو محجّلٌ ذهب عنه العصم. فإن كان بوجهه
وضحٌ وبإحدى يديه بياضٌ فهو أعصم، لا يوقع عله وضح الوجه اسم التّحجيل إذا كان
البياض بيد واحدة.
ووضح القوائم: الخاتم، والإنعال، والتّخديم، والصّبغ، والتّجبيب، والمسرول، والأخرج،
والتّسريح. فأقلّ وضح القوائم الخاتم وهو شعراتٌ بيضٌ. فإذا جاوز ذلك حتى يكون
البياض واضحاً فهو إنعالٌ ما دام في مؤخّر رسغه مما يلي الحافر. فإذ جاوز الأرساغ فهو

تخديمٌ. وإذا ابيضّت الثّنّة كلّها ولم يتّصل بياضها ببياض التحجيل فهو أصبغ. وإذا ارتفع
البياض في القوائم إلى الجبب فما فوق ذلك ما لم يبلغ الركبتين والعرقوبين فهو التّجبيب. فإذا
بلغ التجبيب الركبتين والعرقوبين فهو مسرولٌ حتى يخرج من الذراعين والسّاقين. فإذا خرج
من الذراعين والساقين فهو أخرج. وكلّ بياضٍ في التحجيل مستطيلٍ فهو تسريحٌ. والله
أعلم.
ما في الفرس من الدوائر
فمنها: دائرة المحيا وهو اللاّصقة بأسفل الناصية. ودائرة اللّطمة في وسط الجبهة، فإن
كانت دائرتان في الجبهة قيل: فرسٌ نطيحٌ. ودائرة اللاّهز: التي تكون في اللّهزمة. ودائرة
العمود وتسمّى المعوّذ أيضاً وهي في موضع القلادة. ودائرة السّمامة في وسط العنق.
ودائرتان البنيقين وهما اللّتان في نحر الفرس. ودائرة النّاحر:التي في الجران إلى أسفل من
ذلك. ودائرة القالع: التي تكون تحت اللّبد. ودائرة الهقعة في الشّقّين، وتدعى النافذة أيضاً،
وقيل: هي التي تكون في عرض زوره. ودائرة النّافذة وهي دائرة الحزام. ودائرتا الصّقرين في
الحجبتين والقصريين، والحجبة: رأس الورك. والقصرى: الضّلع التي تلي الشاكلة، ودائرة
الخرب تكون تحت الصّقرين. ودائرة الناخس تكون تحت الجعرتين إلى الفائلين. وهما عرقان
في الفخذ. والجاعرتان: حرفا الوركين المشرفان على الفخذين، وهما مضرب الفرس بذنبه
على فخذيه، وهما موضع الرّقمتين من است الحمار.
وكانت العرب تستحبّ من هذه الدوائر: المعوّذ، والسّمامة، والهقعة. وقيل:استحبّوا
الهقعة ثم كرهوها. يقال: إن المهقوع لا يسبق أبداً. وكانوا يكرهون النّطيح، واللاّهز،
والقالع، وقيل: الناخس أيضاً. وما سوى هذه الدوائر فغير مكروه.
وقال ابن قتيبة: والدوائر ثماني عشرة دائرةً. تكره منها الهقعة وهي التي تكون في عرض
زوره، وقال: إنّ أبقى الخيل المهقوع. ودائرة القالع هي التي تكون تحت اللّبد. ودائرة
النّاخس هي التي تكون تحت الجاعرتين إلى الفائلين. ودائرة اللّطاة في وسط الجبهة، وليست

تكره إذا كانت واحدةً؛ فإذا كانت هناك دائرتان قالوا: فرس نطيحٌ؛ وذلك مكروه. وما
سوى هذه الدوائر غير مكروهة.
ومن الدوائر التي ذكرتها الهند في البركة والشؤم، قالوا: إذا كان في موضع حكمته دائرةٌ أو
على جحفلته العليا دائرةٌ كان ممّا يرتبط. وما كان منها ليس في وجهه ولا في صدره دارةٌ
فمكروه ارتباطه. وما كان في صدره دارةٌ إلى التّربيع، أو كان في رأسه دارتان، أو على
خاصرته أو على مذبحه دارة، أو في عنقه أو على خطمه أو على أذنه شعرٌ نابت كزهرة
النبات، كان ذلك مما يرتبط وتقضى عليه الحوائج، ويكون صاحبه مظفّراً في الحروب ولا
يرى في أموره إلاّ خيراً.
وذكروا أيضاً: أنه لا ينبغي أن يرتبط من الدّوابّ ما كان منها في مقدّم يده دارةٌ، وما كان
أسفل من عينيه دارة، أو في أصل أذنيه من الجانبين دارتان، أو على مأبضه دارة، أو على
محجره دارة، أو في خدّه أن في جحفلته السّفلى أو على ملتقى لحييه دارة، أو في بطنه شعر
منتشرٌ، أو على سرّته دارة، أو كانت أسنانه طالعةً على جحفلته، أو له سنّان ناتئان بمنزلة
أنياب الخنزير، أو في لسانه خطط سودٌ لا خضر، وما كان منها أدبس أو أبيض أو أصفر
أو أشهب تعلوه حمرةٌ وداخل جحافله ولهواته وخارج لححيته سواد، وما كان منها أدهم
وداخل جحافله أبيض، أو في لهواته وداخل شدقه نقطٌ سود وجحفلته خارجها منقّط
كحبّ السمسم، أو على منسجه دارتان، أو على خصييه وبرٌ أسود مخالفٌ للونه، أو كان
في جبهته شعراتٌ مخالفةٌ للونه، أو ما كان منها حين ينتج يرى خصياه ظاهرين، فهذه
العلامات زعم حنةً الهنديّ أنه لا ينبغي لأحد أن يرتبط دابةً بها شيءٌ منها. وزعم أنه
يستحبّ أن يربط ما كان في صدره أربع نقطٍ في أربعة مواضع، أو شعر ملتفّ عرضاً
وطولاً، أو شعر ملتو.

طبائعها

وعاداتها، والمحمود من صفاتها، ومحاسنها، والعلامات الدالّة على جودة الفرس ونجابته:
قالت العرب: والخيل نوعان: عتيقٌ وهو المسمى فرساً، وهجين وهو المسمّى برذوناً.

والفرق بينهما أنّ عظم البرذون أغلظ من عظم الفرس؛ وعظم الفرس أصلب وأثقل من
عظم البرذون؛ والبرذون أحمل من الفرس، والفرس أسرع من البرذون؛ والعتيق بمنزلة الغزال،
والبرذون بمنزلة الشاة.
وفي طبع الفرس: الزّهو، والخيلاء، والعجب، والسرور بنفسه، والمحبّة لصاحبه. وفي
طبعه: أنه لا يشرب الماء إلا كدراً، حتى إنه يرد الماء وهو صافٍ فيضرب بيده فيه حتى
يكدّره ويعكّره. وربما ورد الماء الصافي وهو عطشان فيرى خياله فيه فيتحاماه ويأباه،
وذلك لفزعه من الخيال الذي يراه في الماء. وهو يوصف بحدّة البصر. وفي طبعه: أنه متى
وطئ أثر الذئب خدرت قوائمه حتى لا يكاد يتحرّك، ويخرج الدّخان من جلده؛ وإذا وطئته
الأنثى وهي حامل أزلقت. والأنثى من الخيل تحمل سنةً كاملةً؛ هذا هو المعروف من
عادتها. وأخبرني بعض من أثق إلى قوله أنه كان يملك حجراً تحمل ثلاثة عشر شهراً.
وسمعت أن عند التّتر جنساً من خيلها تحمل الفرس منها تسعة أشهر وتضع. وقال لي
الناقل: إنّ هذا أمر مشهور عندهم معروف مألوف لا ينكرونه ولا يتعجبون.
فصل، والعلامات الجامعة لنجابة الفرس الدالّة على جودته، ما ذكره أيّوب ابن القرّيّة وقد
سأله الحجّاج عن صفة الجواد من الخيل فقال: القصير الثلاث، الطويل الثلاث، الرّحب
الثلاث، الصافي الثلاث. فقال: صفهنّ؛ فقال: أما الثّلاث الطّوال فالأذن والعنق والذّارع.
وأما الثلاث القصار فالظّهر والسّاق والعسيب. وأما الثلاث الرّحبة فالجبهة والمنخر
والجوف. وأما الثلاث الصافية فالأديم والعينان والحافر. وقد جمع بعض الشعراء ذلك في
بيت واحد فقال:
وقد أغتدي قبل ضوء الصّباح   وورد القطا في الغطاط الحثاث
بصافي الثّلاث عريض الثلاث   قصير الثلاث طويل الثلاث
وهذه الحكاية أيضاً نقلت عن صعصعة بن صوحان وقد سأله معاوية: أيّ الخيل أفضل؟
فقال: الطويل الثلاث، والعريض الثلاث، القصير الثلاث، الصافي الثلاث. قال معاوية فسّر لنا؛

قال: أما الطويل الثلاث فالأذن والعنق والحزام. وأما القصير الثلاث فالصّلب والعسيب
والقضيب. وأما العريض الثلاث فالجبهة والمنخر والورك. وأما الصافي الثلاث فالأديم والعين
والحافر.
وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه لعمرو بن معد يكرب: كيف معرفتك بعراب الخيل؟
قال: معرفة الإنسان بنفسه وأهله وولده؛ فأمر بأفراسٍ فعرضت عليه؛ فقال: قدّموا إليها
الماء في النّراس، فمن شرب ولم يكتف فهو من العراب، وما ثنى سنبكه فليس منها.
وقيل: أهدى عمرو بن العاص لمعاوية بن أبي سفيان ثلاثين فرساً من خيل مصر؛ فعرضت
عليه وعنده عتبة بن سفيان بن يزيد الحارثي؛ فقال له معاوية: كيف ترى هذه يا أبا
سفيان؟ فإن عمراً قد أطنب في وصفها؛ فقال: أراها يا أمير المؤمنين كما وصف؛ وإنها
لسامية العيون، لاحقة البطون؛ مصغية الآذان، قبأّء الأسنان؛ ضحام الرّكبات، مشرفات
الحجبات؛ رحاب المناخر، صلاب الحوافر؛ وضعها تحليل، ورفعها تقليل؛ فهي إن طلبت
سبقت، وإن طلبت لحقت. فقال معاوية: اصرفها إلى دارك، فإن بنا عنها غنىً، وبفتيانك
إليها حاجة.
وقال أبو عبيدة: يستدلّ على عتق الفرس برقّة جحافله وأرنبته، وسعة منخريه، وعرى
نواهقه، ودقّة حقويه وما ظهر من أعالي أذنيه، ورقّة سالفتيه وأديمه، ولين شعره؛ وأبين من
ذلك كلّه لين شكير ناصيته وعرفه.
وكانوا يقولون: إذا اشتدّ نفسه، ورحب متنفّسه، وطال عنقه، واشتدّ حقوه، وانهرت
شدقه، وعظمت فخذاه، وانشنجت أنساؤه، وعظمت فصوصه، وصلبت حوافره
ووقحت، لحق بجياد الخيل، والله أعلم.
ما يستحبّ من أوصافها
في الخلق
الأذن المؤللّة، والناصية المعتدلة التي ليست بسفواء ولا غمّاء.
والجبهة الواسعة، والعين
الطامحة السامية، والخدّ الأسيل، ورحب المنخرين، وهرت الشّدقين، قال الشاعر:
هريثٌ قصيرعذار اللّجام أسلٌ طويل عذار الرّسن

قوله: قصير عذار اللجام: لم يرد به قصر خدّه، وإنما أراد طول شق الفم. ويدلّ على ذلك
قوله في البيت:
أسيلٌ طويل عذار الرّسن
يريد طول خدّه، وقود العنق لينها حتى لا تكون جاسئةً، ورقّة الجحفلتين، وارتفاع الكتفين
والحارك والكاهل.
قالوا: ويستحبّ أن يشتدّ مركّب عنقه في كاهله لأنه يتساند إليه إذا أحضر، وعرض
الصدر، وضيق الزّور، وارتفاع اللسان، وأن يشتدّ حقوه لأنه معلّق وركيه ورجليه في
صلبه، وعظم جوفه وجنبيه، وانطواء كشحه، وإشراف القطاة، وقصر العسيب، وطول
الذنب، وشنج النّسا، وطول الفخذين، وتوتير الرّجلين حتى لا يكون أقسط، وتأنيف
العرقوبين حتى لا يكون أقمع، وغلظ الرّسغ، وأن تكون الحوافر صلاباً سوداً أو خضراً.
وحكي أن هارون الرشيد ركب في سنة خمس وثمانين ومائة إلى الميدان لشهود الحلبة، قال
الأصمعيّ: فدخلت الميدان لشهودها، فجاء فرس أدهم لهارون الرشيد سابقاً يقال له
الرّبد؛ فسرّ به الرشيد وابتهج وقال: عليّ بالأصمعيّ، فنوديت من كل جانب، فأقبلت
سريعاً حتى مثلت بين يديه؛ فقال: يا أصمعيّ، خذ بناصية الرّبد ثم صفه من قونسه إلى
سنبكه، فإنه يقال: إن فه عشرين اسماً من أسماءالطير؛
فقلت: نعم يا أمير المؤمنين،
وأنشدك شعراً جامعاً لها من قول أبي حزرة؛ قال: فأنشدنا لله أبوك!؛ فأنشدته:
وأقبّ كالسّرحان تمّ له ما بين هامته إلى النّسر
الهامة: أعلى الرأس. والنّسر: ما ارتفع من بطن الحافر من أعلاه. وهما من أسماء الطير.
رحبت نعامته ووفّر فرخه وتمكّن الصّردان في النّحر
النعامة: جلدة الرأس التي تغطّي الدّماغ. والفرخ: الدّماغ.
والصّردان: عرقان في أصل
اللسان، ويقال: إنهما عرقان يكتنفان باطن اللسان. وفي الظهر أيضاً صرد يكون في موضع
السّرج من أثر الدّبر. والنعامة والفرخ والصّردان من أسماء الطير.
وأناف بالعصفور في سعفٍ هامٍ أشمّ موثّق الجذر
العصفور: أصل منبت شعر الناصية، وهو أيضاً عظم ناتئ في كل جبين، وهو أيضاً من

الغرر. والسّعف: يقال: فرس أسعف إذا سالت ناصيته. وهام أي سائل. والشّمم: ارتفاع
قصبة الأنف. وموثق الجذر أي شديد. والجذر: الأصل من كل شيء.

وازدان بالدّيكين صلصله ونبت دجاجته عن الصّدر

الديكان: واحدهما ديك وهو العظم الناتئ خلف الأذن، وهو الذي يقال له الخشّاء
والخششاء. والصلصل: بياض في طرف الناصية، ويقال: هو أصل الناصية. والدّجاجة:
اللّحم الذي على زوره بين يديه. والدّيك والصّلصل والدّجاجة من الطير.

والنّاهضان أمرّ جلزهما فكأنما عثما على كسر

الناهضان: واحدهما ناهض، وهو لحم المنكبين، ويقال: هو اللحم الذي بلى العضدين من
أعلاهما. والناهض: فرخ العقاب. وقوله أمرّ جلزهما أي فتل وأحكم، يقال: أمررت الحبل
أي فتلته. والجلز: الشدّ. وقوله:
فكأنما عثما على كسر
أي كأنهما كسرا ثم جبرا. والعثم: الجبر على عقدة وعوج.

مسحنفر الجبين ملتئم ما بين شيمته إلى الغرّ

قوله: مسحنفر الجبين أين منتفخهما. ملتئم أي معتدل.
والشيمة: من قولك: فرس أشيم:
بيّن الشامة. والغرّ في الطير الأغلب الذي يسمّى الرّخمة. وهي من الفرس عضلة السّاق.

وصفت سماناه وحافره وأديمه ومنابت الشعر

السّماني: طائر وهو موضع من الفرس ربما أراد به السّمامة، وهي دائرة تكون في سالفة
الفرس. والسّمامة أيضاً من الطير. وأديمه: جلده.

وسما الغراب لموقعيه معاً فأبين بينهما على قدر

الغراب: رأس الورك، ويقال للصّلوين الغرابان، وهما مكتنفا عجم الذنب، ويقال: هما ملتقى
أعلى الوركين. والموقعان: ما في أعالي الخاصرتين. وقوله:
فأبين بينهما على قدر
أي فرّق بينهما على استواء واعتدال.

واكتنّ دون قبيحه خطّافه ونأت سمامته على الصّقر

قوله: واكتنّ أي استتر. والقبيح: ملتقى الساقين، ويقال: إنه مركّب الذراعين في العضدين.
والخطّاف: هو حيث أدركت عقب الفارس إذا حرّك رجليه؛ ويقال لهذين الموضعين من
الفرس المركلان. ونأت أي بعدت. والسّمامة: دائرة تكون في عنق الفرس. والصقر: دائرة
في الرأس. والخطّاف والسّمامة والصقر من أسماء الطير.

وتقدّمت عنه القطاة له فنأت بموقعها عن الحرّ
القطاة: مقعد الردف. والحرّ: سوادٌ في ظاهر أذني الفرس. وهما من الطير. يقال: إن الحرّ
ذكر الحمام.
وسما على نقويه دون حداته خربان بينهما مدى الشّبر
النّقوان: واحدهما نقو والجمع أنقاء، وهو عظم ذو مخّ. وعنى هاهنا عظام الوركين، لأن
الخراب هو الذي تراه مثل المدهن في ورك الفرس. وهو من الطير ذكر الحباري. والحدأة:
سالفة الفرس. وهي من الطير.
يدع الرّضيم إذا جرى فلقاً بتوائم كمواسم سمر
الرّضيم: الحجارة، يفلقها بتوائم أي بحوافره. والمواسم: جمع ميسم الحديد؛ أي أنها
كمواسم الحديد في صلابتها. وقوله: سمر أي لون الحافر. والحافر الأسمر هو الصّلب.
ركّبن في محض الشّوى سبط كفت الوثوب مشدّد الأسر
الشّوى هاهنا: القوائم، يقال: فرس محض الشّوى إذا كانت قوائمه معصوبة. سبط: سهل.
كفت الوثوب أي مجتمعٌ. مشدّد الأسر أي الخلق.
قال الأصمعيّ: فأمر لي بعشرة آلاف درهم.
فهذه جملٌ من أوصاف محاسنها. وسنذكر إن شاء الله تعالى ما وصفها به الشعراء في
أشعارها والفضلاء في رسائلها، على ما تقف على ذلك في موضعه. فلنذكر عيوب الخيل:
عيوبها
التي تكون في خلقتها،
وفي جريها، والتي تطرأ عليها وتحدث فيها، فهي مائة نذكرها:
فأما التي في خلقتها
فهي أن يكون الفرس أخذى وهو المسترخي أصول الأذنين.
وأمعر وهو الذي ذهب شعر
ناصيته. وأسفى وهو الخفيف الناصية، وهو محمود في البغال.
وأغمّ وهو الذي غطّت
ناصيته عينيه. وأسعف وهو الذي في ناصيته بياض. وأحول وهو الذي ابيضّ مؤخر
عينه وغار السّواد من قبل مآقيه. وأزرق وهو الذي في إحدى عينيه بياضٌ أو زرقة.
وأقنى وهو الذي في أنفه احديدابٌ. ومغرباً وهو الذي أشفار عينيه بيضٌ مع زرقتها.
وأدن وهو الذي اطمّأنّ عنقه من أصله. وأهنع وهو الذي اطمأنت عنقه من وسطها.
وأوقص وهو الذي في عنقه قصرٌ ويبس معطف. وأكتف وهو الذي في أعالي كتفيه انفراج.

وأزور وهو الذي تدخل إحدى فهدتي صدره وتخرج الأخرى.
وأقعص وهو المطمئن
الصّلب من الصهوة المرتفع القطاة. ومخطفاً وهو الذي الحق ما خلف محزمه من بطنه.
وأهضم وهو المستقيم الضلوع الذي دخلت أعاليه. وصقلاً وهو الطويل الصّقلة. وأثجل
وهو الذي خرجت خاصرته ورقّ صفاقه. وأفرق وهو الذي قد أشرفت إحدى وركيه
على الأخرى. وأرسح وهو قليل لحم الصّلا. وأعزل وهو الملتوي عسيب الذّنب حتى يبرز
بعض باطنه. وأكشف وهو الذي التوى عسيب ذنبه. وأصبغ وهو المبيضّ الذّنب.
وأشعل وهو الذي في عرض ذنبه بياض. وأشرج وهو الذي ببيضة واحدة. وأفحج وهو
الذي تباعد كعباه.وأبدّ وهو الذي تباعدت يداه، وأصكّ وهو الذي تصكّ كعباه إذا
مشى. وأحلّ وهو متمسّح النّسا رخو الكعب. وأقفد وهو المنتصب الرّسغ المقبل على
الحافر ويكون في الرّجل خاصّةً. وأصدف وهو الذي تدانى ذراعاه وتباعد حافراه.
وموجّهاً وهو الذي به صدفٌ يسير. وأقسط وهو الذي رجلاه منتصبتان غير منحنيتين.
وأمدش وهو المصطكّ بواطن الرّسغين. وأحنف وهو الملتوي الحافرين يقبل كلّ منهما على
صاحبه. ومتلقّفاً وهو الذي يخبط بيده. وأرجز وهو المضطرب الرّجل والكفل فإذا قام
اضطربت فخذه. وشختاً وهو القليل اللحم الحميش العظام. ورطلاً وهو الضعيف
الخفيف. مكبوناً وهو القصير الدّوارج القريب من الأرض الرحيب الجوف. وعشّاً وهو
الضاحي العظام لقلّة لحمه. وسغلاً وهو الصغير الجرم. قال الواسانيّ رحمه الله:

ليس بأسفي ولا أحقّ ولا أهضم طاوي الحشا ولا سغل

وجأباً وهو القصير الغليظ. وملواحاً وهو السريع العطش. وصلوداً وهو البطيء العرق.
وضاوياً وهو الذي أضواه أبواه. ومقرفاً وهو الذي أمّه عتيقه وأبوه غير عتيق. وهجيناً
وهو الذي أبوه عتيق وأمه برذونة. ومحمقاً وهو الذي لا ينتج منه إلا أحمق. وكوسيّاً وهو
الذي إذا جرى نكّس كالحمار. وجاسئاً وهو الذي ترى معاقده وفقار ظهره وعنقه جاسئةً
غير ليّنةٍ. والله أعلم.

وأما العيوب التي في جريها
فمنها: الطّموح وهو السامي ببصره صعداً. والمنكّس وهو الذي يطأطئ رأسه إذا
جرى. والمعتزم وهو الذي يجمح أحياناً. والجموح: الصّلب الرأس. والغرب: المدّاد
المرامي. والشّموس: الذي يمنع السرج والمسّ. والحرون: الذي إذا أدرّ جريه قام لا عن
كلال. والبالح إذا قطع جريه ضعفاً. والضّغن هو الذي يتلكأ في الحضر ويقصر عن الحران.
والحفّاش هو الذي يشبّ حضراً ثم يرجع القهقرى. والرّوّاغ هو الذي يحيد في حضره يميناً
وشمالاً. والفيوش هو الذي يظنّ يه الجري وليس عنده شيء منه. والحيوص وهو الذي
يعدل يميناً وشمالاً في استقامة حضره.
والمشتق هو الذي يدع طريقه ويعدل ثم يمضى على عدوله لا يروغ. والشّبوب: الذي يقوم
على رجليه ويرفع يديه. والعاجر والمعاجر: الذي يعجر برجليه كقماص الحمار. والعدوم
والعضوض: الذي يعضّ ما سايره. والشّادخ: يعدل عن طريقه ولا يبالي ما ركب. والجرور:
البطئ. والمنعثل: الذي يفرّق بين قوائمه فإذا رفعها فكأنما ينزعها من وحل يخفق برأسه ولا
تتبعه رجلاه. والمجربذ: الذي يقارب الخطو يقرّب سنابكه من الأرض ولا يرفعها رفعاً
شديداً. والمساعر: الذي يطيح قوائمه جميعاً متفرّقة ولا ضبر له. والمترادّ: الذي ينقص
حضره من ابتداء جريه. والفاتر إذا فتر في حضره ولم تساعده قوائمه على ما تطالبه
نفسه. والمواكل: الذي لا يسير إلا بسير غيره. والخروط: الذي يخرط رسنه عن رأسه.
والرّموح: الذي يرمح بإحدى رجليه. والضّروح: الذي يرمح بكلتيهما. قال: وهذه الزيادة
على الأربعة والعشرين إنما هي من سوء العادة وفساد الرياضة.
وأما العيوب التي تطرأ عليها وتحدث فيها
فمنها: الانتشار وهو انتفاخ العصب. والشّظى: تحرّك العظم اللّاصق بالرّكبة. والفتوق:
انفتاق من العصب على الأرضفة. والدّخس: ورم في أطرة الحافر. والزوائد: أطراف
عصب تفرّق عند العجاية وتنقطع عندها وتلصق بها. والعرن: جسوءٌ في رسغ الرّجل
خاصّة لشقاقٍ أو مشقة. والشّقاق: يصيبه في أرساغه وربما ارتفع إلى أوظفته، وهو تشقق

يصيبها، وتسمى الحلامة. والجرد، ما حدث في عرض عرقوبيه ظاهراً وباطناً من تزيد
وانتفاخ عصبٍ ويكون مع المفصل طولاً كالموزة. والملح: انفتاقٌ من العصب أسفل العرقوب
لمادّة تنصبّ إليه كالبلّوطة. والقمع: هو عظم قمعة العرقوب. والمشش: كلّ ما شخص في
الوظيف وله حجمٌ وليست له صلابة العظم. والارتهاش: أن يصكّ بعرض حافره عرض
عجايته من اليد الأخرى. والرّهصة: ما يصير في الحافر. والوجا: ما يصيب الحافر من
الخشونة. والرّقق: ضعفٌ ورقّة في الحافر. والنّملة: شقّ في الحافر من الأشعر إلى طرف
السّنبك. والسّرطان: داءٌ يأخذ في الرّسغ فيبّس عروقه حتى يقلب حافره. والعزل: أن
يعزل ذنبه في شقٍّ عادةً. والخقاق: صوت من ظبية الأنثى. والبجر: أن تكون الرّهابة غير
ملتئمةٍ فيعظم ما والاها من جلد السّرة.
وحيث ذكرنا العيوب فلنذكر الخيل النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.
أسماء خيل الرسول
أوّل فرس ملكه رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فرسٌ ابتاعه بالمدينة من رجل من بني
فزارة بعشر أواقٍ، وكان اسمه عند الأعرابيّ الضّرس فسمّاه النبيّ صلى الله عليه وسلم
السّكب. فكان أوّل ما غزا عليه أحداً، ليس مع المسلمين فرسٌ غيره وفرس لأبي بردة بن
نيار يقال له ملاوح. وكان السّكب كميتاً أغرّ محجلاً مطلق اليمنى، وقيل: إنه أدهم. رواه
الطّبراني في المعجم الكبير.
وعن عمارة بن خزيمة الأنصاريّ أن عمّه حدّثه، وهو من أصحاب النبيّ صلى الله عليه
وسلّم، : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ابتاع فرساً من أعرابيّ، فاستتبعه النبيّ صلى الله
عليه وسلم ليقبضه ثمن فرسه، فأسرع النبيّ صلى الله عليه وسلم المشي وأبطأ الأعرابيّ؛
فطفق رجالٌ يعترضون الأعرابيّ فيساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبيّ صلى الله عليه
وسلم ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابيّ في السّوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه به النبيّ
صلى الله عليه وسلّم؛ فنادى الأعرابيّ النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: إن كنت مبتاعاً

هذا الفرس فابتعه وإلا بعته؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلّم: "بلى قد ابتعته"؛ فطفق
الناس يلوذون بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وبالأعرابيّ وهما يتراجعان، وطفق الأعرابيّ
يقول: هلم شهيداً يشهد أني قد بايعتك فمن جاء من الناس قال للأعرابي ويلك! إن النبيّ
صلى الله عليه وسلم لم يكن ليقول إلا حقاً! حتى جاء خزيمة بن ثابت فأسمع لمراجعة
النبيّ صلى الله عليه وسلم ومراجعة الأعرابيّ؛ فطفق الأعرابيّ يقول: هلمّ شهيداً يشهد
أني قد بايعتك؛ فقال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنك قد بايعته. فأقبل النبيّ صلى الله عليه
وسلم على خزيمة فقال: "بم تشهد؟" فقال: بتصديقك يا رسول الله؛ فجعل النبيّ صلى الله
عليه وسلم يقول: "شهادة خزيمة بن ثابت بشهادة رجلين".
وفي لفظ: فقال خزيمة بن ثابت:
أنا أشهد أنه قد باعك الفرس يا رسول الله؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "وهل
حضرتنا يا خزيمة؟" فقال: لا؛ فقال: "فكيف شهدت بذلك"؛ فقال خزيمة: بأبي أنت
وأمّي! يا رسول الله، أصدّقك على أخبار السماء وما يكون في غدٍ ولا أصدّقك في
ابتياعك هذا الفرس!. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إنك لذو الشهادتين يا خزيمة".
وقد اختلف في اسم هذا الفرس، فقال محمد بن يحيى ين سهل بن أبي حثمة: هو المرتجز؛
وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه المرتجز. قال ابن الأثير: وكان أبيض. وقال ابن قتيبة
في المعارف: المرتجز، وفي أخرى: الطّرف، وفي أخرى: النّجيب.
ومنها البحر، وهو الذي سبق الخيل لمّا سابق به رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فسمّاه
البحر في ذلك اليوم. وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم قد اشتراه من تجر قدموا من اليمن،
فسبق عليه مرّات. قال ابن الأثير: وكان كميتاً، وقيل: كان أدهم.
ومنها سبحة، ذكرها ابن بنين فقال: وكانت فرساً شقراء ابتاعها النبيّ صلى الله عليه
وسلم من أعرابيّ من جهينة بعشر من الإبل، وسابق عليها يوم خميسٍ ومدّ الحبل بيده ثم
خلّى عنها وسبح عليها؛ فأقبلت الشقراء حتى أخذ صاحبها العلم وهي تنبّر في وجوه

الخيل؛ فسمّيت سبحة. وسبحة من قولهم: فرس سابح إذا كان حسن مدّ اليدين في
الجري. وسبح الفرس: جريه.
ومنها ذو اللّمة، ذكره ابن حبيب في أفراس النبيّ صلى الله عليه وسلم.
ومنها ذو العقّال، قال بعض العلماء: كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم فرس يقال له ذو
العقّال. وكان له صلّى الله عليه وسلّم فرس يقال له اللّحيف وقيل: اللّخيف بالخاء، وقيل
فيه: النّحيف. أهداه له فروة بن عمرو من أرض البلقاء، وقيل: أهداه له ابن أبي البراء،
وكان صلى الله عليه وسلم يركبه في مذاهبه. وسمّي اللّحيف لطول ذنبه.
وروى ابن منده من حديث عبد المهيمن بن عباس بن سهل عن أبيه عن جدّه قال: كان
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أفراس يسميهنّ: اللّزاز واللّحيف والظّرب. فأمّا لزاز
فأهداه له المقوقس. وأما اللّحيف فأهداه له ربيعة بن أبي البراء، فأثابه عليه فرائض من
نعم بني كلب. وأما الظّرب فأهداه له فروى بن عمرو بن النافرة الجذاميّ. الظّرب واحد
الظّرب وهو الرّوابي الصغار. وسمّي به لكبره وسمنه، وقيل: لقوّته وصلابة حافره.
وأهدى تميمُ الدّاريّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فرساً يقال له الورد؛ فأعطاه عمر؛
فحمل عليه عمر رضي الله عنه في سبيل الله.
وذكر عليّ بن محمد بن حنين بن عبدوس الكوفيّ في أسماء خيل النبيّ صلى الله عليه
وسلم قال: وكانت له أربعة أفراس: أحدها يقال له السّكب والمرتجز والسّجل والبحر.
وقال ابن الأثير: وكان له أفراس: المرتجز وذو العقّال والسّكب واللّحيف واللّزاز والظّرب
وسبحة والبحر والشّحاء بالشين المعجمة والحاء المهملة.
وحكى ابن بنين عن ابن خالويه قال: كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم من الخيل: سبحة
واللّحيف ولزاز والظّرب والسّكب وذو اللّمّة والسّرحان والمرتجل والأدهم والمرتجز. وذكر
في موضع آخر: وملاوح والورد واليعسوب.
وذكر قاسم بن ثابت في كتاب الدلائل:ا ليعسوب واليعبوب فرسين لرسول الله صلى الله
عليه وسلم. وذكر ابن سعد في وفادات العرب عن محمد بن عمر قال: حدّثني أسامة بن

زيد عن زيد بن طلحة التّيميّ قال: قدم خمسة عشر رجلاً من الرّهاويين وهو حيّ من
مذحج على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلوا دار رملة بنت الحارث؛ فأتاهم رسول
الله صلى الله عليه وسلم فتحدّث عندهم طويلاً؛ فأهدوا لرسول الله صلى الله عليه
وسلم هدايا، منها فرس يقال له المراوح؛ فأمر به فشوّر بين يديه فأعجبه؛ فأسلموا وتعلّموا
القرآن والفرائض؛ وأجازهم كما يجيز الوفد: أرفعهم ثنتي عشرة أوقية ونشّاً وأخفضهم
خمس أواق.
فقد ظهر من مجموع هذه الروايات أن خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تسعة
عشر فرساً، وهي: السّكب والمرتجز والبحر وسبحة وذو اللّمّة وذو العقّال واللّحيف، وقيل
فيه بالخاء المعجمة، وقيل: النحيف بالنون، واللّزاز والظّرب والورد والسّجل والشّحاء
والسّرحان والمرتجل والأدهم وملاوح واليعسوب واليعبوب والمراوح. وقد يكون الأدهم هو
السكب أو البحر، فتكون ثمانية عشر فرساً. والله عز وجل أعلم.
الخيل المشهورة عند العرب
من أقدم خيل العرب زاد الرّاكب؛ وكان من خيل سليمان بن داود عليهما السلام.
وحكى محمد بن السائب الكلبيّ: أن الصافنات الجياد المعروضة على سليمان ابن داود
صلى الله عليهما وسلم كانت ألف فرس ورثها عن أبيه؛ فلما عرضت عليه ألهته عن
صلاة العصر حتى توارت الشمس بالحجاب، فردّها وعرقبها إلاّ أفراساً لم تعرض عليه؛
فوفد عليه قوم من الأزد، وكانوا أصهاره، فلما فرغوا من حوائجهم قالوا: يا نبيّ الله، إنّ
أرضنا شاسعة فزوّدنا زاداً يبلّغنا؛ فأعطاهم فرساً من تلك الخيل وقال: إذا نزلتم منزلاً
فاحملوا عليه غلاماً واحتطبوا، فإنكم لا تورون ناركم حتى يأتيكم بطعام؛ فساروا بالفرس،
فكانوا لا ينزلون منزلاً إلا ركبه أحدهم للقنص، فلا يفلت شيءٌ تقع عينه عليه من ظبي أو
بقرة أو حمار، إلى أن قدموا بلادهم؛ فقالوا: ما لفرسنا هذا اسم غلا زاد الراكب فسمّوه
به. فأصل فحول العرب من نتاجه. ويقال: إن أعوج منها. قال امرؤ القيس:

إذا ما ركبنا قال ولدان أهلنا تعالوا إلى أن يأتي الصيد نحطب
وقال عمارة:
وأرى الوحش عن يميني إذا ما كان يوماً عنانه في شمالي
ومن خيل العرب المشهورة ما حكاه أبو عليّ الحسن بن رشيق الأزديّ في كتابه المترجم
بالعمدة عن ابن حبيب عن أبي عبيدة قال: الغراب والوجيه ولاحق والمذهب ومكتوم
كانت كلُّها لغنيّ.
وقال أحمد بن سعد الكاتب: كان أعوج أوّلاً لكندة، ثم أخذته سليم، وصار لبني عامر
ثم لبني هلال. قال ابن حبيب: ركب رطباً فأعوجّت قوائمه، وكان من أجود خيل
العرب. وأمّه سبل لغنيّ. وأمّ سبل سوادة. وأم سوادة القسامة، وكانت لجعدة.
وحكى أحمد بن محمد بن عبد ربّه صاحب العقد في كتابه: أنه لما أنتجته أمّه ببعض
بيوت الحيّ نظروا إلى طرف يضع جحفلته على كاذتها على الفخذ مما يلي الحياء؛ فقالوا:
أدركوا ذلك الفرس لا ينزو فرسكم؛ لعظم أعوج وطول قوائمه؛ فقاموا إليه فإذا هم بالمهر؛
فسموه أعوج. ولهم أيضاً الفيّاض.
قال ابن سعد: الوجيه ولاحق لبني أسد، وقيد وحلاّب لبني تغلب، والصّريح لبني نهشل،
وزعم غيره أنه كان لآل المنذر، وجلوى لبني ثعلبة بن يربوع، وذو العقّال لبني رياح بن يربوع،
وهو أبو داحسٍ. وكان داحسٌ والغبراء لبني زهير. والغبراء خالة داحس وأخته من
أبيه. وذو العقّال وقرزل والخطّار والحنفاء لحذيفة بن بدر. والحنفاء هي أخت داحس من
أبيه وأمه. وقرزل آخر للطّفيل بن مالك. وحذفة لخالد بن جعفر بن كلاب. وحذفة أيضاً
لصخر بن عمرو بن الشّريد. والشّقراء لزهير بن جذيمة العبسيّ. والزّعفران لبساطم بن
قيس. والوريعة ونصاب وذو الخمار لمالك بن نويرة. والشّقراء أخرى لأسيد بن حنّاءة.
والشّيّط لأنيف بن جبلة الضّبّيّ. والوحيف لعامر بن الطّفيل. والكلب والمزنوق والورد له
أيضاً. وخنثى لعمرو بن عمرو بن عدس. والهدّاج فرس الرّيب ابن شريق السّعدي وجزة
فرس يزيد بن سنان المريّ فارس غطفان. والنّعامة للحارث بن عباد. وابن النّعامة لعنترة.

والنّحّام فرس للسّليك ابن السّلكة السّعديّ. والعصا فرس جذيمة بن مالك الأزديّ.
والهراوة لعبد القيس بن أفصى. واليحموم فرس النّعمان بن المنذر. وكامل فرس زيد
الخيل. والزّبد فرس الحوفزان وهو أبو الزّعفران فرس بسطام. والحمالة فرس الكلحبة
اليربوعي. هذا ما أورده أحمد بن سعد.
وقال ابن دريد: القطيب والبطين فرسان كانا للعرب. واللعّاّب والعباية فرسا حرّيّ بن
ضمرة. والمدعاس فرس النّوّاس بن عامر المجاشعي. وصهبى فرس النّمر بن تولب. وحافل
فرس مشهور. والعسجدي لبني أسد. والشّموس فرس يزيد بن خذّاق العبديّ. الضّيف
لبني تغلب. وهراوة العزّاب فرس الرّيّان بن حويص العبديّ، يقال إنها جاءت سابقةً طول
أربع عشرة سنة، فتصدّق بها على العزّاب يتكسّبون عليها في السّباق والغارات. والحرون
فرس تنسب إليه الخيل، وكان لمسلم بن عمرو بن أسد الباهليّ. والزائد فرس مشهور وهو
من نسل الحرون. ومناهب فرس تنسب إليه الخيل أيضاً، قال الشّمردل:

تلقى الجياد المقربات فينا لأفحلٍ ثلاثةٍ ينمينا
مناهباً والضّيف والحرونا

والعلهان فرس أبي مليلٍ عبد الله بن الحارث اليربوعي.
هذا ما اتفق إيراده من أسماء كرام الخيل ومشهورها. فلنذكر ما ورد في أوصافها
وتشبيهها.

أوصاف الخيل وتشبيهها

أوّل من شبّه الفرس بالظبي والسّرحان والنّعامة، ثم اتّبعه الشعراء وحذوا مثاله واقتدوا
به، هو امرؤ القيس بن حجر حيث قال:

له أيطلا ظبيٍ وساقا نعامةٍ وإرخاء سرحانٍ وتقريب تتفل
كأنّ على المتنين منه إذا انتحى مداك عروسٍ أو صراية حنظل
مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معاً كجلمود صخرٍ حطّه السّيل من عل
دريرٍ كخذروف الوليد أمرّه تقلّب كفّيه بخيطٍ موصّل
كميتٍ يزلّ اللّبد عن حال متنه كما زلّت الصّفواء بالمتنزّل

وقال أيضاً:

وأركب في الرّوع خيفانةً كسا وجهها سعفٌ منتشر
لها حافرٌ مثل قعب الولد ركّب فيه وظيفٌ عجر
لها عجزٌ كصفاة المسي ل أبرز عنها حجافٌ مضرّ
لها ذنبٌ مثل ذيل العرو س تسدّ به فرجها من دبر

لها جبةٌ كسراة المجن حذّفه الصانع المقتدر
إذا أقبلت قلت دبّاءة من الخضر مغموسةٌ في الغدر
وإن أغرضت قلت سرعوفةٌ لها ذنبٌ خلفها مسبطرّ
وإن أدبرت قلت أثفيّةٌ ململمةٌ ليس فيها أثر

وقال أبو داود الإيادي يصف فرساً:

له ساقا ظليمٍ خا ضبٍ فوجئ بالرّعب
حديد الطّرف والمنك ب والعرقوب والقلب

وقال آخر:

له صدر طاوسٍ وفخذ نعامةٍ ووثبة نمرٍ والتفات غزال
وأعجب من ذا كلما حطّ حافراً يخطّ هلالاً من وراء هلال

وقال البحتريّ وكان وصّافاً للخيل:

وأغرّ في الزمن البهيم محجّلٍ قد رحت منه على أغرّ محجّل
كالهيكل المبنيّ إلا أنه في الحسن جاء كصورة في هيكل
ذنبٌ كما سحب الرّداء يذبّ عن عرفٍ، وعرفٌ كالقناع المسبل
جذلان ينفض عذرةً في غرّةٍ يققٍ تسيل حجولها في جندل
كالرائح النّشوان أكثر مشيه عرضاً على السّنن البعيد الأطول
تتوهّم الجوزاء في أرساغه والبدر غرّة وجهه المتهلّل
صافي الأديم كأنّما عنيت به لصفاء نقبته مداوس صيقل
وكأنما نفضت عليه صبغها صهباء للبردان أو قطربّل
وتخاله كسي الخدود نواعماً مهما تواصلها بلحظٍ تخجل
وتراه يسطع في الغبار لهيبه لوناً وشداً كالحريق المشعل
هزج الصّهيل كأنّ في نغماته نبرات معبد في الثّقيل الأوّل
ملك العيون فإن بدا أعطينه نظر المحبّ إلى الحبيب المقبل

وكتب إلى محمد بن حميد بن عبد الحميد الطّوسيّ يستهديه فرساً، ووصف له أنواعاً من الخيل، فقال من أبيات:

فأعن على غزو العدّ بمنطوٍ أحشاؤه طيّ الرّداء المدرج
إمّا بأشقر ساطع أغشى الوغى منه بمثل الكوكب المتأجّج
متسربلٍ شيةً طللت أعطافه بدمٍ فما تلقاه غير مضرّج
أو أدهم صافي الأديم كأنه تحت الكمى مظهر بيرندج
خفّت مواقع وطئه فلو أنّه يجري برملة عالج لم يرهج
أو أشهبٍ يققٍ يضيء وراءه متنٌ كمتن اللّجّة المترجرج
تخفى الحجولُ ولو بلغن لبانه في أبيضٍ متألقّ كالدّملج
أوفى بعرفٍ أسودٍ متفرّدٍ فيما يليه وحافرٍ فيروزجي
أو أبلقٍ ملأ العيون إذا بدا من كلّ لونٍ معجب بنموذج
جذلان تحسده الجياد إذا مشى عنقاً بأحسن حلّةٍ لم تنسج
وعريض أعلى المتن لو علّيته بالزّئبق المنهال لم يتدحرج
خاضت قوائمه الوثيق بناؤها أمواج تحنيب بهنّ مدرّج
ولأنت أبعد في السماحة همّةً من أن تضنّ بملجمٍ أو مسرج

وقال أيضاً يصف فرساً أدهم:

بأدهم كالظلام أغرّ يجلو بغرّته دياجير الظلام
ترى أحجاله يصعدن فيه صعود البرق في جون الغمام
وقال أيضاً في أدهم:
ضرم يهيج السوط من شؤبوبه هيج الجنائب من حريق العرفج
أمّا الجواد فقد بلونا يومه وكفى بيومٍ مخبراً عن عامه
جارى الجياد فطار عن أوهامها سبقاً وكاد يطير عن أوهامه
جذلان تلطمه جوانب غرّةٍ جاءت مجيء البدر عند تمامه
واسودّ ثم صفت لعيني ناظرٍ جنباته فأضاء في إظلامه
مالت نواحي عرفه فكأنها عذبات أثل مال تحت حمامه
ومقدّم الأذنين تحسب أنّه بهما يرى الشخص الذي لأمامه
وكأن فارسه وراء قذاله ردفٌ فلست تراه من قدّامه
لانت معاطفه فخيّل أنه للخيزران مناسبٌ لعظامه
في شعلةٍ كالشّيب مرّ بمفرقي غزلٍ لها عن شيبه بغرامه
وكأن صهلته إذا استعلى بها رعدٌ يقعقع في ازدحام غمامه
مثل الغراب غدا يباري صحبه بسواد صبغته وحسن قوامه
والطّرف أجلب زائرٍ لمؤونةٍ ما لم تزره بسرجه ولجامه
وقال عليّ بن الجهم:
فوق طرفٍ كالطّرف في سرعة الطّر ف وكالقلب قلبه في الذكاء
لا تراه العيون إلاّ خيالاً وهو مثل الخيال في الانطواء
وقال العباس بن مرداس:
جاء كلمع البرق سمام ناظره تسبح أولاه ويطفو آخره
فما يمسّ الأرض منه حافره
وقال أبو الطيّب المتنبيّ:
وجرداً مددنا بين آذانها القنا فبتن خفافاً يتّبعن العواليا
تماشي بأبدٍ كلّما وافت الصّفا نقشن به صدر البزاة حوافيا
وينظرن من سودٍ صوادق في الدّجى يرين بعيدات الشّخوص كما هيا
وتنصب للجرس الخفيّ سوامعاً يخلن مناجاة الضمير تناديا
تجاذب فرسان الصّباح أعنةً كأن على الأعناق منها أفاعيا
وقال أيضاً:
وجيادٍ يدخلن في الحرب أعرا ءً ويخرجن من دمٍ في جلال
واستعار الحديد لوناً وألقى لونه في ذوائب الأطفال
وقال أبو الطيّب أيضاً:
ويومٍ كليل العاشقين كمنته أراقب فيه الشمس أيان تغرب
وعينيَ على أذني أغرّ كأنّه من الليل باقٍ بين عينيه كوكب
له فضلةٌ عن جسمه في إهابه تجيء على صدرٍ رحيبٍ وتذهب
شققت به الظّلماء أدني عنانه فيطغى وأرخيه مراراً فيلعب
وأصرع أيّ الوحش قفّيته به وأنزل عنه مثله حين أركب
وقال أيضاً يصف فرساً:

إن أدبرت قلت لا تليل لها وأقبلت قلت ما لها كفل

وقال أبو الفرج الببّغاء:

إن لاح قلت أدميةٌ أم هيكل أو عنّ قلت أسابح أم أجدل
تتخاذل الألحاظ في إدراكه ويحار فيه الناظر المتأمّل
فكأنّه في اللطف فهمٌ ثاقبٌ وكأنه في الحسن حظٌّ مقبل

وقال أيضاً من أبيات:

رماهم بألحاظ الجياد ولم تكن لينأى عليها المنزل المتباعد
من اللّلاء يهجرن المياه لدى السّرى ويعتضن شمّ الجوّ والجوّ راكد
مرنّ على لذع القنا فكأنما عليهن من صبغ الدّماء مجاسد
نسجن ملاء النّقع ثم خرقنه بكرٍّ لها منه إلى النصر قائد
عليهنّ من نسج الغبار غلائلٌ رقاقٌ ومن نضح الدماء قلائد

وقال أبو الفتح كشاجم:

ماءٌ تدفّق طاعةً وسلاسةً فإذا استدرّ الحضر منه فنار
وإذا عطفت به على ناورده لتديره فكأنه بركار
قصرت قلادة نحره وعذاره والرّسغ، وهي من العتيق قصار
يرد الصّحاضح غير ثانٍ سنبكاً ويرود طرفك خلفه فيحار
لو لم تكن للخيل نسبةً خلقه خالته من أشكالها الأطيار

وقال آخر:

وأقبّ تحمله رياحٌ أربعٌ لولا اللّجام لطار في الميدان
من جملة العقبان إلاّ أنه من حسنه في طلعة الغزلان
يمشي إلى ميدانه متبختراً من تيهه كتبختر النّشوان

وقال ابن المعتزّ:

وخيلٍ طواها القود حتى كأنّها أنابيب سمرٌ من قنا الخطّ ذبّل
صببنا عليها ظالمين سياطنا فطارت بها أيدٍ سراعٌ وأرجل

وقال أبو بكر الصّنوبري:

طرفٌ نأت سماؤه عن أرضه وما نأى كاهله عن الكفل
ذو أربعٍ من أربعٍ من القبو ل والدّبور والجنوب والشّمل
وهو إذا أعملها ألفى لها فوق الذي يطلبه من العمل
كالبرق إن أومض أو كالرّعد إن أجلب أو صوب الحيا إذا احتمل

وقال آخر:

يجري فيبعد من مدىً متقاربٍ أبداً ويدنو من مدىً متباعد
إن سار فهو غدير ماءٍ مائجٍ أو قام فهو غدير ماءٍ جامد

وقال أبو الفضل الميكالي:

خير ما استطرف الفوارس طرفٌ كلّ طرف بحسنه مبهوت
هو فوق الجبال وعلٌ وفي السه ل نعامٌ وفي المعابر حوت

وقال آخر:

وطرفٍ إذا ما جرى خلته عقاباً من الوكر يبغي المزارا
ترى في الجبين له سوسناً وتلمح في لونه الجلّنارا
ويمشي على الماء من خفّةٍ ويقدح في الجلمد الصخر نارا

فلو كان يبغي به راكبٌ إلى مطلع الشمس سيراً لطارا

وقال عبد الجبّار بن حمديس:

ومجرّرٍ في الأرض ذيل عسيبه حمل الزبرجد منه جسم عقيق
يجري ولمع البرق في آثاره من كثرة الكبوات غير مفيق
ويكاد يخرج سرعةً من ظلّه لو كان يرغب في فراق رفيق

وقال ابن طباطبا:

عجباً لشمسٍ أشرقت في وجهه لم تمح منه دجى الظلام المطبق
وإذا تمطّر في الرّهان رأيته يجري أمام الريح مثل مطرّق

وقال تاج الملوك بن أيّوب:

وخيل كأمثال السّعالي شوازب تكاد بنا قبل المجال تجول
سوابق تكبو الريح قبل محاقها لها مرحٌ من تحتنا وصهيل

وقال إبراهيم بن خفاجة يصف فرساً أشهب:

ربّ طرفٍ كالطّرف ساعة عدوٍ ليس يسري سراه طيف الخيال
إن سرى في الدّجى فبعض الدّراري أو سعى في الفلا فإحدى السّعالي
لست أدري إن قيد ليلة أسرى أو تمطّيته غداة قتال
أجنوبٌ تقتاد لي أم جنيبٌ أم شمالٌ عنانها بشمالي
أشهب اللّون أثقلته حليٌّ خب فيهن وهو ملقى الجلال
فبدا الصبح ملجماً بالثّريّا وجرى البرق مسرجاً بالهلال

وقال أيضاً في أشهب:

وظلام ليلٍ لا شهاب بأفقه إلاّ لنصل مهنّدٍ أو لهذم
لاطمت لجّته بموجة أشهبٍ يرمى بها بحر الظلام فيرتمى
قد سال في وجه الدّجنّة غرّةً فالليل في شبه الأغرّ الأدهم
أطلعت منه ومن سنانٍ أزرقٍ ومهنّدٍ عضبٍ ثلاثة أنجم

وقال أبو الصّلت يصف فرساً أشهب:

وأشهبٍ كالشّهاب أضحى يجول في مذهب الجلال
قال حسودي وقد رآه يجنب خلفي إلى القتال
من ألجم الصبح بالثريّا وأسرج البرق بالهلال

وقال ابن خفاجة وقد أهدى مهراً بهيماً:

تقبّل المهر من أخي ثقةٍ أرسل ريحاً به إلى المطر
مشتملاً بالظلام من شيةٍ لم يشتمل ليلها على سحر
منتسباً لونه وغرّته إلى سواد الفؤاد والبصر
تحسبه من علاك مسترقاً بهجة مرأىً وحسن مختبر
حنّ إلى راحةٍ تفيض ندىً فمال ظلّ به على نهر
ترى به والنشاط يحفزه ما شئت من فحمةٍ ومن شرر
لو حمل الليل حسن دهمته أمتع طرف المحبّ بالسّهر
أحمى من النجم يوم معركةٍ ظهراً وأجرى به من القدر
اسودّ، وابيضّ فعله كرماً فالتفت الحسن فيه عن حور
فازدد سنا بهجةٍ بدهمته فاللّيل أذكى لغرّة القمر

ومثل شكري على تقبّله يجمع بين النسيم والزّهر

وقال في فرس أشقر:

ومطهّم شرق الأديم كأنما ألفت معاطفه النجيع خضابا
طربٌ إذا غنّى الحسام، ممزّقٌ ثوب العجاجة جيئةً وذهابا
قدحت يد الهيجاء منه بارقاً متلهّباً يزجي القتام سحابا
ورمى الحفاظ به شياطين العدا فانقضّ في ليل الغبار شهابا
بسّام ثغر الحلى تحسب أنّه كأسٌ أثار بها المزاج حبابا

وقال في أدهم أغرّ محجّل:

وكأنما لطم الصباح جبينه فاقتصّ منه فخاض في أحشائه

وقال ابن نباتة السّعدي في أدهم:

وأدهم يستمدّ الليل منه وتطلع بين عينيه الثريّا
سرى خلف الصباح يطير مشياً ويطوى خلفه الأفلاك طيّا
فلمّا خاف وشك الفوت منه تعلّق بالقوائم والمحيّا

وقال في فرس أدهم أغرّ محجّل أهدي له:

قد جاءنا الطّرف الذي أهديته هاديه يعقد أرضه بسمائه
أولايةً ولّيتنا فبعثته رمحاً سبيب العرف عقد لوائه
تختال منه على أغرّ محجّل ماء الدّياجي قطرةٌ من مائه
وكأنما لطم الصباح جبينه فاقتصّ منه فخاض في أحشائه
متمهّلاً والبرق من أسمائه متبرقعاً والحسن من أكفائه
ما كانت النيران يكمن حرّها لو أن للنيران بعض ذكائه
لا تعلق الألحاظ في أعطافه إلا إذا كفكفت من غلوائه

وقال محمد بن الحسين الفارسيّ النحويّ أحد شعراء اليتيمة في فرس أدهم أغرّ:

ومطهّم ما كنت أحسب قبله أنّ السروج على البوارق توضع
وكأنما الجوزاء حين تصوّبت لببٌ عليه والثريّا برقع

طرائف في ذم الخيل
بالهزال والعجز عن الحركة

كتب بعضهم إلى صديق له:

ما فعلت حجرك تلك التي أفضل من فارسها الرّاجل
عهدي بها تبكي وتشكو الضنى لما احتشاه البدن الناحل

وهي تغنّيني غنا صبّةٍ غايتها وجدان ما تأكل:

يارب لا أقوى على كلّ ذا موتٌ وإلاّ فرجٌ عاجل

وقال آخر:

يا نصر حجرك أبلى الجوع جدّتها وأصبحت شبحاً تشكو تجافيكا
إذا رأت تبنةً قالت مجاهرةً يا تبن لي حسرةٌ ما تنقضي فيكا
ترجوه طوراً وتبكي منه آيسة حتى إذا عرضت باتت تغنّيكا:
هذي، فديتك، حالي عد علمت بها فلم يكون الجفا أفديك أفديكا

وقال آخر:

أعطيتني شهباء مهلوبةً تذكر نمروذ بن كنعان

سفينة الحشر إلى عدوها أسبق من أشقر مروان
كأنني منها على زورقٍ بلا مجاديف وسكّان
فانظر إلى حجري ترى شهرةً أخبارها جامع سفيان
وقال آخر:
حملتني فوق مقرفٍ زمنٍ ليس لذي رحلة بنفّاع
جلدُ على أعظمٍ محلّلةٍ فليس يمشي إلاّ بدفّاع
كأنني إذ علوت صهوته ركبت منه سرير فقّاع
وكتب زهير بن محمد الكاتب:
وفرسٍ على المسا وي كلّها محتويه
راكبها في حجلة كأنه في مخزيه
مستقبحاً ركوبها مثل ركوب المعصيه
فما مساويها لمن عدّدها مستويه
يا قبحها مقبلةً وقبحها مولّيه
وقال برهان الدين ابن الفقيه نصر:
لصاحب الديوان برذونةٌ بعيدة العهد من القرط
إذا رأت خيلاً على مربطٍ تقول سبحانك يا معطي
تمشي إلى خلف إذا ما مشت كأنها تكتب بالقبطي
هذا ما اتّفق إيراده مما قيل في أوصاف الخيل من النظم.
فلنذكر ما وصفت به في الرسائل
المنثورة، والفقر المسجوعة، والألفاظ المزدوجة؛ مع ما يتصل بذلك من الأبيات في ضمنها.
فمن ذلك ما حكي أن المهديّ سأل مطر بن درّاج عن أيّ الخيل أفضل؛ فقال: الذي إذا
استقبلته قلت نافر، وإذا استدبرته قلت زاخر، وإذا استعرضته قلت زافر. قال: فأي هذه
أفضل؟ قال: الذي طرفه إمامه، وسوطه عنانه.
ومن هذا أخذ المتنبي وعليّ بن جبلة والعسكريّ. فقال المتنبي:
إن أدبرت قلت لا تليل لها
وقد تقدّم.
وقال عليّ بن جبلة:
تحسبه أقعد في استقباله حتى إذا استدبرته قلت أكبّ
وقال أبو هلال العسكريّ:
طرفٌ إذا استقبلته قلت حبا حتى إذا استدبرته قلت كبا
ووصف أعربيّ فرساً أجري في حلبة فقال لما أرسلت الخيل:
جاءوا بشيطان، في
أشطان؛ فأرسلوه فلمع لمع البرق، واستهلّ استهلال الودق؛
فكان أقرب الخيل إليه، تقع عينه
من بعدٍ عليه.
ووصف محمد بن الحسين بن الحرون فرساً فقال: هو حسن القميص، جيّد الفصوص؛
وثيق القصب، نقيّ العصب؛ يبصر بأذنيه، ويتبوّع بيديه، ويداخل رجليه.

ووصف أخر فرساً فقال: الريح أسيرة يديه، والظّليم فريسة رجليه؛ إن حرّ استعر في
التهابه، وإن جدّ مرق من إهابه.
وكتب عبد الله بن طاهر إلى المأمون مع فرس أهداه إليه: قد بعثت إلى أمير المؤمنين فرساً
يلحق الأرنب في الصّعداء، ويجاوز الظباء في الاستواء، ويسبق في الحدور جري الماء؛ إن
عطف حار، وإن أرسل طار؛ وإن حبس صفن، وإن استوقف فطن؛ فهو كما قال تأبّط
شرّاً:

ويسبق وفد الريح من حيث ينتحى بمنخرقٍ من شدّه المتتابع

ووصف آخر فرساً فقال: كأنه إذا علا دعاء، وإذا هبط قضاء. كأنه محلولٌ من قول
الشاعر في صفة فرس:

مثل دعاء مستجابٍ إن علا أو كقضاءٍ نازلٍ إذا هبط

ووصف أيّوب بن القرّيّة فرساً فقال: أسيل الخدّ، حسن القدّ؛ يسبق الطّرف، ويستغرق
الوصف.
وقال محمد بن عبد الملك لصديق له: ابغ لي فرساً برذوناً، وثيق اليدين، قائم الأذنين، ذكر
العينين، يأنف من تحريك الرجلين.
ومن الكلام الجيّد في وصف الخيل ما أنشأه الشيخ ضياء الدين بن القرطبيّ من رسالته التي
كتبها إلى الصاحب الوزير شرف الدين الفائزيّ، وقد تقدّم ذكرها في باب الكتاب في الرسائل،
فلا فائدة في إعادتها؛ وإنما أوردنا ذكر الخيل هناك لأن الرسالة تشتمل على أوصاف الخيل
والعساكر والسلاح وغير ذلك، فأردنا بإيرادها بجملتها ثمّ أن يكون الكلام فيها سياقه يتلو
بعضه بعضاً. وهذه الرسالة في السّفر السابع من هذه النسخة.
ومن إنشاء المولى الفاضل العالم الأديب البليغ شهاب الدين أبي الثّناء محمود ابن سليمان
الحلبي الكاتب رسالةٌ في الخيل عملها تجربةً ورياضةً لخاطره، ولم يكتب بها؛ وسمعتها من
لفظه، ونقلتها من خطّه؛ وهي:
أدام الله إحسان الجناب الفلاني، ولا زالت الآمال في أمواله محكّمه، والأماني كالمحامد في
أبوابه مخيّمه، والمعالي كالعوالي إليه دون غيره مسلّمه، والمكارم تغريه في الندى حتى يبذل
ما حبّب إليه من الخيل المسوّمه. المملوك يقبّل اليد التي ما زالت بسطتها في الكرم علّيه،

وقبضتها بتصريف أعنّة الزمن مليّه؛ ومواهبها تتنوّع في الندى، ومذاهبها في الكرم تهب
الأولياء ما تهابه العدا. وينهى وصول ما أنعم به من الخيل التي وجد الخير في نواصيها،
وادّخرت صهواتها حصوناً يعتصم في الوغى بصياصيها:
فمن أشهب غطّاه النهار بحلّته، وأوطأه الليل على أهلته؛ كأنّ أذنه جلفة قلم، أو شقّة
جلم؛ يدرك بها الوهم، ويحقّق في الليل البهيم مواقع السهم؛ يتموّج أديمه ريّا؛ ويتأرّج ريّا،
ويقول من استقبله في حلى لجامه: هذا الفجر قد طلع بالثريّا؛ إن التفّت المضايق انساب
انسياب الأيم، وإن انفرجت المسالك مرّ مرور الغيم؛ كم أبصر فارسه يوماً أبيض بطلعته،
وكم عاين طرف السّنان مقاتل العدا في ظلام النّقع بنور أشعّته؛ لا يستنّ داحسٌ في
مضماره، ولا تطمع الغبراء في شقّ غباره، ولا يظفر لاحقٌ من لحاقه بسوي آثاره؛ تسابق
يداه مرامي طرفه، ويدرك شوارد البوق ثانياً من عطفه.
ومن أدهم حالي الشّكيم، حالك الأديم، له مقلة غانيةٍ وسالفة ريم؛ قد ألبسه الليل برده،
وأطلع بين عينيه سعده؛ يظنّ من نظر إلى سواد طرّته، وبياض حجوله وغرّته؛ أنه توهّم
النهار نهراً فخاضه، وألقى بين عينيه نقطةً من رشاش تلك المخاضه؛ ليّن الأعطاف، سريع
الأنعطاف؛ يقبل كالليل، ويكرّ كجلمود صخرٍ حطّه السّيل؛ يكاد يسبق ظلّه، وإذا جارى
السهم إلى غرضٍ بلغه قبله.
ومن أشقر غشّاه البرق بلهبه، ووشّاه الأصيل بذهبه؛ يتوجّس ما لديه برقيقتين، وينفض
وفرتيه عن عقيقتين، وينزل عذار لجامه من سالفتيه على شقيقتين؛ له من الرّاح لونها، ومن
الرياح لينها؛ إن جرى فبرقٌ خفق، وإن أسرع فهلالٌ على شفق؛ لو أدرك أوائل حرب ابني
وائلٍ لم يكن للنّعامة نباهه، ولا للوجيه وجاهه، ولكان ترك إعارة سكاب لؤماً وتحريم بيعها
سفاهه؛ يركض ما وجد أرضاً، ولو اعترض به راكبه بحراً وثبه عرضاً.
ومن كميتٍ نهد، كأنّ راكبه في مهد؛ عندميّ الإهاب، شماليّ الذّهاب؛ يزلّ الغلام الخفّ
عن صهواته، وكأنّ نغم الغريض ومعبدٍ في لهواته؛ قصير المطا، فسيح الخطا؛ إن ركب لصيدٍ

قيّد الأوابد، وأعجل عن الوثوب الوحش اللّوابد؛ وإن جنب إلى حربٍ لم يزورّ من وقع القنا
بلبانه، ولم يشك لو علّم الكلام بلسانه، ولم ير دون بلوغ الغاية، وهي ظفر راكبه، ثانياً من
عنانه؛ وإن سار في سهلٍ اختال براكبه كالثّمل، وإن أصعد في جبل طار في عقابه كالعقاب
وانحطّ في مجاريه كالوعل؛ متى ما ترقّ العين فيه تسهّل، ومتى أراد البرق مجاراته قال له
الوقوف عند قدره: ما أنت هناك فتمهّل.
ومن حبشيّ أصفر يروق العين، ويشوق القلب بمشابهته العين؛ كأنّ الشمس ألقت عليه من
أشعّتها جلالاً، وكأنه نفر من الدّجى فاعتنق منه عرفاً واعتلق أحجالاً؛ ذي كفلٍ يزين
سرجه، وذيلٍ يسدّ إذا استدبرته منه فرجه؛ قد أطلعته الرياضة على مراد فارسه، وأغناه
نضار لونه ونضارته عن ترصيع قلائده وتوشيع ملابسه؛ له من البرق خفّة وطئه وخطفه؛
ومن النسيم لين طروقه ولطفه، ومن الريح هزيزها إذا ما جرى شأوين وابتلّ عطفه؛ يطير
بالغمز، ويدرك بالرّياضة مواقع الرّمز، ويغدو كألف الوصل في استغنائه مثلها عن الهمز.
ومن أخضر له من الروض تفويفه، ومن الوشي تقسيمه وتأليفه؛ قد كساه الليل والنهار
حلتي وقارٍ وسنا، واجتمع فيه من البياض والسواد ضدّان لمّا استجمعا حسناً؛ ومنحه
البازي حلّة وشيه، وأعطته نفوح الرياح ونسماتها قوّة ركضه وخفّة مشيه، يعطيك أفانين
الجري قبل سؤاله، ولمّا لم يسابقه شيء من الخيل أغراه حبّ الظفر بمسابقة خياله، كأنه
تفاريق شيب في سواد عذار، أو طلائع فجرٍ خالط بياضه الدّجى، فما سجى، ومازج
ظلامه النهار، فما أنار؛ يختال لمشاركة اسم الجري بينه وبين الماء في شدّة السّير كالسيل،
ويدلّ بسبقه على المعنى المشترك بين البروق اللّوامع وبين البرقيّة من الخيل، ويكذّب المانويّة
لتولّد اليمن فيه بين إضاءة النهار وظلمة الليل.
ومن أبلق ظهره حرم، وجريه ضرم؛ إن قصد غاية فوجود الفضاء بينه وبينها عدم، وإن
صرّف في حربٍ فعمله ما يشاء البنان والعنان وفعله ما تريد الكفّ والقدم؛ قد طابق
الحسن البديع بين ضدّي لونه، ودلّت على اجتماع النّقيضين علّة كونه؛ وأشبه زمن الرّبيع

باعتدال الليل فيه والنهار، وأخذ وصف حلتي الدّجى في حالتي الإبدار والسّرار؛ لا تكلّ
مناكبه، ولا يضلّ في حجرات الجيوش راكبه، ولا يحتاج ليله المشرق بمجاورة نهاره إلى أن
تسترشد فيه كواكبه؛ ولا يجاريه الخيال فضلاً عن الخيل، ولا يملّ السّرى إلاّ إذا ملّ مشبهاه:
النهار والليل، ولا تتمسّك البروق اللوامع من لحاقه بسوى الأثر فإن جهدت فبالذّيل؛ فهو
الأبلق الفرد، والجواد الذي لمجاريه العكس وله الطّرد، قد أغنته شهرة نوعه في جنسه عن
الأوصاف، وعدل بالرياح عن مباراته سلوكها له في الاعتراف جادّة الإنصاف.
فترقّى المملوك إلى رتب العزّ من ظهورها، وأعدّها لخطبة الجنان إذ الجهاد على مثلها من
أنفس مهورها؛ وكلف بركوبها فكلّما أكمله عاد، وكلّما أقله شره إليه فلو أنه زيد الخيل لما
زاد؛ ورأى من آدابها ما دل على أنها من أكرم الأصائل، وعلم أنها ليومي سلمه وحربه
حنيّة الصائد وجنّة الصائل؛ وقابل إحسان مهديها بثنائه ودعائه، وأعدّها في الجهاد لمقارعة
أعداء الله تعالى عليها وأعدائه؛ والله تعالى يشكر برّه الذي أفرده في الندى بمذاهبه،
وجعل الصّافنات الجياد من بعض مواهبه. والله أعلم بالصواب.
ومن إنشاء المولى الفاضل تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني رسالةٌ في مثل ذلك
أنشأها في سنة ستٍّ أو خمسٍ وسبعمائة. وسمعتها من لفظه، ونقلتها من إملائه؛ وهي:
يقبّل اليد العالية الفلانيّة، لا زالت ترسل إلى الأولياء سحائب كرمها، وتقلّد الأودّاء قلائد
نعمها، ولا برح المرهفان طرازي حاشيتها وخدمها، حتى ينوب القلم عن صليل مرهفها
والصّمصام عن صرير قلمها، لتتساوى في الإنفاذ مواقع كلمها ومراسم كلمها؛ ولا فتئ
ظاهرها قبلة القبل وغاية الآمال، وباطنها مورد الكرم ومصدر الأموال.
ينهى أنه لما كانت العزائم الفلانيّة طامحةً إلى أسنى المعالي، مطلعةً من مناقبها أهلّةً تخجل
بدور الليالي؛ متيّمةً باكتساب المفاخر، عميدةً بتشييد المآثر؛ ماثلةً إلى ما يزيّن المقانب،
ويطرّز الكتائب؛ مصغيةً إلى ما يرد جنابتها من جنايتها لا غير، وكيف لا تكون كذلك

وحبّ الخيل من الخير؛ ناظرةً إلى ما يصل من كرائمها، مهتديةً بنجوم غررها مشغوفةً
بتحجيل قوائمها؛ عاشقةً لاتساع صدورها، ورقّة نحورها.
خدم المملوك الرّكاب العالي بإنفاذ خيلٍ اتّحدت في الصفات، وتباينت في الشّيات؛
وصدرت كروضةٍ تفتّحت أزهارها، وزها نوّارها، وأشرقت أنوارها؛ بل كعرائس تختال في
برودها، أو كجواهر تنافست في عقودها؛ ملكتها يمين المملوك فكانت كعدد أصابعها،
وأحرزتها همّته فنزعت في الحزم إلى منازعها؛ لها من الظباء أعناقها، ومن النعام أسواقها؛
ومن البأس قوة جنانها، ومن الظفر مثنى عنانها؛ ومن الإقبال غرر نواصيها، ومن إدراك
الغرض جلّ أمانيها؛ ذوات ضبح، وموريات قدح؛ تكبو الريح في غاياتها، ويقرّ البرق
بمعجزاتها؛ مداخلة الخلق رحبة اللّبان، مستغنيةٌ عن الهمز بتحريك العنان؛ تقارب ما بين
قطاها ومطاها، وتباعد ما بين قذالها وصلاها؛ سما عنقها وأطرق جبينها، وتنزّهت عن
المعايب فلا صكك يشينها؛ يا حبّذا أشهبها وقد تجلّلت بالشّهب ذاته، وادّرعت أشهب
الصبح شياته؛ زبرجديّ الحافر لؤلؤيّ الأديم، له أيطلا ظبي وساقا ظليم؛ كغمامةٍ بارقها قدح
سنابكه، أو كسيلٍ طمّ مفعمه واسع مسالكه؛ استغنى بجوهر شياته عن كل مذهب، فما
لمذهب في الانتساب عنه مذهب؛ إن امتطى الفارس قطاته طار بنسر حافره، وإن أشار
إلى غرضٍ أدركه بمجرّد الوهم لا بالنظر غلى ناظره؛ أميال البيداء كميلٍ بين عينيه، وترادف
رمالها كذرورٍ بين جفنيه؛ استولى على السّبق وأحرز خصله، وكيف لا وقد حاز اثنتي
عشرة خصله.
يتلوها أشقرها وقد نجّد عقيقاً، أو التحف شقيقاً؛ أو كوجنة قد احمرّت من الخجل، أو
كوردة ناظرت بخفرها نرجس المقل؛ تناسبت أجزاؤه في الملاحه، وتساوت مراتبه في
الصّباحه؛ وجاهة الوجيه ناطقة من المحيّا، ومسيل غرّته كتصويب الثريّا؛ حجّل بالجوزاء
وأسرج بالهلال، وألجم بالمجرّة فما لابن ذكاء في الإشراق عليه مجال؛ إن أطلق والريح في سنن
ميدان، رأيت الريح ككميتٍ خلّفته الجياد يوم الرّهان؛ تنهب الفلاة حوافره، وتحرز قصب

السبق بوادره. يتبعه كميت كقطعة جمر، أو ككأس خمر؛ اسودّ ذنبه وعرفه، واختال
كالنّشوان فكأنما أسكره وصفه؛ حكت أذناه قادمتي حمامه، أو المحرّف من أقلام قدامه؛
قصرت عن سعيه الخيول فسابق الظّلال، ونشأ مع النّعام فلا يألف غير الرّئال؛ كأنّ الصّبا
ألقت إليه عنانها قسراً، فتخبّ بسرجه مرّةً وتناقل أخرى.
مقروناً بأصفر كالدّينار، قد
أفرغت عليه حلة نور لا نار طال منه الذيل واتسع اللبان فكأنما هو نار على يفاع شبّت
للضّيفان؛ جلّلته الشمس بأنوارها، وأهدت إليه الرّياض اصفرار أزهارها؛ تشهدك عند
رؤيته يوم العرض، فروج قوائمه سماءً على أرض؛ إن هملج لاذت الريح بالشّجر، وإن عدا
قصر عن إدراكه رؤية البصر؛ نجاشيّ النّجار، وحليف الوجار؛ كأنما خلق من الحزم
شطره، ومن العزّ ظهره؛ ومن الإقبال غرّته، ومن كنوز المفاخر سرّته؛ يقرّ أعوج بني هلال
بفضله، ويقفو حرون مسلّم أثر ظلّه. مختوماً بأدهم كصخرة سيل، أو كقطعة ليل؛ خاض في
أحشاء الصّباح فلطم جبينه، وسابق الفلك فقيّد بالجوزاء رجليه ويساره وأطلق يمينه؛
عريض الكفل والمنخرين، دقيق القوائم والساقين؛ كأنما أشرب لونه سواد القلب والبصر،
وكأنما النصر قيسٌ وهو ليلى يحضره حيث حضر؛ لو كتب اسمه على رايةٍ لم تزل تقدم
فتوحاً، أو لمعت بوارق سنابكه رأيت زنجيّاً جريحاً؛ طابقت أخباره لمخبره، وسبقت
رجلاه في العدو مواقع نظره؛ لا يعلق غرابٌ بغباره، ولا تستنّ النّعامة في مضماره.
ولنختم هذا الباب بذكر فائدة، وهي دواء للخلد: يؤخذ خمسون طائراً من الدّراريج
تسحق بحجر ولا تمسّ باليد، وتجعل في قدر صغيرة جديدة، ويصبّ عليها من الماء والزيت
ما يغمره، ويغلى عليه حتّى ينعقد، ويضاف إليه يسيرٌ من القطران الأسود، ويوضع على
النار؛ فإذا فتر فتلفّ مشاقةٌ على عود ويدهن به أمّ الخلد قبل قطعه بالنار، ثم يدهن بعد
ثلاثة أيام بالشّيرج والصّيلقون وماء الورد؛ فإنه مجرّب.
الثاني من القسم الثالث من الفن الثالث
البغال والحمير
البغال

قال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان: إنّ البغل لا يعيش له ولد، وليس بعقيم؛ ولا يبقى
للبغلة ولد، وليست بعاقر. وهو أطول عمراً من أبويه وأصبر.
ويقال: إنّ أوّل من نتج البغال
قارون، وقيل: أفريدون أحد ملوك الفرس الأول. والبغل يوصف برداءة الأخلاق والتلوّن.
ومن أخلاق البغال الإلف لكل دابّة. ويقال: إنّ أبوال الإناث تنقية لأجسادها. والإناث
أجمل من الذكور. قال بعض الشعراء:

عليك بالبغلة دون البغل فإنها جامعةٌ للشّمل
مركب قاضٍ وإمامٍ عدل وعالمٍ وسيّدٍ وكهل

تصلح للرّحل وغير الرحل
والبغال من مراكب الرؤساء، والسادة النجباء، والقضاة والعلماء. وهم يرجّحون إناثها
على ذكورها؛ حتى إن المغاربة لا يركبون البغال الذكور البتة وإنما يجعلونها برسم حمل
الزّبل. أخبرني قاضي القضاة جمال الدين أبو محمد بن سليمان بذلك، قال: وإذا طلب وليّ
الأمر البغل لأحدٍ كان ذلك دلالةً على إشهاره وتجريسه عليه.
قال: فلا يركب البغل الذكر
عندنا إلا زبّالٌ أو مجرّس. وأعظم ما تفضّل به إناث البغال على ذكورها أنّ رسول الله
صلى الله عليه وسلم ركبها وملكها؛ وما ورد أنه ملك بغلاً ولا ركبه.
ولنذكر بغلات رسول الله صلى الله عليه وسلم تفضيلاً لهذا الحيوان وتشريفاً، تنويهاً
بذكره وتعريفاً؛ والله أعلم.
بغلات الرسول
كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بغلةٌ شهباء يقال لها دلدل، أهداها له المقوقس. ذكر
ذلك ابن قتيبة وابن سعد؛ فقال ابن سعد ما هذا نصه: وبعث رسول الله صلى الله عليه
وسلم حاطب بن أبي بلتعة اللّخمي، وهو أحد الستة، إلى المقوقس صاحب الإسكندريّة
عظيم القبط يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتاباً؛ فأوصل إليه كتاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم، فقرأه وقال له خيراً؛ وأخذ الكتاب فجعله في حقٍّ من عاج وختم عليه ودفعه
إلى جاريته؛ وكتب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم: قد علمت أن نبيّاً قد بقي، وكنت أظن
أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم،

وقد أهديت إليك كسوة وبغلة تركبها. ولم يزد على هذا ولم يسلم. فقبل رسول الله صلى
الله عليه وسلم هديّته، وأخذ الجاريتين: مارية أمّ إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه
وسلم، وأختها سيرين. وبغلةً بيضاء لم يكن في العرب يومئذ غيرها وهي دلدل. وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ضنّ الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه".
وذكر ابن سعد أيضاً قال: كانت دلدل بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أوّل بغلة
رئيت في الإسلام، أهداها له المقوقس وأهدى معها حماراً يقال له عفير؛ فكانت البغلة قد
بقيت حتى كان زمن معاوية. وفي لفظ: وكانت شهباء، وكانت بينبع حتى ماتت ثمّ. وفي
لفظ: وكانت قد كبرت حتى زالت أسنانها، وكان يجّش لها الشعير.
وروى ابن سعد أيضاً عن محمد بن عمر الأسلميّ قال: حدّثنا أبو بكر بن عبد الله ابن
أبي سبرة عن زامل بن عمرو قال: أهدى فروة بن عمرو إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم
بغلة يقال لها فضّة فوهبها لأبي بكر. وكذلك قال البلاذريّ. وقد يقال: إن دلدل من هديّة
فروة، وإن فضّة من هدية المقوقس.
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أهذي للنبيّ صلى الله عليه وسلم بغلة أهدها له
كسرى؛ فركبها بجلٍّ من شعر ثم أردفني خلفه. رواه الثّعالبيّ في تفسيره في قوله تعالى: "وإن
يمسسك الله بضرٍّ فلا كاشف له إلاّ هو". قال الشيخ شرف الدين عبد المؤمن الدّمياطي
رحمه الله: قوله أهداها له كسرى بعيدٌ؛ لأنه مزّق كتاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمر
عامله باليمن بقتله وبعث رأسه إليه؛ فأهلكه الله بكفره وطغيانه.
وروى مسلم بن الحجّاج رحمه الله من حديث أبي حميد الساعديّ قال: غزونا مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم تبوك؛ فذكر الحديث؛ وقال فيه: وجاء رسول ابن العلماء
صاحب أيلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب وأهدى له بغلة بيضاء؛ فكتب
إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهدى له برداً. رواه البخاريّ في كتاب الجزية

والموادعة بعد الجهاد؛ ورواه أبو نعيم في المستخرج.
ولفظهما: وأهدى ملك أيلة إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم بغلة بيضاء فكساه برداً؛ وقال أبو
نعيم: بردةً.
وقال ابن سعد: وبعث صاحب دومة الجندل لرسول الله صلى
الله عليه وسلم ببغلة
وجبّة من سندس.
وروى إبراهيم الحربيّ في كتاب الهدايا عن عليّ رضي الله عنه
قال: وأهدى يحنّة بن روبة
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغلته البيضاء.
وروى يوسف بن صهيب عن ابن بريدة عن أبيه قال: انكشف
الناس عن النبيّ صلى الله
عليه وسلم يوم حنين ورسول الله صلى الله عليه وسلم على
بغلته الشّهباء التي أهداها له
النّجاشيّ وزيدُ آخذٌ بركاب بغلته. وذكر عليّ بن محمد بن حنين
بن عبدوس الكوفيّ في
أسماء خيله وسلاحه وأثاثه: وكان اسم بغلته دلدل أهداها إليه
المقوقس صاحب
الإسكندريّة وكانت شهباء؛ وهي التي قال لها يوم حنين:
"اربضي" فربضت. ويقال: إنّ
علياً ركبها بعد النبيّ صلى الله عليه وسم ثم ركبها الحسن ثم
ركبها الحسين ثم ركبها
محمد بن الحنفيّة رضي الله عنهم؛ ثم كبرت وعميت، فوقعت
في مبطخة لبعض بني مدلج
فخبطت فيها، فرماها بسهم فقتلها.
وكانت له بغلة يقال لها الأيليّة؛ أهداها إليه ملك أيلة، وكانت
طويلة مخندفةً كأنما تقوم على
رمال حسنة السير؛ فأعجبته ووقعت منه. وهي التي قال له
فيها عليّ بن أبي طالب
رضي الله عنه حين خرج عليها: كأنّ هذه البغلة قد أعجبتك يا
رسول الله؟ قال: "نعم"
قال: لو شئنا لكان لك مثلها؛ قال: "وكيف"؛ قال: هذه أمّها
فرس عربيّة وأبوها حمار، ولو
أنزينا حماراً على فرس لجاءت بمثل هذه؛ فقال: "إنما يفعل
ذلك الذين لا يعلمون".
وعن دحية بن خليفة الكلبيّ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول
الله، ألا أحمل لك حماراً
على فرس فتنتج لك بغلة؟ فقال: "إنما يفعل ذلك الذين لا
يعقلون". رواه ابن منده في كتاب
الصحابة.
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم عبداً

مأموراً، ما اختصّنا دون الناس بشيء إلا بثلاث: أمرنا أن نسبغ الوضوء، وألاّ نأكل
الصّدقة، وألا ننزي حماراً على فرس. رواه التّرمذيّ في الجهاد. وفي لفظ آخر عنه رضي
الله عنه: كان عبداً مأموراً بلّغ ما أرسل به، وما اختصّنا دون الناس بشيء إلا بثلاث
خصال: أمرنا أن نسبغ الوضوء، وألاّ نأكل الصّدقة، وألا ننزي الحمار على الفرس. وهذا
على هذين الحديثين يختصّ بآل النبيّ صلى الله عليه وسلم دون غيرهم.
والذي يظهر من مجموع هذه الأحاديث المرويّة التي أوردناها أن بغلات رسول الله صلى الله
عليه وسلم كانت سبعاً، وهي: الدّلدل التي أهداها له المقوقس، وفضّة التي أهداها له فروة
بن عمرو، وبغلة أهداها له كسرى، وبغلته الأيليّة التي أهداها له ابن العلماء صاحب أيلة،
وبغلة بعثها له صاحب دومة الجندل، وبغلة أهداها له يحنّة ابن روبة، وبغلة أهداها له
النّجاسيّ صاحب الحبشة. والله تعالى أعلم بالصواب.
وصف البغال
قد ألّف الجاحظ كتاباً في البغال مفرداً عن كتاب الحيوان، قال فيه ما نصه: نبدأ إن شاء
الله بما وصف الأشراف من شأن البغلة في حسن سيرتها، وتمام خلقتها، والأمور الدّالة
على السرّ في جوهرها، وعلى وجوه الارتفاق بها، وعلى تصرّفها في منافعها، وعلى خفّة
مؤونتها في التنقّل في أمكنتها وأزمنتها، ولم كلف الأشراف بارتباطها مع كثر ما يزعمون من
عيوبها، ولم آثروها على ما هو أدوم طهارة خلقٍ منها، وكيف ظهر فضلها مع النقص الذي
هو فيها، وكيف اغتفروا مكروه ما فيها لما وجدوا من خصال المحبوب فيها.
وقال: ولقد كلف بارتباطها لأشراف حتى لقّب بعضهم من أجل اشتهاره بها بروّاض
البغال؛ ولقّبوا آخر بعاشق البغل. فبسط القول في الترجمة ثم لم يأت من أخبار البغال
بطائلٍ، بل اقتصرت على حكاياتٍ واستطرد منها إلى غيرها، على عادته في مصنّفاته.
فكان مما حكاه من ذلك:
قال مسلمة بن عبد الملك: ما ركب الناس مثل بغلةٍ طويلة العنان، قصيرة العذار، صفواء
العرف، حصّاء الذّنب.

قال: وكتب روح بن عبد الملك إلى وكيل له: ابغني بغلةً حصّاء الذنب، عظيمة المحزم،
طويلة العنق، سوطها عنانها، وهواها إمامها.
قال: وعاتب صفوان بن عبد الله بن الأهتم عبد الرحمن بن عبّاس بن ربيعة ابن الحارث
بن عبد المطّلب في ركوب البغال، وكان ركّاباً للبغلة، فقال له: مالك ولهذا المركب الذي لا
يدرك عليه الثار، ولا ينجّيك يوم الفرار؟! فقال: إنها نزلت عن خيلاء الخيل، وارتفعت
عن ذلّة العير، وخير الأمور أوساطها. فقال صفوان: إنا نعلّمكم، فإذا علمتم تعلّمنا
منكم. وهو الذي يلقّب روّاض البغال، لحذقه بركوبها، ولشغفه بها، وحسن قيامه عليها.
وكان يقول: أريدها واسعة الجفرة، مندحّة السّرة، شديدة الغلوة، بعيدة الخطوة، ليّنة الظهر،
ملوية الرّسغ، سفواء جرداء عنقاء، طويلة الأنقاء.
قال: وقال ابن كتامة: سمعت رجلاً يقول: إذا اشتريت بغلةً، فاشترها طويلة العنق، تجده
في نجائها؛ مشرفة الهادي، تجده في طباعها؛ ضخمة الجوف، تجده في صبرها.
قال: ولما خرج قطريّ بن الفجاءة أحبّ أن يجمع إلى رأيه رأي غيره؛ فدسّ إلى الأحنف بن
قيس رجلاً يجري ذكره في مجلسه ويحفظ عنه ما يقول؛ فلمّا قعد قال الأحنف: أما إنهم إن
جنبوا بنات الصّهّال، وركبوا بنات النّهّاق، وأمسوا بأرضٍ وأصبحوا بأرض، طال أمرهم.
قال الجاحظ: فلا ترى صاحب الحرب يستغني عن البغال، كما لا ترى صاحب السّلم
يستغني عنها، وترى صاحب السفر كصاحب الحضر. انتهى كلام الجاحظ.
وحكي أنّ عبد الحميد ساير مروان بن محمد الجعديّ على بغلة؛ فقال: لقد طالت صحبة
هذه الدابّة لك!؛ فقال: يا أمير المؤمنين، من بركة الدابّة طول صحبتها. فقال: صفها؛ فقال:
همّها إمامها، وما ضربت قطّ إلاّ ظلماً.
وقال بعض الكتّاب من رسالة: قد اخترت لسيّدي بغلةً وثيقة الخلق، لطيفة الخرط،
رشيقة القدّ، موصوفة السير، ميمونة الطير، مشرفة العنق، كريمة النّجار، حميدة الآثار.
إن أدبرت قلت لا تليل لها أو أقبلت قلت ما لها كفل
قد جمعت إلى حسن القميص، سلامة الفصوص؛ فسمّيت قيد الأوابد، وقرّة عين

الساهد؛ تزري في انطلاقها، بالبروق في ائتلاقها.
قال البحتريّ يصف بغلاً:
وأقبّ نهدٍ للصّواهل شطره يوم الفخار وشطره للشّحّج
خرق يتيه على أبيه ويدّعي عصبيّةً لبني الضّبيب وأعوج
مثل المذّرع جاء بين عمومةٍ في غافقٍ وخؤولة للخزرج
وقال أبو الفرج الوأواء من قصيدة يشكر بعض أصحابه وقد أهدى له بغلةً:
قد جاءت البغلة السّفواء يجنبها للبرق غيثٌ بدا ينهلّ ماطره
عريقةٌ ناسبت أخوالها فلها بالعتق من أكرم الجنسين فاخره
ملء الحزام وملء العين مسفرةٌ يريك غائبها في الحسن حاضره
أهدى لها الرّوض من أوصافه شيةً خضراء ناضرةً إن زال ناضره
ليست بأوّل حملانٍ شريت به حمدي ولا هي ياذا الجود آخره
كم قد تقدّمها من سابح بيدي عنانه وعلى الجوزا حوافره
وقال أبو المكارم بن عبد السّلام:
كأنها النار في الحلفاء إن ركضت كأنها السيل إن وافتك من جبل
كأنها الأرض إن قامت لمعتلفٍ كأنها الريح إن مرّت على القلل
ما يعرف الفكر منها منتهى حضرٍ ما صوّر الوهم فيها وصمة الكسل
إذا اقتعدت مطاها وهي ماشيةٌ ثهلان تبصره في زيّ منتقل
هذا ما اتّفق إيراده من صفات البغال التي تقتضي المدح.
فأما ما جاء في ذمها فالمثل المضروب في بغلة أبي دلامة.
وقال أبو دلامة في بغلته:
أبعد الخيل أركبها وراداً وشقراً في الرّعيل إلى القتال
رزقت بغيلةً فيها وكالٌ وخير خصالها فرط الوكال
رأيت عيوبها كثرت وعالت ولو أفنيت مجتهداً مقالي
تقوم فما تريم إذا استحثّت وترمح باليمين وبالشّمال
رياضة جاهلٍ وعليج سوءٍ من الأكراد أحيٍن ذي سعال
شتيم الوجه هلباجٍ هدانٍ نعوسٍ يوم حلٍّ وارتحال
فأدّبها بأخلاقٍ سماحٍ جزاه الله شرّاً عن عيالي
فلمّا هدّني ونفى رقادي وطال لذاك همّي واشتغالي
أتيت بها الكناسة مستغيثاً أفكّر دائباً كيف احتيالي
بعدة سلعةٍ ردّت قديماً أطمّ بها على الداء العضال
فبينما فكرتي في القوم تسدي إذا ما سمت أرخص أم أغالي
أتاني خائبٌ حمقٌ شقيٌّ قديمٌ في الخسارة والضّلال
وراوغني لخلو بي خداعاً ولا يدري الشّقيّ بمن يخالي
فقلت بأربعين فقال أحسن فإن البيع مرتخصٌ وغالي

فلما ابتاعها منّي وبتّت له في البيع غير المستقال
أخذت بثوبه وبرئت مما أعدّ عليك من شنيع الخصال
برئت إليك من مششٍ قديم ومن جردٍ وتخريق الجلال
ومن فرط الحران ومن جماحٍ ومن ضعف الأسافل والأعالي
ومن عقر اللسان ومن بياضٍ بناظرها ومن حلّ الحبال
وعقّالٍ يلازمها شديدٍ ومن هدم المعالف والرّكال
تقطّع جلدها جرباً وحكّاً إذا هزلت وفي غير الهزال
ومن شدّ العضاض ومن شبابٍ إذا ما همّ صحبك بالرّقال
وأقطف من دبيب الذّرّ مشياً وتنحط من متابعة السّعال
وتكسر سرجها أبداً شماساً وتسقط في الوحول وفي الرمال
ويهزلها الجمام إذا خصبنا ويدبر ظهرها مسّ الجلال
تظلّ لركبةٍ منها وقيداً يخاف عليك من ورم الطّحال
وتضرط أربعين إذا وقفنا على أهل المجالس للسؤال
فتخرس منطقي وتحول بيني وبين كلامهم ممّا توالي
وقد أعيت سياستها المكاري وبيطاراً يعقّل بالشّكال
حرونٌ حين تركبها لحضرٍ جموحٌ حين تعزم للنّزال
وذئبٌ حين تدنيها لسرجٍ وليثٌ عند خشخشة المخالي
وفيلٌ إن أردت بها بكوراً خذولٌ عند حاجات الرّجال
وألف عصاً وسوطٍ أصبحيٍّ ألذّ لها من الشّرب الزّلال
وتصعق من صياح الدّيك شهراً وتذعر للصّفير وللخيال
إذا استعجلتها راثت وبالت وقامت ساعةً عند المبال
ومثفارٌ تقدّم كلّ سرج تصيّر دفّتيه على القذال
وتحفى في الوقوف إذا أقمنا كما تحفى البغال من الكلال
ولو جمّعت من هنّا وهنّا من الأتبان أمثال الجبال
فإنك لست عالفها ثلاثاً وعندك منه عودٌ للخلال
وكانت قارحاً أيام كسرى وتذكر تبّعاً قبل الفصال
وقد قرحت ولقمان فطيمٌ وذو الأكتاف في الحجج الخوالي
وقد أبلى بها قرنٌ وقرنٌ وآخر يومها لهلاك مالي
فأبدلني بها يا ربّ بغلاً يزين جمال مركبه جمالي
كريمٌ حين ينسب والداه إلى كرم المناسب في البغال

وقال اقاضي بهاء الدين زهير الكاتب:

لك يا صديقي بغلةٌ ليست تساوي خردله
مقدار خطوتها الطوي لة حين تسرع أنمله
وتخال مدبرةً إذا ما أقبلت مستعجله
تمشي فتحسبها العيو ن على الطريق مشكّله
تهتزّ وهي مكانها فكأنما هي زلزله

الحمر الأهلية

قال المتكلمون في طبائع الحيوان: إنّ الحمار لا يولد له قبل أن تتمّ له ثلاث سنين ونصف.

قالوا: والحمار إذا شمّ رائحة الأسد رمى بنفسه عليه لشدّة خوفه منه. ولذلك قال أبو تمّام

يخاطب عبد الصمد بن المعذّل وقد هجاه:
أقدمت ويلك من هجوي على خطرٍ والعير يقدم من خوفٍ على الأسد
والحمار يوصف بحدّة حاسّة المسع. وهو إذا نهق أضرّ بالكلب؛ قالوا: حتى إنّه يحدث له
مغساً؛ فلذلك يطول نباحه. والبرد يضرّ الحمار ويؤذيه؛ ولهذا لا يوجد في بلاد الصّقالبة.
وقال الجاحظ: وحلف أحمد بن العزيز أن الحمار ما ينام. فقيل له: ولم ذلك؟ قال: لأنّي
أجد صياحه ليس بصياح من نام وانتبه في تلك الساعة، ولا هو صياح من يريد أن ينام بعد
انقضاء صياحه.
وأجود الحمير المصريّة. وأهل مصر يعتنون بتربيتها، ويحتفلون بأمرها ويسابقون عليها،
ويسمّون مكان سباقها الطابق. والجيّد منها يباع بالثمن الكثير.
نقل صاحب كتاب مباهج
الفكر ومناهج العبر في كتابه قال: لقد بيع منها حمارٌ بمائة دينار وعشرة دنانير. وأمّا الذي
رأيناه نحن منها فأبيع بألف درهم، وربما زاد بعضها على الألف. وكثيرٌ من أهل مصر
يركبونها ويتركون الخيل والبغال. فمن ركبها من الأعيان مع وجود القدرة والإمكان على
ركوب الخيل والبغال، يقصد بذلك التواضع وعدم الكبرياء. ومن ركبها من ذوي الأموال
وترك الخيل والبغال ربما يفعل ذلك توفيراً لماله وضنّةً به. ومن ركبها من الشباب والسّوقة
يقصد بذلك التنزّه عليها لفراهتها وسرعة مشيتها.
وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حمارٌ من حمير مصر اسمه يعفور وقيل: عفير؛
أهداه له المقوقس صاحب الإسكندريّة مع ما أهدى. وقد ورد أيضاً في الحديث أنه كان
لرسول الله صلى الله عليه وسلم حماران: يعفور وعفير. فأمّا عفير فأهداه له المقوقس.
وأمّا يعفور فأهداه له فروة ابن عمرو الجذاميّ. ويقال: إنّ حمار المقوقس يعفور وحمار فروة
عفير.
قال الواقديّ: مات يعفور عند منصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم من حجّة الوداع.
وذكر السّهيليّ: أن يعفوراً طرح نفسه في بئرٍ يوم مات النبيّ صلى الله عليه وسلم فمات.
وذكر ابن فورك في كتاب الفصول أنه كان في مغانم خيبر، وأنّه كلّم النبيّ صلى الله عليه

وسلم وقال: يا رسول الله، أنا زياد بن شهاب، وقد كان في آبائي ستّون حماراً كلّهم ركبهم
نبيٌّ، فاركبني أنت. وزاد الجوينيّ في كتاب الشامل: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا
أراد أحداً من أصحابه أرسل هذا الحمار إليه؛ فيذهب حتى يضرب برأسه
؛ فيخرج ذلك الرجل، فيعلم أنه أرسل إليه، فيأتي النبيّ صلى الله عليه وسلم.
وفي الحمار منافع طبيّة ذكرها الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا، قال: رماد كبد الحمار
بالزّيت ينفع من الخنازير؛ قال: ويبرئ من الجذام. وهذا دواءٌ رخيص إن صحّ. قال: وكبده
مشويّةً على الرّيق تنفع من علّة الصّرع. قال: والمكزوز من اليبوسة يجلس في مرقة لحمه.
وقيل: إنّ بوله نافع من وجع الكلى. قال: وبول الحمار الوحشيّ يفتّت الحصاة في المثانة.
ما يتمثل به في ذكر الحمار
تقول العرب: "العير أوقى لدمه". وقالوا: "نجىً عيراً سمنه". وقالوا: "الجحش إذا فاتك
الأعيار". وقالوا: "أصحّ من عير أبي سيّارة"؛ لأنه كان دفع بأهل الموسم على ذلك العير
أربعين عاماً. وقالوا: "إن ذهب عيرٌ فعيرٌ في الرّباط". وقالوا: "العير يضرط والمكواة في
النار". وقالوا: "حمارٌ يحمل سفراً".
ومن أنصاف الأبيات:
وقد حيل بين العير والنّزوان
المدح والذم في وصفها
قال أبو العيناء لبعض سماسرة الحمير: اشتر لي حماراً لا بالطويل اللّاحق، ولا بالقصير
اللاصق؛ إن خلا الطريق تدفّق، وإن كثر الزّحام ترفّق؛ لا يصادم بي السّواري، ولا يدخل
تحت البواري؛ إن كثرت علفه شكر، وإن قلّلته صبر؛ وإن ركبته هام، وإن ركبه غيري
قام. فقال له السمسار: إن مسخ الله بعض قضاتنا حماراً أصبت حاجتك، وإلاّ فليست
موجودة.
قيل للفضل الرّقاشيّ: إنك لتؤثر الحمير على جميع الدوابّ؛ قال: لأنها أرفق وأوفق؛ قيل: ولم
ذاك؟ قال: لأنها لا تستبدل بالمكان، على طول الزمان؛ ثم قال: هي أقلّ داءً، وأيسر دواءً،
وأخفض مهوىً، وأسلم صرعاً؛ وأقلّ جماحاً، وأشهر فرهاً، وأقلّ بطراً؛ يزهى راكبه وقد

بواضع بركوبه؛ ويعدّ مقتصداً وقدٍ أسرف في ثمنه.
وقال احمد بن طاهر يصف حماراً:
شيةٌ كأنّ الشمس فيها أشرقت وأضاء فيها البدر عند تمامه
وكأنّه من تحت راكبه إذا ما لاح، برقٌ لاح تحت غمامه
ظهرٌ كجري الماء لين ركوبه في حالتي إتعابه وجمامه
سفهت يداه على الثّرى فتلاعبت في جريه بسهوله وإكامه
عن حافرٍ كالصّخر إلاّ أنّه أقوى وأصلب منه في استحكامه
ما الخيزران إذا انثنت أعطافه في لين معطفه ولين عظامه
عنقٌ يطول بها فضول عنانه ومحزّمٌ يغتال فضل حزامه
وكأنّه بالرّيح منتعلٌ، وما جري الرياح كجريه ودوامه
أخذ المحاسن آمناً من عيبه وحوى الكمال مبرّأً من ذامه
وقال آخر:
لا تنظرنّ إلى هزال حماري وانظر إلى مجراه في الأخطار
متوقّدُ جعل الذكاء إمامه فكأنما هو شعلةٌ من نار
عادت عليه الريح عند هبوبها فكأنه ريح الدّبور يباري
هذا ما ورد في مدحها.
وأمّا ما جاء فيها على سبيل الذم، فمن ذلك قولهم: "أضلّ من حمارٍ أهله". وقولهم:
"أخزى الله الحمار مالاً، لا يزكّي ولا يذكّي". ومنه قول جرير بن عبد الله: لا تركب حماراً،
فإنه إن كان حديداً أتعب يديك، وإن كان بليداً أتعب رجليك.
والمثل مضروبٌ في الحمير المهزولة بحمار طيّاب، كما يضرب المثل ببغلة أبي دلامة.
قال شاعر:
وحمارٍ بكت عليه الحمير دقّ حتى به الرياح تطير
كان فيما مضى يسير بضعفٍ وهو اليوم واقفٌ لا يسير
كيف يمشي وليس شيءٌ يراه وهو شيخٌ من الحمير كبير
لمح القتّ مرّةً فتغنّي بحنينٍ وفي الفؤاد زفير:
ليس لي منك يا ظلوم نصيبٌ أنا عبد الهوى وأنت أمير
وقال خالد الكاتب:
وقائلٍ إنّ حماري غدا يمشي إذا صوّب أو أصعدا
فقلت لكنّ حماري إذا أحثثته لا يلحق المقعدا
يستعذب الضرب فإن زدته كاد من اللّذّة أن يرقدا
وقال أبو الحسين الجزّار:
هذا حماري في الحمير حمار في كلّ خطوٍ كبوةٌ وعثار
قنطار تبنٍ في حشاه شعيرةٌ وشعيرةٌ في ظهره قنطار
ولمّا مات حمار هذا الشاعر داعبه شعراء عصره بمراثٍ وهزليّات؛ فقال بعضهم:
مات حمار الأديب قلت قضى وفات من أمره الذي فاتا
مات وقد خلّف الأديب ومن خلّف مثل الأديب ما ماتا
ونحو هذين البيتين قول الآخر:
قال حمار الحكيم توما لو أنصفوني لكنت أركب

لأنني جاهلٌ بسيطٌ وصاحبي جاهلٌ مركّب
وكتب أبو الحسن بن نصر الكاتب إلى صديق له اشترى حماراً، يداعبه. قال من رسالة:
قد عرفت، أبقاك الله، حين وجدت من سكرة الأيّام إفاقه، وآنست من وجهها العبوس
طلاقه؛ كيف أجبت داعي همّتك، وأطعت أمر مروءتك؛ فسررت بكمون هذه المنقبة التي
أضمرها الإعدام، ونمّ على كريم سرّها الإمكان؛ واستدللت منها على خبايا فضل،
وتنبّهت منها على مزايا نبل؛ كانت مأسورةً في قبضة الإعسار، وكاسفةً عن سدفة الإقتار؛
وقلت: أيّ قدمٍ أحقّ بولوج الرّكب من قدميه، وحاذٍ أولى ببطون القبّ من حاذيه؛ وأيّ
أنامل أبهى من أنامله إذا تصرّفت في الأعنّة يسراها، وتحتّمت بالمخاصر يمناها؛ وكيف
يكون ذلك الخلق العظيم، والوجه الوسيم؛ وقد بهر جالساً، وإذا طلع فارساً!. ثم انّهمت
آمالي بالغلوّ فيك، واستبعدت مناقضة الزمان بإنصاف معاليك؛ فقبضت ما انبس من
عنانها، وأخمدت ما اشتعل من نيرانها؛ حتى وقفت على صحيحة الشك. أرجو علوّ
همّتك بحسن اختيارك، وأخشى منافسة الأيّام في درك أوطارك؛ فإنها كالظّأنّة في ولدها،
والمجاذبة بالسّوء في واحدها؛ يدني الأمل مسارّها، ويرجئ القلق حذارها؛ حتى أتتنا
الأنباء تنعى رأيك القائل، وتفلّ عزمك الآفل؛ بوقوع اختيارك على فاضح صاحبه، ومسلم
راكبه؛ الجامد في حلبة الجياد، والحذق بالحران والكياد؛ السّوم دينه ودأبه، والبلادة طبيعته
وشأنه؛ لا يصلحه التأديب، ولا تقرع له الظّنابيب؛ إن لحظ عيراً نهق، أو لمح أتاناً شبق، أو
وجد روثاً شمّ وانتشق؛ فكم هشم سنّاً لصاحبه، وكم سعط أنف راكبه؛ وكم استردّه
خائفاً فلم يردده، وكم رامه خاطباً فلم يسعده؛ يعجل إن أحبّ الأناة والإبطاء، ويرسخ إن
حاول الحثّ والنّجاء؛ مطبوعٌ على الكيد والخلاف، موضوع للضّعة والاستخفاف؛ عزيزٌ
حتى تهينه السّياط، كسولٌ ولو أبطره النّشاط؛ ما عرف في النّجابة أباً، ولا أفاد من الوعي
أدباً؛ الطالب به محصور، والهارب عليه مأسور؛ والممتطي له راجل، والمستعلي بذروته

نازل؛ له من الأخلاق أسوؤها، ومن الأسماء أشنؤها، ومن الأذهان أصدؤها، ومن القدود
أحقرها؛ تجحده المراكب، وتجهله المواكب؛ وتعرفه ظهور السوابك، وتألفه سباطات
المبارك. والله الموفق.
الباب الثالث
الإبل والبقر والغنم
الإبل
الإبل جمع لا واحد لها من لفظها. والذّكر منها جمل، والأنثى ناقة. والبعير يقع عليهما.
ودليل ذلك قول بعض الشعراء:
لا نشتهي لبن البعير وعندنا عرق الزّجاجة واكف المعصار
والإبل من منن الله الجسيمة على خلقه، ومما منحهم به من إرفاقه ورزقه. قال الله تعالى:
"والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمالٌ حين تريحون وحين
تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلاّ بشقّ الأنفس إنّ ربّكم لرءوف
رحيمٌ". وقال تعالى: "أولم يروا أنّا خلقنا لهم ممّا عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون.
وذّللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون. ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون".
ولنذكر ما جاء من لغة العرب في الإبل من تسميتها من حين تولد إلى أن تتناهى سنّها،
وأسماء ما يركب منها ويحمل عليه، وما اختصّت به النوق من الأسماء والصّفات؛ ونذكر
ألوان الإبل وما قالوه في ترتيب سيرها، وفي المسير عليها والنزول؛ ثم نذكر بعد ذلك
أصناف الإبل وما قيل في عاداتها وطبائعها. فإذا أوردنا ذلك، ذكرنا ما ملكه رسول الله
صلى الله عليه وسلم منها، وما جاء في أوصاف الإبل من الشعر؛ فنقول وبالله التوفيق.
تسميتها
من حين تولد إلى أن تتناهى سنّها
فقد قالت العرب: ولدها حين يسلّ من أمّه سليلٌ ثم سقب وحوار إلى سنة، وجمعه
أحورة وحيران. وهو فصيل إذا فصل عن أمّه. وهو في السنة الثانية ابن مخاضٍ، لأن أمّه
تلقح فتلحق بالمخاض وهي الحوامل، وواحدتها من غير لفظها خلفة، والأنثى بنت مخاض.
فإذا دخل في الثالثة فهو ابن لبون، والأنثى بنت لبون؛ لأن أمّه صارت ذات لبنٍ. وهو في

الرابعة حقٌّ؛ لأنه استحقّ أن يحمل عليه. وهو في السنة الخامسة جذعٌ. وفي السادسة ثنيٌّ
لأنّه يلقى ثنيّته؛ والأنثى نثيّة. وهو في السابعة رباعٌ. وفي السنة الثامنة سديس وسدس
للذكر والأنثى. وهو في التاسعة بازلٌ إذا فطر نابه، أي طلع. قال الشاعر:

وابن اللّبون إذا ما لزّ في قرنٍ لم يستطع صولة البزل القناعيس

ثم هو بعدها بسنة مخلف عامٍ وبازل عامٍ ثم مخلف عامين وبازل عامين؛ ثم يعوّد، أي يصير
عوداً وهرماً وماجّاً.
قالوا: والقلوص منها كالجارية من الناس، والقعود كالغلام، والجمع قلائص وقعدانٌ. والبكر:
الفتيّ، والبكارة جمع، والأنثى بكرةٌ. ويقال: جملٌ راشنٌ وناقة راشةٌ إذا كثر الشّعر في
آذانهما.

أسماء ما يركب منها
ويحمل عليه

فقد قالوا: المطيّة اسمٌ جامع لكل ما يمتطى من الإبل. فإذا اختارها الرجل لمركبه لتمام
خلقتها ونجابتها فهي راحلة. وفي الحديث النبويّ صلوات الله تاعلى وسلامه على قائله:
"النّاس كإبلٍ مائةٍ لا يكاد يوجد فيها راحلة". فإذا استظهر صاحبها بها وحمل عليها فهي
زاملة، والناس يقولون في الرجل العاقل الثابت في أموره: رجل زاملةٌ، يريدون بذلك مدحه.
ووصف ابن بشير رجل فقال: ليس ذلك من الرّواحل إنما هو من الزّوامل، فإذا وجّهها مع
قوم ليمتاروا عليها فهي عليقةٌ.

ما اختصّت به النوق
من الأسماء والصّفات

فإنهم يقولون فيها: كهاةٌ وجلالةٌ وهي العظيمة، وعطموس ودعبلة وهي الحسنة الخلقة
التامّة الجسم، وكوماء وهي الطويلة السّنام، ووجناء وهي الشديدة القويّة اللحم. واشتقاقه
من الوجهين، وهي الحجارة. فإن اردادت شدّتها فهي عرمسٌ وعيرانةٌ. فإذا كانت شديدةً
كثيرة اللحم فهي عنتريسٌ وعرندسٌ متلاحكةٌ. فإذا كانت ضخمةً شديدة فهي دوسرةٌ
وعذافرةٌ. فإذا كانت حسنةً جميلةً فهي شمردلةٌ. فإذا كانت عظيمة الجوف فهي مجفرةٌ.
فإذا كانت قليلة اللحم فهي حرجوجٌ وحرفٌ ورهبٌ.

أوصافها في السّير
إذا كانت ليّنة اليدين في سيرها فهي خنوفٌ. فإذا كان بها هوجٌ من سرعتها فهي هوجاء
وهوجلٌ. فإذا كانت تقارب الخطو فهي حاتكةٌ. فإذا كانت تمشي وكأنها مقيّدة الرّجل
وهي تضرب بيديها فهي راتكةٌ. فإذا كانت سريعة فهي عصوفٌ ومشمعلةٌ وعيهلٌ وشملالٌ
ويعملة وهمرجلة وشمذر وشمّلة وشمردلةٌ. فإذا كانت تجرّ رجليها في المشي فهي مزحافٌ
وزحوفٌ. فإذا كانت لا تقصد في سيرها من نشاطها فهي عجرفيّة. قال الأعشى:
وفيها إذا ما هجّرت عجرفية إذا خلت حرباء الظّهيرة أصيدا
ألوان الإبل
فإنهم قالوا: إذا لم يخالط حمرة البعير شيءٌ فهو أحمر. فإن خالطها السواد فهو أرمك.
فإذا كان أسود يخالط سواده بياضٌ كدخان الرّمث فهو أورق.
فإذا اشتدّ سواده فهو
جونٌ.فإن كان ابيض فهو آدم. فإن خالط بياضه حمرةٌ فهو أصهب. فإن خالطته شقرةٌ فهو
أعيس. فإن خالطت خضرته صفرةٌ وسوادٌ فهو أحوى. فإذا كان أحمر يخالط حمرته
سوادٌ فهو أكلف.
ترتيب سيرها
فالعنق وهو السير المسبطر. فإذا ارتفع عنه قليلاً فهو التّزيّد. فإذا ارتفع عن ذلك فهو
الذّميل. فإذا ارتفع فهو الرّسيم. فإذا دارك المشي وفيه قرمطةٌ فهو الحفد. فإذا ارتفع عن
ذلك وضرب بقوائمه كلّها فذاك الارتباع والالتباط. فإذا لم يدع جهداً فذاك الادرنفاق.
المسير عليها والنزول للرّاحة والإراحة
فقد قالا: إذا سار القوم نهاراً ونزلوا ليلاً فذاك التّأويب. فإذا ساروا ليلاً ونهاراً فذاك
الإسآد. فإذا ساروا من أوّل الليل فهو الإدلاج. فإذا ساروا من آخر الليل فهو الادّلاج.فإذا
ساروا مع الصبح فهو التّغليس. فإذا نزلوا للاستراحة في نصف النهار فهو التّغوير. فإذا نزلوا
في نصف الليل فهو التّعريس.
أصناف الإبل وطبائعها
والإبل ثلاثة أصنافٍ: يمانيٌّ، وعرابيٌّ، وبختيٌّ. فاليمانيّ هو النّجيب، وينزّل بمنزلة العتيق
من الخيل. والعرابيّ كالبرذون. والبختيّ كالبغل. ويقال: البخت ضأن الإبل. وهي متولّدةٌ

عن فساد منيّ العراب. وحكى الجاحظ أنّ منهم من يزعم أنّ في الإبل ما هو وحشيٌّ
وأنها تسكن أرض وبار، وهي غير مسكونة بالناس. وقالوا: ربما ندّ الجمل منها في الهياج
فيحمله ما يعرض له منها على أن يأتي أرض عمان، فيضرب في أدنى هجمةٍ من الإبل؛
فالإبل المهريّة من ذلك النّتاج. وتسمّى الإبل الوحشيّة الحوش. ويقولون: إنها بقايا إبل عادٍ
وثمود ومن أهلكه الله من العرب. والمهريّة منسوبة إلى مهرة قبيلة باليمن؛ وهي سريعة
العدو. ويعلفونها من قديد سمكٍ يصاد من بحر عمان.
وأمّا البخت، فمنها ما يرهوك مثل البراذين؛ ومنها ما يجمز جمزاص ويرقل إرقالاً. وفي
البخت ماله سنامان في طول ظهره كالسّرج، ولبعضها سنامان في العرض عن اليمين وعن
الشمال، وتسمّى الخراسانية.
قالوا: والجمل لا ينزو إلاّ مرّةً واحدةً يقيم فها النهار أجمع ونزل فيها مراراً كثيرة، فيجيء
منها ولدٌ واحدٌ. وهو يخلو في البراري حالة النّزو، ولا يدنو منه أحدٌ من الناس إلاّ راعيه
الملازم له. وذكره صلبٌ جدّاً؛ لأنه من عصبٍ. والأنثى تحمل سنة كاملة؛ وتلقح لمضيّ
ثلاث سنين، وكذلك الذكر ينزو في هذه المدّة، ولا ينزو عليها إلا بعد سنةٍ من يوم وضعها.
وفيه من كرم الطّباع أنه لا ينزو على أمّهاته ولا أخواته. ومتى حمل على أن يفعل حقد على
من ألزمه؛ وربما قتله. وليس في الحيوان من يحقد حقده. وقد قالوا: إنّ العرب إنما
اكتسبت الأحقاد لأكلها لحوم الجمال ومداومتها.
وفي طبع الجمل الاهتداء بالنّجم، ومعرفة الطّرق، والغيرة، والصولة، والصبر على الحمل
الثقيل وعلى العطش. والإبل تميل إلى شرب الماء الكدرة الغليظة؛ وهي إذا وردت ماء
الأنهار حرّكته بأرجلها حتى يتكدّر. وهي من عشّاق الشمس. وهي تتعرّف النبات
المسموم بالشّمّ من مرّة واحدةٍ فتجنّبه عند رعيه ولا تغلط إلا في اليبيس خاصّةً. وزعم
أرسطو: أنها تعيش ثلاثين سنة في الغالب. وقال صاحب كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر
ينقل عن غيره: وقد رئي منها ما عاش مائة سنةٍ. وكانت للعرب عوائد في إبلها أنها إذا

أصاب إبلهم العرّ كووا السليم لذهب العرّ عن السقيم. وكانوا إذا كثرت إبلهم فبلغت
الألف فقئوا عين الفحل؛ فإن زادت على الألف فقئوا عينه الأخرى. وقد ذكرنا في أوابد
العرب، وهو في الباب الثاني من الفن الثاني من هذا الكتاب في السفر الثالث من هذه
النسخة. والله أعلم بالصواب.
ما ملكه الرسول من الإبل
كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال لها القصواء.
ذكر ابن سعد عن محمد بن
عمر قال حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم التّيميّ عن أبيه قال: كانت القصواء من نعم
بني الحريش، ابتاعها أبو بكر رضي الله عنه وأخرى معها بثمانمائة درهم فأخذها رسول
الله صلى الله عليه وسلم منه بأربعمائة؛ فكانت عنده حتى نفقت. وهي التي هاجر عليها
صلى الله عليه وسلم. وكانت حين قدم المدينة رباعيةً، وكان اسمها القصواء والجدعاء
والعصباء، وكان في طرف أذنها جدع، وكانت لا تسبق كلما دفعت في سباق. فلما كان في
سنة ستٍّ من الهجرة سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الرّواحل، فسبق قعودُ
لأعرابيّ القصواء، ولم تكن تسبق قبلها؛ فشقّ ذلك على المسلمين؛ فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم: "حقٌّ على الله ألاّ يرفع شيئاً من الدنيا إلاّ وضعه". وعن قدامة بن عبد
الله قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجّته يرمي على ناقة صهباء. وعن
سلمة بن نبيط عن أبيه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجّته بعرفة على
جمل أحمر. وذكر أبو إسحاق أحمد ابن محمد بن إبراهيم الثّعلبيّ في تفسيره: أنّ النبيّ صلى
الله عليه وسلم بعث يوم الحديبية خراش بن أميّة الخزاعيّ قبل عثمان إلى قريشٍ بمكة،
وحمله على جملٍ له يقال له الثّعلب؛ ليبلّغ أشرافهم عنه ما جاء له؛ فعقروا جمل رسول الله
صلى الله عليه وسلم وأرادوا قتله؛ فمنعته الأحابيش، فخلّوا سبيله. وكان للنبيّ صلى
الله عليه وسلم عشرون لقحة بالغابة وهي على بردي من المدينة من طريق الشام وكان فيه
أبو ذرٍّ، وكان فيها لقائح غزرُ: الحنّاء والسّمراء والعريّس والسّعديّة والبغوم واليسيرة والرّيّا.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فرّقها على نسائه؛
فكانت السّمراء لقحةً غزيرة
لعائشة؛ وكانت العريّس لأمّ سلمة؛ فأغار عليها عيينة بن حصن في أربعين فارساً
فاستاقوها وقتلوا ابن أبي ذرٍّ؛ ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى
انتهوا إلى ذي قردٍ فاستنقذوا منها عشراً وأفلت القوم بما بقي؛ وقيل: بل استنقذها كلّها
منهم سلمة بن الأكوع حين يقول: ما خلق الله شيئاً من ظهر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا
خلّفته وراء ظهري واستنقذته منهم؛ وذلك في شهر ربيع الأوّل سنة ستّ.
وكانت لقاحه صلى الله عليه وسلم، التي كان يرعاها يسارٌ مولاه بذي الجدر ناحية قباء
قريباً من عير على ستة أميال من المدينة، خمس عشرة لقحةً غزاراً استاقها العرنيّون وقتلوا
يساراً وقطعوا يده ورجله وغرزوا الشوك في لسانه وعينيه حتى مات. فبعث رسول الله
صلى الله عليه وسلم في إثرهم كرز بن جابر الفهريّ في عشرين فارساً؛ فأدركوهم
وربطوهم وأردفوهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة، فقطّعت أيديهم وأرجلهم وسملت
أعينهم وصلبوا. وفيهم نزل: "إنّما جزاء الّذين يحاربون الله ورسوله" الآية؛ وذلك في شوّال
سنة ستّ. وفقد النبيّ صلى الله عليه وسلم منها لقحةً تدعى الحنّاء؛ فسأل عنها فقيل:
نحروها.
وقيل: كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سبع لقائح تكون بذي الجدر؛ وتكون
بالجمّاء: لقحةٌ تدعى مهرة وكانت غزيرةً، أرسل بها سعد بن عبادة من نعم بني عقيل،
ولقحة تدعى بردة تحلب كما تحلب لقحتان غزيرتان، أهادها له الضّحاك بن سفيان
الكلابيّ، والشّقراء والرّيّا والسّمراء والعريّس واليسيرة والحنّاء يحلبن ويراح إليه بلبنهنّ كلّ
ليلة.
وفي غزاة بدر غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم جمل أبي جهل وكن مهريّاً يغزو عليه
ويضرب في لقاحه. ذكره الطبريّ.
وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدى عام

الحديبية في هداياه جملاً لأبي جهل في رأسه برةٌ من فضّة؛ ليغيظ بذلك المشركين. ذكره ابن إسحاق.

وقيل: كانت للنبي صلى الله عليه وسلم لقحة اسمها مروة.

وقال ابن الكلبيّ: إن عياض بن حمّاد أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم نجيبة، وكان صديقاً له إذا قدم عليه مكة لا يطوف إلا في ثيابه؛ فقال له: أسلمت؟ قال: لا؛ قال: إن الله نهاني عن زبد المشركين. فأسلم؛ فقبلها.

وصف الإبل

قال بعض من عظّم شأن الإبل: إن الله تعالى لم يخلق نعماً خيراً من الإبل؛ إن حملت أثقلت، وإن سارت أبعدت، وإن حلبت أروت، وإن نحرت أشبعت.

وقال بشامة يصف ناقةً:

كأنّ يديها إذا أرقلت وقد حرن ثم اهتدين السّبيلا
يدا سابح خرّ في غمرةٍ وقد شارف الموت إلا قليلا
إذا أقبلت قلت مشحونةٌ أطاعت لها الرّيح قلعاً جفولا
وإن أدبرت قلت مذعورةٌ من الرّبد تتبع هيقاً ذمولا

وقال أبو تمام:

وبدّلها السّري بالجهل حلماً وقدّ أديمها قدّ الأديم
بدت كالبدر في ليلٍ بهيم وآبت مثل عرجونٍ قديم

وقال الخطيم الخزرجيّ:

وقد ضمرت حتى كأن وضينها وشاح عروسٍ جال منها على خصر

وقال ابن دريد:

خوصٌ كأشباح الحنايا ضمّرٌ يرعفن بالأمشاج من جذب البرى
يرسبن في بحر الدّجى، وفي الضّحى يطفون في الآل إذا الآل طفا

وقال عبد الجبّار بن حمديس:

ومن سفن البرّ سبّاحةٌ من الآل بحراً إذا ما اعترض
لها شرّةٌ لا تبالي بها أطال بها سبسبٌ أم عرض
إذا خفق البرد بي خلتني على كورها طائراً ينتفض
وإن يعرض البعض من سيرها ترى العيس من خلفها تنقرض
هي القوس إنّي لسهمٌ لها أصيب بكر فلاة غرض

وقال الشريف البياضيّ:

نوقٌ تراها كالسّفي ن إذا رأيت الآل بحرا
كتب الوجا بدمائها في مهرق البيداء سطرا
لا تستكين من اللّغو ب إذا ولا يعرفن زجرا
وكأن أرجلهن تط لب عند أيديهنّ وترا

وقال أبو عبادة البحتريّ:

وخدانالقلاص حولاً إذا قا بلن حولاً من أنجم الأسحار
يترقرقن كالسّراب وقد خض ن غماراً من السّراب الجاري

كالقسيّ المعطّفات بل الأس هم مبريّةً بل الأوتار
وقال ذو الرّمّة يصف ناقةً:
رجيعة أسفارٍ كأن زمامها شجاعٌ على يسرى الذّراعين مطرق
ومنه أخذ المتنبي فقال:
كأنّ على الأعناق منها الأفاعيا
وقال أبو نواس يصفها بالسرعة:
وتجشّمت بي هول كلّ تنوفةٍ هوجاء فيها جرأةً إقدام
تذر المطيّ وراءها وكأنها صفٌّ تقدّمهنّ وهي إمام
وقال الفرزدق منشداً:
تنفي يداها الحصى في كلّ هاجرة نفي الدّراهيم تنقاد الصّيارِيف
وقال آخر:
تطير مناسمها بالحصى كما نقد الدرهم الصّيرف
وقال الغطمّش:
كأن يديها حين جدّ نجاؤها يدا سابح في غمرة يتبوّع
وقال آخر في نوق:
خوصٌ نواجٍ إذا حثّ الحداة بها حسبت أرجلها قدّام أيديها
وقال القطاميّ:
يمشين رهواً فلا الأعجاز خاذلةٌ ولا الصدور على الأعجاز تتّكل
فهنّ معترضاتٌ والحصى رمضٌ والرّيح ساكنةٌ والظلّ معتدل
وقال أبو نواس:
ولقد تجوب بي الفلاة إذا صام النّهار وقالت العفر
شدنيّةٌ رعت الحمى فأتت مثل الجبال كأنها قصر
وقال الأحمر:
حمراء من نسل المهاري نسلها إذا ترامت يدها ورجلها
حسبتها غيري استفزّ عقلها أتى التي كانت تخاف بعلها
البقر الأهلية
عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "بينا رجل يسوق بقرةً
إذ ركبها فضربها فقالت إنّا لم نخلق لهذا إنما خلقنا للحرث"؛
فقال الناس: سبحان الله بقرةٌ
تكلّم! قال: "فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر" وما هما ثمّ.
وقال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان: إنّ الفحل من البقر ينزو إذا تمّت له سنةٌ من عمره؛
وقد ينزو لعشرة أشهر. والبقرة إذا ولدت تحدّر لبنها من يومها، ولا يوجد لها لبنٌ قبل أن
تضع. وهي تحمل تسعة أشهر وتضع في العاشر؛ فإن وضعت قبل ذلك لا يعيش ولدها.
وربما وضعت اثنين، وهو نادر. وهم يتشاءمون بها إذا وضعت اثنين. وإذا مات ولدها أو

ذبح لا يسكن خوارها ولا يدرّ لبنها؛ ولذلك الرّعاء يسلخون جلد ولدها ويحشونه لتدرّ له
وتسكن، ويسمونه البوّ. والبقر يحبّ الماء الصافي، بضدّ الخيل والجمال. وقال المسعوديّ في
كتابه المترجم بمروج الذهب: رأيت بالرّيّ نوعاً من البقر تبرك كما تبرك الإبل وتحمل فتثور
بحملها، والغالب عليها حمرة الحدق. وحكى أسامة بن منقذ في كتابه أن في بعض البلدان
بقراً لها أعرافٌ كالخيل. ولعلّها الأبقار التي توجد فيها البراجم. والبراجم في أطراف
أذنابها وفي أكتافها. ويقال: إنّ أبقار البراجم تخرج من بحر الصّين وهي تلد وترضع؛ ولذلك
يقال البراجم البحريّة. وبأرض مصر بناحيتي دمياط وتنّيس بقر بسمى بقر الخيس، ضخامٌ
حسان الصّور والشّيات، ولها قرون كالأهلّة، وفيها نفورٌ وتوحّشٌ، لا ينتفع بها في العمل
وإنما ينتفع بألبانها. وهي لا تعلف الحبّ، ومأواها حيث يكون العشب والماء الدائم؛ ولها
أسماء يدعونها بها إذا أرادوا حلها، فتتقدّم إليهم.
وقد وصف الشعراء البقر في أشعارها؛ فمن ذلك قول أحمد بن علّويه الأصبهانيّ:

يا حبّذا محضها ورائبها وحبّذا في الرّجال صاحبها
عجّولةٌ سمحةٌ مباركةٌ ميمونةٌ طفّحٌ محالبها
تقبل للحلب كلما دعيت ورامها للحلال حالبها
فتيّةٌ سنّها، مهذّبةٌ معنّفٌ في النّدى عائبها
كأنها لعبةٌ مزيّنةٌ يطير عجباً بها ملاعبها
كأنّ ألبانها جني عسلٍ يلذّها في الإناء شاربها
عروس باقورةٍ إذا برزت من بين أحيالها ترائبها
كأنها هضبةٌ إذا انتسبت أو بكرةٌ قد أناف غاربها
تزهى بروقين كاللّجين إذا مسّهماً بالبنان طالبها
لو أنها مهرةٌ لما عدمت من أن يضمّ السرور راكبها

وأنشدني شمس الدين بن دانيال لنفسه:

لله عجلة خيسٍ صفراء ذات دلال
تريك عيني مهاةٍ من تحت قرني غزال
قد سربلت بأصيلٍ وتوّجت بهلال

وقال شاعر يصف صوت الحلب:

كأنّ صوت شخبها المرفضّ كشيش أفعى أجمعت لعضّ
وهي تحكّ بعضها ببعض

وقال:

كأن صوت شخبها غديّه هفيف ريح أو كشيش حيّه

الجاموس

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ:

والجواميس هي ضأن البقر. والجاموس أجزع الحيوان من البعوض وأشدّها هرباً منه إلى
الماء؛ وهو يمشي إلى الأسد رخيّ البال، رابط الجأش، ثابت الجنان. وقد حكي عن
المعتصم بالله العباسيّ أنه أبرز للأسد جاموستين فغلبتاه، ثم أبرز له جاموسةً ومعها ولدها
فغلبته وحمت ولدها، ثم أبرز له جاموساً مفرداً فواثبه ثم أدبر عنه. هذا على ما في
الأسد من القوّة في فمه وكفّه والجرأة العظيمة والوثبة وشدّة البطش والصبر والحضر والطّلب
والهرب؛ وليس في الجاموس، ولا يستطيل بغير قرنه، وليس في قرنه حدّة قرن بقر الوحش؛
فإذا قوي الجاموس مع ذلك حتى يقاوم الأسد دلّ على قوّة عظيمة. ولذلك قدّم الجاحظ
الجاموس على الأسد، وعلّل تقديمه عليه بهذه العلّة. وليس ما حكي عن المعتصم في أمر
الجاموس وغلبته للأسد بعجيب؛ فإنّ الجواميس بالأغوار تقاتل الأسد وتمانعه وتدفعه فلا
يقدر على قهرها. وأصحاب الجواميس هناك منهم من يغلّف قرونها بالنّجاس ويحدّدون
أطرافه، ويقصدون بذلك إعانته على حرب الأسد وقتاله.
والجاموس عندنا بالديار المصرية يقاتل التّمساح الذي هو أسد البحر ويتمكّن منه ويقهره في
الماء؛ فهو قد جمع بين قتال أسد البرّ وأسد البحر. وله قدرةٌ عظيمة على طول المكث في
قعر البحر. والتماسيح لا تكاد تأوي موارد الجواميس من بحر النيل وتتجنّب أماكنها.
والجواميس في أرض الشأم من الأغوار والسواحل والأماكن الحارّة الكثيرة المياه ينتفع بها في
الحرث والحمولة وجرّ العجل وحلب ألبانها. وأمّا في الدّيار المصرية فلا يستعملونها البتّة ولا
ينتفعون بها إلا بما يتحصّل من ألبانها ونتاجها.
وفحول الجواميس يكون بينها قتالٌ شديدٌ ومحاربةٌ؛ فأيّما فحلٍ غلب وقهره خصمه، لا يأوي
ذلك المراح، بل ينفرد بنفسه في الجزائر الكثيرة العشب شهوراً وهو يأكل من تلك الأعشاب
ويشرب من ماء النيل، وينفرد خصمه بالإناث؛ فإذا علم الهارب من نفسه القوّة والجلد،
رجع إلى المراح وقد توحّش واستطال، ويكون خصمه قد ضعفت قواه فلا يقوم بمحاربته؛
ولكنه لا يولّي عنه إلا بعد محاربته. فإذا قهره ترك الآخر المراح وتوجّه إلى جزيرة وفعل كما

فعل الأوّل وعاد إلى خصمه.
ولبن الجاموس من ألذّ الألبان وأدسمها. والرّعاء يسمّون كلّ جاموسة باسم تعرفه إذا
دعيت به إلى الحلب، فتجيب وتأتيه وتقف حتى يحلبها.
الغنم الضّأن والمعز
روي عن أنس بن مالك وعطاء رضي الله عنهما: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم
قال: "الغنم بركةٌ موضوعةٌ". وعن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم: "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال
ومواقع القطر يفرّ بدينه من الفتن". وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال: "رأس الكفر نحو المشرق والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل والفدّادين
أهل الوبر والسكينة في أهل الغنم".
ومن فضل الغنم ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال:
"ما بعث الله نبيّاً إلا ورعي الغنم". فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: "نعم كنت
أرعاها على قراريط لأهل مكة". وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنم مائة
شاةٍ لا يريد أن تزيد كلّما ولّد الراعي بهمةً ذبح مكانها شاةً. وقال ابن الأثير في تاريخه:
وكان له شاةٌ تسمى غوثة، وقيل غيثة، وعنزٌ تسمى اليمن. وذكر بعض المتأخّرين من أهل
الحديث أنّ مكحولاً سئل عن جلد الميتة، فقال: كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم
شاة تسمى قمر؛ ففقدها فقال: "ما فعلت قمر؟" فقالوا: ماتت يا رسول الله؛ قال: "ما
فعلتم بإهابها؟" قالوا: ميتة؛ قال: "دباغها طهورها".
قال الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدّمياطي رحمه الله تعالى في كتاب فضل
الخيل: وكانت منائح رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنم سبعاً: عجرة وزمزم وسقيا
وبركة وورشة وأطلال وأطراف. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت لرسول الله
صلى الله عليه وسلم سبع أعنز منائح ترعاهنّ أمّ أيمن. قال: والمنيحة: الناقة والشاة
تعطيها غيرك فيحلبها ثم يردّها عليك. قال أبو عبيدٍ: للعرب أربعة أسماء تضعها مواضع
العارية، وهي: المنيحة، والعريّة، والإفقار، والإخبال.

ترتيب سنّ الغنم
ولد الشاة حين تضعه ذكراً كان أو أنثى سخلةٌ وبهمةٌ. فإذا فصل عن أمّه فهو حملٌ
وخروفٌ. فإذا أكل واجترّ فهو بذجٌ وفرفورٌ. فإذا بلغ النّزو فهو عمروسٌ. وكلّ أولاد الضأن
والمعز في السنة الثانية جذعٌ؛ وفي الثالثة ثنيٌّ؛ وفي الرابعة رباع؛ وفي الخامسة سديسٌ؛ وفي
السادسة سالغٌ. وليس له بعد هذا اسم. ويقال لولد المعز: جفر ثم عريضٌ وعتود وعناقٌ.
والغنم، الضأن والمعز، تضع حملها في خمسة أشهر. وتلد النعجة رأساً إلى ثلاثة، والعنز من
الرأس إلى أربعة. وينزو الذكر بعد مضيّ ستة شهور من ميلاده. وتحمل الأنثى بعد مضيّ
خمسة أشهر من يوم ولدت. ويجزّ صوف الضأن عنها في كل سنة. ولحوم الضأن من أطيب
اللّحمان؛ وكذلك ألبانها. وقد أطنب الجاحظ في المفاخرة بين الضأن والمعز وأطال وأتى
بالغثّ والسّمين.
وكتب أبو الخطّاب الصابي إلى الحسين بن صبرة جواباً عن رقعة أرسلها بلغ النّزو فهو
عمروسٌ. وكلّ أولاد الضأن والمعز في السنة الثانية جذعٌ؛ وفي الثالثة ثنيٌّ؛ وفي الرابعة رباع؛
وفي الخامسة سديسٌ؛ وفي السادسة سالغٌ. وليس له بعد هذا اسم. ويقال لولد المعز: جفر
ثم عريضٌ وعتود وعناقٌ. والغنم، الضأن والمعز، تضع حملها في خمسة أشهر. وتلد النعجة
رأساً إلى ثلاثة، والعنز من الرأس إلى أربعة. وينزو الذكر بعد مضيّ ستة شهور من
ميلاده. وتحمل الأنثى بعد مضيّ خمسة أشهر من يوم ولدت. ويجزّ صوف الضأن عنها في
كل سنة. ولحوم الضأن من أطيب اللّحمان؛ وكذلك ألبانها. وقد أطنب الجاحظ في
المفاخرة بين الضأن والمعز وأطال وأتى بالغثّ والسّمين.
وكتب أبو الخطّاب الصابي إلى الحسين بن صبرة جواباً عن رقعة أرسلها إليه في وصف
حملٍ أهداه إليه، جاء منها:
وصلت رقعتك؛ ففضضتها عن خطٍّ مشرق، ولفظٍ مؤنق؛ وعبارة مصيبة، ومعانٍ غريبة؛
واتّساع في البلاغة يعجز عنه عبد الحميد في كتابته، وسبحان في خطابته. وذكرت فيها
حملاً، جعلته بصفتك جملاً؛ وكان كالمعيديّ أسمع به ولا أراه. وحضر، فرأيت كبشاً

متقادم الميلاد، من نتاج قوم عاد؛ قد أفنته الدهور، وتعاقبت عليه العصور؛ فظننته أحد
الزوجين اللذين حملهما نوح في سفينته، وحفظ بهما جنس الغنم لذريّته. صغر عن الكبر،
ولطف في القدر؛ فبانت دمامته، وتقاصرت قامته؛ وعاد نحيفاً ضئيلاً، بالياً هزيلاً؛ بادي
السّقام، عاري العظام؛ جامعاً للمعايب، مشتملاً على المثالب؛ يعجب العاقل من حلول
الروح فيه؛ لأنه عظم مجلّد، وصوفٌ ملبّد؛ لا تجد فوق عظامه سلباً، ولا تلقى اليد منه إلا
خشباً؛ لو ألقي للسّبع لأباه، أو طرح للذئب لعافه وقلاه؛ وقد طال للكلأ فقده، وبعد
بالمرعى عهده؛ لم ير القتّ إلاّ نائماً، ولا الشعير إلا حالماً. وقد خيّرتني بين أن أقتنيه فيكون
فيه غنى الدهر، أو أذبحه فيكون فيه خصب الشّهر؛ فملت إلى استبقائه؛ لما تعلمه من
محبّتي في التوفير، ورغبتي في التّثمير؛ وجمعي للولد، وادّخاري لغد؛ فلم أجد فيه مستمتعاً
للبقاء، ولا مدفعاً للفناء؛ لأنه ليس بأنثى فيحمل، ولا بفتيٍّ فينسل، ولا بصحيح فيرعى، ولا
بسليم فيبقى؛ فملت إلى الثاني من رأييك، وعملت بالأخر من قوليك؛ وقلت: أذبحه
فيكون وظيفة للعيال، وأقيمه رطباً مقام قديد الغزال؛ فأنشدني وقد أضرمت النار،
وحدّدت الشّفار، وشمّر الجزّار:

أعيذها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسب الشّحم فيمنشحمه ورم

وما الفائدة لك في ذبحي! وإنما أنا كما قيل:

لم يبق إلاّ نفسٌ خافت ومقلةٌ إنسانها باهت

ليس لي لحم يصلح للأكل، فإنّ الدهر أكل لحمي؛ ولا جلدٌ يصلح للدّبغ، فإن الأيام مزّقت
أديمي؛ ولا صوفٌ يصلح للغزل، فإن الحوادث حصّت وبري. وإن أردتني للوقود فكفّ بعر
أدفأ من ناري، ولم تف حرارة جمري برائحة قتاري. ولم يبق إلاّ أن تطالبني بذحل أو بيني
وبينك دم. فوجدته صادقاً في مقالته، ناصحاً في مشورته. ولم أعلم من أيّ أموره أعجب:
أمن مماطلته الدّهر على البقاء، أم من صبره على الضّر والبلاء، أم من قدرتك عليه مع عوز
مثله، أم من إتحافك الصديق به على خساسة قدره. ويا ليت شعري إذا كنت والي سوق

الأغنام، وأمرك ينفذ في المعز والضأن؛ وكلّ حملٍ سمين، وكبش بطين؛ مجلوبٌ إليك، وموقوفٌ
عليك، تقول فيه فلا تردّ. وتريد فلا تصدّ؛ وكانت هديّتك هذا الذي كأنّه انشر من القبور،
أو أقيم عند النّفخ في الصّور؛ فما كنت مهدياً لو انك رجل من عرض الكتّاب، كأبي عليّ
وأبي الخطّاب! ما تهدي إلاّ كلباً أجرب، أو قرداً أحدب.
وقال شاعرٌ في هذا المعنى:

ليت شعري عن الخروف الهزيل ألك الذّنب فيه أم للوكيل
لم أجد فيه غير جلدٍ وعظمٍ وذنيبٍ له دقيقٍ طويل
ما أراني أراه يصلح إذ أص بح رسماً على رسوم الطّلول
لا لشيٍّ ولا لطبخ ولا بي ع ولا برّ صاحب وخليل
أعجفٌ لو مطفّلٌ نال منه لغدا تائباً عن التّطفيل

وقال شرف الدّين بن عين وقد أهدى له بعض أصدقائه خروفاً بعد ما مطله به:

أتاني خروفٌ ما تشكّكت أنّه حليف جويّ قد شفّه الهجر والمطل
إذا قام في شمس الظهرة خلته خيالاً سرى في ظلمةٍ ما له ظلّ
فناشدته: ما تشتهي؟ قال: قتّةً وقاسمته: ما شفّه؟ قال لي: الأكل
فأحضرتها خضراء مجّاجة الثرى منعّمةً ما خصّ أطرافها فتل
وظلّ يراعيها بعينٍ ضعيفةٍ وينشدها والدّمع في الخدّ منهلّ:
أتت وحياض الموت بيني وبينها وجادت بوصلٍ حين لا ينفع الوصل

وقال الحمدونيّ في المعزى:

أبا سعيدٍ لنا في شاتك العبر جاءت وما إن بها بولٌ ولا بعر
وكيف تبعر شاةٌ عندكم مكثت طعامها الأبيضان: الشمس والقمر
لو أنّها أبصرت في نومها علفاً غنّت له ودموع العين تنحدر:
يا مانعي لذّة الدنيا بما رحبت إني ليقنعني من وجهك النظر

وقال أيضاً:

ما أرى إن ذبحت شاة سعيدٍ حاصلاً في يديّ غير الإهاب
ليس إلاّ عظامها، ولو تراها قلت هذي أرزانٌ في جراب

وقال فيها:

لسعيدٍ شويهةٌ سلّها الضّرّ والعجف
قد تغنّت وأبصرت رجلاً حاملاً علف:
بأبي من بكفّه برء دائي من الدّنف
فأتاها مطمّعاً فأتته لتعتلف
فتولّى وأقبلت تتغنّى من الأسف:
ليته لم يكن وقف عذّب القلب وانصرف

القسم الرابع من الفن الثالث وفيه بابان

ذوات السموم
الباب الأوّل في ذوات السموم القواتل.
ويشتمل هذا الباب على ما قيل في
الحيّات والعقارب
الحيّات
الحيّات مختلفات الجهات جدّاً. وهي من الأمم التي يكثر اختلاف أجناسها في الصّور
والشّيم، والصّغر والعظم، وفي التعرّض للناس وفي الهرب منهم. فمنها ما لا يؤذي إلا أن
تطأها. ومنها ما يؤذي إذا وطئت في حماها. ومنها ما لا يؤذي في تلك الحال إلا أن تكون
على بيضها أو فراخها. ومنها ما لا يؤذي إلاّ أن يكون الناس قد آذوها مرّة. فأمّا الأسود
فإنه يحقد ويطالب ويكمن في المتاع حتى يدرك؛ وله زمانٌ يقتل فيه كلّ شيء نهشه. وأما
الأفعى فليس ذلك عندها، ولكنها تظهر في الصيف مع أوائل الليل إذا سكن وهج الرّمل أو
ظاهر الأرض، فتأتي قارعة الطريق حتى تستدير كالرّحى وتشخص رأسها؛ فمن وطئ
عليها أو مسّها نهشته. وهي من الحيّات التي ترصد؛ وهي تقتل في كل زمان وعلى كل
حال. والشّجاع يواثب ويقوم على ذنبه. والحيّات أصنافٌ كثيرة سنذكر ما أمكن ذكره
منها إن شاء الله.
والعرب تضر المثل في الظلم بالحيّة فيقولون: "أظلم من حيّةٍ"، لأنها لا تتخذ لنفسها بيتاً،
وكلّ بيت قصدت نحوه هرب أهله منه وأخلوه لها.
والحيّة مشقوقة اللسان، ولسانها أسود. وزعم بعض المفسرين لكتاب الله عز وجل أنّ
الله تعالى عاقب الحيّة، حين أدخلت إبليس في فمها حتى خاطب آدم وحواء وخدعهما،
بعشرة أشياء: منها شقّ لسانها؛ فلذلك ترى الحيّة إذا ضربت لتقتل كيف تخرج لسانها
لتري الضارب لها عقوبة الله تعالى، كأنها تسترحم. ويقال: إن من خصائص الحيّة أنّ عينها
إذا قلعت عادت، وكذلك نابها إذا قلع أو قطع بالكاز عاد بعد ثلاث ليالٍ؛ وكذلك ذنبها إذا
قطع عاد. وفي طباعها أنها تهرب من الرجل العريان، وتفرح بالنار وتطلبها وتعجب بها،
وباللبن والبطيخ واللّفّاح والخردل. وهي لا تضبط نفسها عن الشراب إذا شمّته؛ وإذا

وجدته شربت منه حتى تسكر؛ فربما كان السّكر سبب حتفها؛ لأنها إذا سكرت
خدرت. وتكره الحيّة ريح السّذاب ولا تملك نفسها معه، وربما اصطيدت به؛ وتكره ريح
الشّيح. والحيّة تذبح حتى تفرى أوداجها فتبقى أياماً لا تموت. ومتى ضربت بالقصب
الفارسيّ ماتت، وإن ضربت بسوط قد مسّه عرق الخيل ماتت. ويقال: إنها لا تموت
حتف أنفها إلا أن تقتل.
ومن أعجب ما شاهدته أنا من الأفاعي أنها قطّعت بحضوري بالبيمارستان المنصوري
بالقاهرة المعزّيّة في شهور سنة ستٍّ وسبعمائةٍ بسبب عمل الدّرياق الفاروق؛ وقطع من
رأسها وذنبها ما جرت العادة بقطعه، وسلخت وشقّ بطنها نظّفت وهي تختلج، ثم سلقت
وجرّد لحمها عن العظم، فنظرت إليه فإذا هو يختلج؛ فعجبت لذلك؛ وذكرته لرئيس الأطبّاء
علم الدّين المعروف بابن أبي حليقة وهو حاضر في المجلس، فقال: ليس هذا بأعجب مما
تراه الآن، وقال لي: استدع أقراص الأفاعي التي عملت من أكثر من سنة؛ فاستدعيتها،
فأحضرها الخازن وهي في العسل وقد دقّ لحم الأفاعي بعد سلقه وعجن بالسّميذ وجع
أقراصاً ووضع في العسل من أكثر من سنة؛ فقال لي: تأمّل الأقراص؛ فتأملتها فإذا هي
تضطرب اضطراباً خفيفاً.
وقال الجاحظ: وزعم صاحب المنطق أنّ الحيّات تنسلخ عن جلودها في كل عام في أوّل
فصل الربيع أو الخريف؛ وتبتدئ بالسّلخ من عيونها ويتمّ سلخها في يوم وليلة، ويصير داخل
الجلد هو الخارج. وإذا هرمت وعجزت عن السلخ وارتخى جسمها أدخلت جسمها بين
عودين أو في صدعٍ ضيقٍ حتى تنسلخ، ثم تأتي إلى عين ماء فتنغمس فيها فيشتدّ لحمها
يعود إلى قوّته وشدّته.
قال الجاحظ: وليس في الأرض مثل جسم الحيّة إلا والحيّة أقوى بدناً منه أضعافاً. ومن
قوّتها أنها إذا أدخلت صدرها في جحر أو صدع لم يستطع أقوى الناس وقد قبض على
ذنبها بكلتا يديه أن يخرجها، لشدّة اعتمادها وتعاون أجزائها؛ وربما انقطعت في يد الجاذب

لها. فإذا أراد أن يخرجها أرسلها بعض إرسالٍ ثم يجذبها كالمختطف لها. قال: ومن
أصناف الحيّات ما هو أزعر، وما هو أزبّ ذو شعر، ومنها ذوات قرون. ومنها ما يسمى
الأسود وهو ما إذا كان مع الأفاعي في جونةٍ وجاع ابتلعها من قبل رءوسها، ومتى رام ذلك
من غير جهة الرأس عضّته فقتلته. ومن أصنافها ما يسمى الأصلة، وهو ثعبان عظيم
جدّاً، وله وجه كوجه الإنسان؛ ويقال: إنه يصير كذلك إذا مرّت عليه ألوف من السنين.
وهو يقتل بالنظر وبالنفخ. ومنهم من يسمّي هذا النوع الصّلّ، ويقول: إنّ أصل خلقته على
هذه الصفة. وقال: وفي البادية حيّة يقال لها الحفّاث تأكل الفأر وأشباهه. وهي عظيمةٌ،
ولها وعيدٌ منكر ونفخٌ وإظهار للصولة، وليس وراء ذلك شيء؛ والجاهل ربما مات من الفزع
منها.
قالوا: والثعبان والأفعى فإنه يقتل بما يحدثه من الفزع؛ لأن الرجل إذا فزع تفتّحت مسامّه
ومنافسه، فيتوغّل السمّ في موضع الصّميم وأعماق البدن. فإن نهشت النائم والمغمى عليه
والمجنون والطفل الصغير لم تقتله البتّة. وزعم صاحب المنطق أنّ بالحبشة حيّاتٍ لها
أجنحةٌ. وأخبرني المولى شرف الدين أحمد بن البزديّ قال: كنت بمدينة الرّملة في شهور
سنة اثنتين وسبعمائة صحبة الصاحب شرف الدين بن الخليل ومعه القاضي الحاكم
وجماعةٌ كثيرة من الناس وفيهم عدولي وغيرهم؛ فنظرنا نحو السماء فإذا نحن بحيّتين
عظيمتين طائرتين في الهواء قاصدتين صوب البحر، كلّ منهما في غلظ الثنيانة، وإن إحداهما
مستقيمة في طيرانها والأخرى تتعوّج من قبل رأسها ووسطها وذنبها، وكانتا من الأرض
بحيث لا يبلغهما السهم، قال: فسطّرنا بذلك محضراً على عدّة نسخ.
وحكى بعض المؤرّخين: أنه وجد في خزائن المستنصر بالله العبيدي أحد خلفاء مصر
بيضةٌ محلاّةٌ بالذّهب ظنّوا أنها بيضة نعامة؛ فجعل الناس يتعجّبون من تحليتها بالذّهب؛
فذكروا ذلك للمستكفي، فقال: إنها بيضة حيّة كان بعض الملوك أهداها لجدّي القائم بأمر
الله.

ومن كتاب نشوار المحاضرة قال حدّثنا أبو إسحاق إبراهيم بن الورّاق قال حدّثني عمي أبو
الحسين: أن الحصينيّ حدّثه عن أبي العبّاس بن الفرات قال حدّثني أبي قال: قال لي جعفر
الخيّاط: أمرني المأمون ونحن بالروم أن أقتصّ الطريق لئلا يكون به جواسيس للعدوّ؛
فأخذت معي جماعةً من أصحابي فرساناً ورجّالةً وسلكت الطريق، فعنّ لي شعب
فقصدته لئلا يكون فيه كمينٌ من الجواسيس، وتقدّمني الرّجّالة فرأيتهم قد وقفوا؛ فأسرعت
إليهم وسألتهم عن خبرهم، فقالوا: انظر؛ فنظرت فإذا رجلٌ من الرّجّالة قد قعد لقضاء
حاجته، ومشى أصحابه، فقصدته حيّةٌ من وراء ظهره فابتلعته من رجليه إلى صدره وهو
يستغيث ويصيح، فلم يكن لنا فيه حيلةٌ وخفت أن آخر الرّجالة برمي الحيّة بالنّشّاب
فيصيب الرجل فأكون أنا قتلته. فبسط الرجل يديه وانتهى بلع الحيّة إلى إبطيه، فرأيتها وقد
انضمّت على ما ابتلعته منه ضمّةً سمعنا تكسير عظامه في جوفها، فمات وسقطت يداه
فابتلعته حينئذ بأسره. فقلت: الآن أقصدوها بالنّشّاب؛ فرشقناها جميعاً فأثبتناها في
موضعها حتى قتلناها؛ فأمرت بشق بطنها لأعاين جسم الرّجل، فلم نجد في بطنها من
جلد ولا عظمٍ ولا غيرهما إلا شيئاً كالخيط الأسود، فإذا هي قد أحرقته في لحظةٍ واحدةٍ.
ويقال: إن بجزائر الصين حيّاتٍ تبتلع الإبل والبقر وشبهها.
قال الجاحظ: حدّثني أبو جعفر المكفوف النحويّ العنبريّ وأخوه روح الكاتب ورجالٌ من
بني العنبر: أنّ عندهم في رمال بلعنبر حيّةً تصيد العصافير وصغار الطير بأعجب حيلةٍ؛
وزعموا أنها إذا انتصف النهار واشتدّ الحرّ في رمال بلعنبر وامتنعت الأرض على الحافي
والمنتعل، غمست هذه الحية ذنبها في الأرض ثم انتصبت كأنها عودٌ مركوزٌ أو عود ثابت،
فيجيء الطائر الصغير والجرادة، فإذا رأى عوداً قائماً وكره الوقوع على الرّمل لشدّة حرّه وقع
على رأس الحيّة على أنها عود، فإذا وقع على رأسها قبضت عليه. فإن كان جرادةً أو
جعلاً أو بعض ما لا يشبعها ابتلعته وبقيت على انتصابها؛ وإن كان طائراً يشبعها أكلته

وانصرفت؛ وإن ذلك دأبها ما منع الرمل جانبه في الصيف والقيظ.
قال: وزعم لي رجالٌ من الصّقالبة خصيانٌ وفحولٌ أنّ الحيّة في بلادهم تأتي البقرة المحفّلة
فتنطوي على فخذيها وركبتيها إلى عراقيبها ثم تشخص صدرها نحو أخلاف ضرعها
حتى تلتقم الخلف، فلا تستطيع البقر مع قوّتها أن تترمرم؛ فلا تزال الحيّة تمصّ اللبن، ولكما
مصّت استرخت؛ فإذا كادت لتلف أرساتها. وزعموا أنّ تلك البقرة إما أن تتلف، وإما أن
يصيبها داءٌ في ضرعها وفسادٌ شديد يعسر دواؤه.
وهذا الباب طويل؛ وقد أوردنا منه ما فيه غنيةٌ. فلنذكر ما قيل في أصناف الحيّات
وأوصافها.
أسماء الحيّات وأوصافها
يقال: الجانّ والشيطان هي الحيّة الخبيثة. والحنش: ما يصاد من الحيّات. والحيّوت:
الذكر منها. والحفّاث والحضب: الضخم منها. والأسود: العظيم وفيه سواد؛ ويقال:
الأسود هو الداهية؛ وله خصيتان كخصيتي الجدي، وشعر أسود، وعرفٌ طويل، وصنانٌ
كصنان التّيس. والشّجاع: أسود أملس يضرب إلى البياض، خبيث؛ ويقال: إنه دقيق
لطيف. والأعيرج: حيّةٌ صمّاء لا تقبل الرّقي وتطفر كما تطفر الأفعى. ويقال: الأعيرج:
حيّةٌ أريقط نحوٌ من ذراع، وهو أخبث من الأسود. وقال ابن الأعرابيّ: الأعيرج أخبث
الحيّات، يقفز على الفارس حتى يصير معه في سرجه. وقال الليث عن الخليل: الأفعى التي
لا تنفع معها رقيةٌ ولا دريقٌ، وهي دقيقة العنق عريضة الرأس. وقال غيره: هي التي إذا
ماشت منثنيةً جرشت بعض أسنانها ببعض. وقال غيره: هي التي لها رأس عريضٌ ولها
قرنان. والأفعوان: الذكر من الأفاعي. والعربدّ والعسودّ حيّة تنفخ ولا تؤذي. والأرقم:
الذي فيه سواد وبياض، والأرقش نحوه. وذو الطّفيتين: الذي له خطّان أسودان. والأبتر:
القصير الذنب. والخشخاش: الحيّة الخفيفة. والثعبان: العظيم منها، وكذلك الأيم والأين.
وابن قترة: حيّة شبيهة بالقضيب من الفضّة في قدر الشّبر والفتر، وهي أخبث الحيّات،

فإذا قرب من الإنسان تراءى في الهواء فوقع عليه من أعلاه.
وابن طبق: حيّة صفراء؛ ومن
طبعها أن تنام ستة أيام ثم تنتبه في اليوم السابع. ولا تنفخ
شيئاً إلا أهلكته قبل أن يتحرّك.
وربما مرّ بها الرجل وهي نائمةفيأخذها كأنها سوار من ذهب،
فإن استيقظت في كفّه خرّ
ميتاً. ومن أمثال العرب "أصابته إحدى بنات طبق". قال الليث:
السّفّ: الحيّة التي تطير
في الهواء. وأنشد:
وحتى لو أنّ السّفّ ذا الريش عضّني لما ضرّني من فيه نابٌ
ولا ثعر
والنّضناض: الذي لا يسكن في مكان.
ومن أسمائها القزة والهلال والرّعّاصة.
منافع لحوم الحيّات
قال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا: والحيّة يستعمل مطبوخها
بالماء والملح والشّبث، وقد
يزاد عليها الزيت. قال: وأجود لحمه لحم الأنثى؛ وأجود سلخه
سلخ الذّكر. وطبع الحيّة
إلى التجفيف في لحمها قوي؛ وأما التسخين فليس بشديد؛
وسلخه شديد التجفيف أيضاً.
وخاصيّة لحمه أنه ينفذ الفضول إلى الجلد، سيّما إذا كان الإنسان
غير نقيّ. قال: ولحمه إذا
استعمل: أطال العمر، وقوّى القوّة، وحفظ الحواسّ والشباب،
وأمّا قوله: أطال العمر فيردّ
هذا القول ما ورد في الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم أنه قال:
"فرغ ربّك من أربع خلقٍ وخلقٍ ورزقٍ وأجلٍ". وأما ما عدا ذلك
فغير مردودٍ عليه، .
قال: وأكله ينفع من الجذام نفعاً عظيماً؛ وإذا استعمل على داء
الثعلب نفع نفعاً عظيماً.
ولحمها ومرقها بعد إسقاط طرفها يمنع تزيّد الخنازير، وكذلك
سلخها. ومرقتها إذا تحسّيت
وأكل لحمها نفع من أوجاع العصب، وكذلك سلخها. قال:
وسلخها إذا طبخ في شراب
وقطّر منه في الأذن سكن وجعها؛ ويتمضمض بخلٍّ طبخ فيه
السّلخ لوجع السّن. قال:
وزعم جالينوس أنه إذا أخذت خيوط كثيرة، وخصوصاً المصبوغة
بالأرجوان، وخنق بها
أفعى ولفّ واحدٌ منها على عنق صاحب أورام اللّهاة والحلق
ظهر نفع عجيبٌ. ومرقته
ولحمه يقوّيان البصر. قال: واتفقوا على أنّ شحم الأفعى يمنع
نزول الماء إلى العين، ولكنّ

الإنسان لا يجسر على ذلك. وإذا شقّت الحيّة ووضعت على نهش الأفاعي سكن
الوجع.
وصف الأفاعي
قال بعض الشعراء يصف حيّةً:
ر ينبت العشب في وادٍ تكون به ولا يجاورها وحشٌ ولا شجر
جرداء شابكة الأنياب ذابلةٌ ينبو من اليبس عن يافوخها الحجر
لو شرّحت بالمدي ما مسّها بللٌ ولو تكنّفها الحاوون ما قدروا
قد جاهدوها فما قام الرّقاة لها وخاتلوها فما نالوا ولا ظفروا
يكبو لها الورل العادي إذا نفخت جبناً ويهرب منها الحيّة الذّكر
وقال خلفٌ الأحمر:
وكأنّما لبست بأعلى جسمها برداً من الأثواب أنهجه البلى
في عينها قبلٌ وفي خيشومها فطسٌ وفي أنيابها مثل المدى
وقال آخر:
أرقم كالدّرع فيه وشمٌ منمنم الظّهر واللّبان
يزحف كالسّيل من تلاعٍ كأن عينيه كوكبان
يهشم ما مشّ من نباتٍ ويجذب النّفس بالعنان
وقال ابن المعتز:
أنعت رقشاء لا تحيا لديغتها لو قدّها السيف لم يعلق به بلل
تلقى إذا انسلخت في الأرض جلدتها كأنها كمّ درعٍ قدّه بطل
وقال الظاهر البصريّ شاعر اليتيمة:
سرت وصحبي وسط قاعٍ صفصف إذا أشرفت من فوق طودٍ مشرف
رقشاء ترنو من قليبٍ أجوف تومي برأس مثل رأس المجرف
وذنبٍ مندمجٍ معقّف حتى إذا أبصرتها لا تنكفي
علوتها بحدّ سيفٍ مرهف فظلّ يجري دمها كالقرقف
أتلفتها لم أرادت تلفي
وقال خلفٌ الأحمر:
له عنقٌ مخضّرةٌ مدّ ظهره وشومٌ كتحبير اليماني المرقّم
إلى هامةٍ مثل الرّحى مستديرةٍ بها نقطٌ سودٌ وعينان كالدّم
وقال آخر:
وحنشٍ كحلقة السّوار غايته شبرٌ من الأشبار
كأنه قضيب ماءٍ جاري يفترّ عن مثل تلظّي النّار
وقال خلف الأحمر:
صلّ صفاً لا تنطوي من القصر طويلة الإطراف من غير حسر

داهيةٌ قد صغرت من الكبر مهروتة الشّدقين حولاء النّظر
تفترّ عن عوجٍ حدادٍ كالإبر
وقال أبو هلال العسكريّ:
وخفيفة الحركات تفترع الرّبى كالبرق يلمع في الغمام
الرّائح
منقوطةٌ تحكي صدور صحائفٍ إبّان تبدو من بطون صفائح
ترضى من الدنيا بظلّ صخيرةٍ ومن المعيشة باشتمام روائح
وقال ابن المعتز:
كأنني ساورتني يوم بينهم رقشاء مجدولةٌ في لونها برق
كأنها حين تبدو من مكامنها غصن تفتح فيه النّور والورق
ينسلّ منها لسان تستغيث به كما تعوّذ بالسبّابة الفرق
وقال الهذليّ في مزاحف الحيّات:
كأنّ مزاحف الحيّات وهناً قبيل الصبح آثار السّياط
وقال آخر:
كأنّ مزاحفه أنسعٌ جررن فرادى ومنها ثني
العقارب
قال الجاحظ: والعقارب أصنافٌ: منها الجرّارة، والطيّارة، وماله
ذنبٌ كالحربة، وماله ذنب
معقّفٌ؛ وفيه السّود، والخضر، والصّفر. وهي من ذوات الذّرو.
ويقال: إنّ الأنثى من هذا
النوع إذا حملت يكون حتفها في ولادتها؛ لأن أولادها إذا استوى
خلقها أكلت بطون
الأمّهات حتى تنقبها، وتكون الولادة من ذلك النّقب، فتخرج
والأمهات ميتةٌ. وفي ذلك يقول
الشاعر:
وحاملةٍ لا تحمل الدّهر حملها تموت ويحيا حملها حين تعطب
وقال أيضاً: إنها تلد من فيها مرّتين، وتحمل أولادها على ظهرها
وهي في قدر القمل كثيرة
العدد. قال: والعقرب شرّ ما تكون إذا كانت حبلى؛ ولها ثمان
أرجلٍ لها أظلاً مثل أظلاف
الثور، وعيناها في ظهرها. ومن عجيب أمرها أنها لا تضرب
الميت ولا المغشيّ عليه ولا
النائم، إلا أن يتحرّك شيء من بدنه؛ فإنها عند ذلك تضربه؛
وضربها له إنما هو من خوفها
منه. وهي تأوي إلى الخنافس وتسالمها، وتصادق من الحيّات
كلّ أسودٍ سالخٍ. وبما لسعت
الأفعى فتموت. وفيها ما يلسع بعضه بعضاً فيموت الملسوع.
ويقال: إنها تستخرج من
بيوتها بالجراد؛ لأنها تحرص على أكله. ومتى أدخل الكّرّاث في
جحرها وأخرج تبعته وما
معها من نوعها. وهي إذ أخرجت من جحرها تضرب كلّ ما لقيته
من حيوانٍ أو نباتٍ أو

جمادٍ.
وقيل لبعض الأطبّاء: إنّ فلاناً يقول: إنما أن مثل العقرب أضرّ ولا أنفع؛ فقال: ما أقلّ علمه
بها! إنها تنفع إذا شقّ بطنها ووضعت على مكان اللّسعة. وقد تجعل في جوف فخّارٍ
مسدود الرأس مطيّن الجوانب، ثم توضع الفخّارة في تنّورٍ؛ فإذا صارت العقرب رماداً سقي
من ذلك الرماد من به حصاةٌ نصف دانقٍ فتفتّتها من غير أن تضرّ شيئاً من الأعضاء. وقد
تلسع من به حمّى عتيقةٌ فتقلع عنه. وقد تلسع المفلوج فيذهب عنه الفالج. وقد تلقى
العقرب في الدّهن تترك فيه حتى يأخذ منها ويجتذب قواها، فيكون ذلك الدّهن مصرّفاً
للأورام الغليظة. وقال الشيخ الرئيس: زيت العقارب نافعٌ من أوجاع الأذن. فهذه منافعها.
وقال الجاحظ: ومن أعاجيب العقرب أنها لا تسبح ولا تتحرك إذا ألقيت في الماء، كان
الماء جارياً أو ساكناً. قال: وهي تطلب الإنسان وتقصده؛ فإذا قصدها فرّت منه. وهي
إذا ضربت الإنسان هربت هرب من قد أساء. قال: ومن أعاجيب ما في العقرب أنا
وجدنا عقارب القاطول يموت بعضها من لسع بعضٍ، ثم لا يموت عن لسعتها شيء غير
العقارب، ونجد العقرب تلسع إنساناً فيموت وتلسع آخر فتموت هي؛ فدلّ ذلك على أنها
كما تعطي تأخذ. ويقال: إن الذي تموت هي إذا لسعته تكون أمّه قد لسعت وهي حاملٌ
به. قال: ومن أعاجيبها أنها تضرب الطّست والقمقم النّحاس فتخرقه، وربما ضربته فثبتت
إبرتها فيه. قال: والعقارب القاتلة تكون في موضعين: بشهر زور من بلاد الجبل، وعسكر
مكرم من بلاد الأهواز، وهي جرّاراتٌ؛ وإذا لسعت قتلت؛ وربما تناثر لحم من لسعته أو
تعفّن ويسترخي حتى لا يدنو منه أحدٌ إلا وهو يمسك أنفه مخافة إعدائه. وهي في غاية
الصغر؛ فإن أكبر ما يوجد منها تكون زنته دانقاً واحداً؛ والذي يوجد منها كبيراً تكون زنته
ثلاث حبّات أرز؛ فإن وزنت بشعيرةٍ رجحت الشعيرة عنها. وهي منع نزارتها تقتل الفيل
والبعير بلسعتها. قال: وبنصيبين عقارب قتّالةٌ يقال: إن أصلها من شهر زور، وإن بعض

الملوك حاصر نصيبين فأتى بالعقارب من شهر زور ورمى بها في كيزانٍ بالمجانيق إلى البلد،
فأعطى القوم بأيديهم.
وقد وصف الشعراء العقرب وشبّهوها في أشعارهم؛ فمن ذلك قول السّريّ الرفّاء:
ساريةٌ في الظّلام مهديةٌ إلى النفوس الرّدى بلا حرج
شائلةٌ، في ذنبها حمةٌ كأنها سبجةٌ من السّبج
وقال آخر:
ونضوةٍ تعرف باسم ولقب ما بين عينيها هلالٌ منتصب
موجودةٌ معدومةٌ عند الطلب تطعن من لاقته من غير سبب
بخنجرٍ تسلّه عند الغضب كأنه شعلة نارٍ تلتهب
وقال آخر:
تحمل رمحاً ذا كعوبٍ مشتهر فيه سنانٌ بالحريق مستعر
أنّف بأنيفاً على حين قدر تأنيف أنف القوس شدّت بالوتر
وقال عبد الصمد بن المعذّل: يدعو بها على عدوٍّ له.
يا ربّ ذي إفكٍ كثيرٍ خدعه مستجهل الحلم خبيثٍ مرتعه
يسري إلى عرض الصديق قذعه صبّت عليه حين حمّت بدعه
ذات ذنابي متلفٍ من يلسعه تخفضه طوراً وطوراً ترفعه
أسود كالسّبجة فهي مبضعه ينطف منه سمّه وسلمعه
تسرع فيه الحتف حين تشرعه يبرز كالقرنين حين تطلعه
في مثل صدر السّبت حين تقطعه لا تصنع الرقشاء ما قد تصنعه
وقال ابن حمديس:
ومشرعةٍ بالموت للطعن صعدةً فلا قرن إن نادته يوماً يجيبها
تذيقك حرّ السّمّ من وخز إبرةٍ إذا لسبت ماذا يلاقي لسيبها
إذا لم يكن لون البهارة لونها فمن يرقانٍ دبّ فيها شحوبها
لها سورةٌ خصّت بمنكر صورةٍ ترى العين فيها كلّ شيء يريبها
لها طعنةٌ لا تستبين لناظرٍ ولا يرسل المسبار فيها طبيبها
نسيت بها قيساً وذكرى طعينه وقد دقّ معناها وجلّ ندوبها
تجيء كأمّ الشّبل غضبى توقّدت وقد توّج اليأفوخ منها عسيبها
عدوٌّ مع الإنسان يعمر بيته فكيف يوالي رقدةً يستطيبها
ولولا دفاع الله عنّا بلطفه لصبّت من الدنيا علينا خطوبها
الباب الثاني فيما هو ليس قاتلاً بفعله من دوابّ السموم ما لايقتل من دواب السموم
ويشتمل هذا الباب على ما قيل في الخنافس، والوزغ، والضبّ، وابن عرس، والحرباء،
والقنافذ، والفيران، والقراد، والنمل، والذرّ، والقمل، والصّؤاب.
الخنافس

قالوا: والخنافس تتولّد من عفونة الأرض. وهي أصناف، منها الخنفس المعروف؛ ومنها
العجل ويسمّى الكبرتل. وهو يتولّد من أخثاء البقر، وهو يموت إذا شمّ رائحة الطّيب، وإذا
دفن في الورد مات، وإذا أخرج منه ودفن في الرّوث عاش. والغالب أنه لا يموت حقيقةً وإنما
يخدر وتبطل حركته؛ فإذا عولج بما نشأ منه قوي. والله أعلم. وله ستّ أرجل، وسنامٌ
مرتفع. وهو لا يصير كبرتلاً حتى يصير له جناحان. وجناحاه يظهران إذا أراد الطيران
ويخفيان إذا مشى. ومن عادة الجعل أن يحرس النّيام؛ فمن قام منهم لقضاء الحاجة تبعه
طمعاً أنهم إنما يريد الغائط؛ والغائط قوت الجعل.
وقال أبو عثمان عمرو بن بحر: وزعم الأعراب أنّ بين ذكور الخنافس وإناث الجعلان
تسافداً، وأنهما ينتجان خلقاً ينزع إليهما جميعاً. قال: وأنشد سيبويه لبعض الأعراب يهجو
عدوّاً له:

عاديتنا يا خنفساً أمّ الجعل عداوة الأوعال حيّات الجبل

ويقال: إنّ الجعل يظلّ دهراً لا جناح له، ثم ينبت له جناحان.
والعرب تقول في أمثالها:
"ألجّ من خنفساء" و "أفحش من فاسيةٍ" وهي الخنفساء. وفي لجاجة الخنفساء يقول
الأحمر:

لنا صاحبٌ مولعٌ بالخلاف كثير الخطاء قليل الصواب
ألجّ لجاجاً من الخنفساء وأزهى إذا ما مشى من غراب

ومن أصناف الخنافس صنفٌ يقال له حمار قبّان. وهو يتولّد في الأماكن النديّة على ظهره
شبه المجنّ. ومنها صنفٌ يسمّى بنات وردان. وهي أيضاً تتولّد في الأماكن النديّة، وأكثر
ما تكون في الحمّامات والسّقايات. وفيها من الألوان الأسود، والأصهب، والأبيض. قال
بعض الشعراء يصف بنات وردان:

بنات وردان جنسٌ ليس ينعته خلقٌ كنعتي في وصفي وتشبيهي
كمثل أنصاف بسرٍ أحمرٍ تركت من بعد تشقيقه أقماعه فيه

ومنها الصّراصر والجنادب. ولها صوتٌ لا يفتر بالليل، فإذا طلع الفجر فقد. وفيه من
الألوان الأسود وهو جندب الجبال والآكام السّد؛ والأبرق وهو جندب الطلح والسّمر
والغضا؛ والأبيض وهو جندب الصحاري. قال السّريّ الرّفّاء يصف جندبةً:

وجندبةٍ تمشي بساقٍ كأنّها على فخذٍ كالعود منشار عرعر
ممسّكةٌ تجلو الجناح كأنّها عروسٌ تجلّت في عطافٍ معنبر
الوزغ
والوزغ يسمّى سامّ أبرص. وزعموا أنه أصمّ، وأنّ السبب في صممه وبرصه أن الدوابّ
كلّها حين ألقي إبراهيم عليه السلام في نار النّمرود كانت تطفئ عنه، وأنّ هذا كان ينفخ
عليه، فصمّ وبرص. وروي عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها أنّها قالت: دخل عليّ
رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يدي عكّاز فيه زجٌّ، فقال: "يا عائشة ما تصنعين
بهذا؟" قلت: أقتل به الوزغ في بيتي؛ قال: "إن تفعلي فإنّ الدوابّ كلّها حين ألقي إبراهيم في
النار كانت تطفئ عنه وإنّ هذا كان ينفخ عليه فصمّ وبرص".
وفي حديث آخر عنها
رضي الله عنها: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للوزغ الفويسق.
قالوا: وفي طبع الوزغ أنه لا يدخل إلى بيتٍ في زعفران.
والحيّات تألف الوزغ، كما تألف
العقارب الخنافس. وهو يطاعم الحيّات ويزاقّها. وهو يقبل اللّقاح بفيه، ويبيض كما تبيض
الحيّة. وقيل: إنّ نصيبه من السّم نصيبٌ متوسّط، لا يكمل أن يقتل، ومتى دبر جاء منه
سمٌّ قاتل. ومتى قتل ووضع على جحر حيّة هربت منه. وهو يقيم في جحره أربعة أشهر
الشتاء.
وقال الشيخ الرئيس: إذا ضمد به على الشوك والسّلاّء جذبه، وعلى الثآليل يقلعها. قال:
وقيل: إنّ المجفّف منه إذا خلط بالزيت أنبت الشعر على القرع.
وبوله ودمه عجيب النّفع
من فتق الصّبيان إذا جلسوا في طبيخه. وقد يجعل في بوله أو دمه شيء من المسك ويجعل
في إحليل الصبيّ فيكون بالغ النفع في الفتق. وقيل: إنّ كبده تسكّن وجع الضّرس، وتشقّ
وتوضع على لسع العقرب فيسكن.
الضبّ
قال الجاحظ في كتاب الحيوان: إنّ من أعاجيب الضبّ أنّ له أيرين وللضبّة حرين؛ قال:
وهذا شيء لا يعرف إلاّ لهما. هذا قول الأعراب في تخصيصهما بذلك. وقالت الحكماء:
إنّ السّقنقور له أيران، والحرذول كذلك. قال: وقال جالينوس: الضبّ الذي له لسانان يصلح

لحمه لكذا وكذا. ومما يستدلّ به على أنّ للضبّ أيرين قول الفزاريّ:
سبحلٌ له نزكان كانا فضيلةً على كل حافٍ في البلاد وناعل
واسم أير الضبّ: النّزك. وسئل أبو حيّة النّميريّ عن ذلك، فزعم أنّ أير الضبّ كلسان
الحيّة، الأصل واحد الفرع اثنان. وللأنثى مدخلان. وعلى ذلك أنشد الكسائيّ رحمه الله
تعالى:
تفرّقتم لا زلتم قرن واحدٍ تفرّق أير الضبّ والأصل واحد
ويقال: إنّ الضبّة إذا أرادت أن تبيض حفرت في الأرض حفرةً ثم رمت بالبيض فيها
وطمّته بالتراب، وتتعاهده كل يوم حتى يخرج، وذلك في أربعين يوماً. وهي تبيض سبعين
بيضةً وأكثر. وبيضها يشبه بيض الحمام. ويخرج الحسل وهو مطيقٌ للكسب.
قالوا: والضبّ يخرج من جحره كليل البصر، فيجلوه بالتحدّق في الشمس. وهو يغتذي
بالنسيم، ويعيش ببرد الهواء، وذلك عند الهرم.
قال الجاحظ: وزعم عمرو بن مسافر: أنّ الضبّة بيض ستين بيضةً وتسدّ عليهنّ باب
الجحر ثم تدعهنّ أربعين يوماً، فيتفقص البيض ويظهر ما فيه، فتحفر عنهن عند ذلك. فإذا
كشفت عنهم أحضرن وأحضرت في أثرهنّ، فتأكل ما أدركت منهنّ. ويحفر المنفلت منها
لنفسه جحراً، ويرعى من البقل. فلذلك توصف بالعقوق. ويضرب به المثل في أكل
حسوله. وفي ذلك يقول الشاعر:
أكلت بنيك أكل الضبّ حتى تركت بنيك ليس لهم عديد
قالوا: وفي ذنب الضبّ من القوّة ما يضرب به الحيّة فربما قطعها. والضبّ طويل العمر. وفي
طبعه أنه يرجع في قيئه. وهو شديد الإعجاب بالتمر. ويقال: إنه يمكث ليلةً بعد الذّبح ثمّ
يقرّب إلى النار فيتحرّك.
قال الجاحظ: وزعمت العرب إنّ الضبّ يعدّ العقرب في جحره؛ فإذا سمع صوت الحرش
استثفرها فألزقها بأصل عجب ذنبه وضمّه عليها، فإذا أدخل الحارش يده ليقبض على
أصل ذنبه لسعته. وقيل: بل العقارب تألف الضّباب وتسالمها وتأوي إليها. قال التّميميّ:
أتأنس بي ونجرك غير نجري كما أنس العقارب والضّباب
والضبّ من الحيوان المأكول؛ غلاّ أنّ العرب تعيّر بني تميم بأكل لحم الضبّ. والدليل على

إباحته ما جاء في الحديث الصحيح: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في بيت
ميمونة رضي الله عنها، فقدّمت له مائدةٌ وعليها ضبٌّ مشويّ، فأهوى بيده ليأكل منه؛
فقيل له: يا رسول الله، إنه ضبّ؛ فرفع يده. فقال له خالد بن الوليد: يا رسول الله، أحرامٌ
هو؟ قال: "لا ولكنه ليس في بلاد قومي فأنا لا آكله"؛ فأكله خالد بن الوليد بحضرة رسول
الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهه؛ ولو كان حراماً لنهاه صلى الله عليه وسلم عن أكله
ولأخبر بتحريمه لمّا سئل عنه.
وقال أبو نواس يعيّر بأكل الضبّ:

إذا ما تميميٌّ أتاك مفاخراً فقل عدّ عن ذا كيف أكلك للضّبّ

وقال عمرو بن الأهتم من أبياتٍ:

ورددناهم إلى حرّتيهم حيث لا يأكلون غير الضّباب

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا: زبل الضبّ نافع لبياض العين، وينفع من نزول الماء.
وقد وصفه الحمّانيّ فقال وذكر أرضاً:

ترى ضبّها مطلعاً رأسه كما مدّ ساعده الأقطع
له ظاهرٌ مثل بردٍ موشىً وبطنٌ كما حسر الأصلع
هو الضبّ ما مدّ سكّانه وإن ضمّه فهو الضّفدع الحرباء

والحرباء لها أصابع، وأظنها لنبش التراب. ولونها أسود وأصفر ومختلط الألوان كالفهد.
وهذه التسمية تقع على ذكورها وإناثها. والحرباء إذا كان في الشمس كان كثير التلوّن، فإذا
انتقل إلى الظل كان أقل تلوّناً. وإذا قارب الموت أو مات اصفرّ. وهو أبداً يطلب الشمس،
فإذا طلعت وجّه وجهه نحوها. فمتى غاب عنه جرمها فلا يراها أصابه نوع من الجنون.
وإذا غابت الشمس ذهب ليطلب معاشه ليله كلّه حتى يصبح.
ولسانه طويل جدّاً، يقال:
إنه مقدار ذراعٍ، فهو يبلغ به ما بعد عنه من الذّباب. والأنثى منه تكنى أمّ حبينٍ. وهو
يوصف بالحزم لنه حيث ينظر إلى الشمس يقبض بيده على خوطٍ، فإذا تقلّب نحو الشمس
حيث ما مالت لا يرسل ذلك الخوط من يده حتى يقبض بيده الأخرى خوطاً آخر. وفيه
يقول الشاعر:

أنّى أتيح له حرباء تنضبةٍ لا يرسل السّاق إلا ممسكاً ساقا

وكتب بعض الفضلاء إلى بعض أصدقائه يلومه على مقامه بوطنه حين نبا به؛ فقال من

رسالة:
أعجزت في الإباء، عن خلق الحرباء؛ أدلى لساناً كالرّشاء، يبلغ به ما يشاء؛ وناط همّته
بالشمس، مع بعدها عن اللمس؛ وأنف من ضيق الوجاء، ففرّخ في الأشجار؛ وسئم العيش
المسخوط، فاستبدل خوطاً بخوط؛ فهو كالخطيب، على الغصن الرّطيب.
وإنّ صواب الرّأي والحزم لامرئٍ إذا بلغته الشمس أن يتحوّلا
وقال ذو الرّمّة:
كأنّ يدي حربائها متشمّساً يدا مذنبٍ يستغفر الله تائب
وقال فيه أيضاً:
وقد جعل الحرباء يصفرّ لونه وتخضرّ من لفح الهجير غباغبه
ويشبح بالكفّين شبحاً كأنه أخو فجرةٍ عالي به الجذع صالبه
وقال فيه أيضاً:
يصلّي بها الحرباء للشمس ماثلاً على الجذع إلاّ أنّه لا يكبّر
إذا حوّل الظّلّ العشيّ رأيته حنيفاً وفي وقت الضّحى يتنصّر
ابن عرس
وابن عرس من حيوان البيوت، وهو حديد النفس شجيعٌ فطنٌ. وأكثر ما يكون بمصر في
المنازل. وله صوت قويٌّ يدلّ على شجاعته. وقيل: إنّه الحيوان المسمّى بالدّلق، وإنما
يختلف وبره ولونه بحسب البلاد. وفي طبعه أنه يسرق ما يظفر به من الذّهب والفضّة، وأنه
متى وجد حبوباً متفرّقةً خلطها. وهو عدوّ الفأر يصيده ويقتله، والفأر يخافه.
وقال الجاحظ: وابن عرسٍ يقاتل الحيّة؛ وإذا قاتلها بدأ بأكل السّذاب؛ لأنّ الحيّة تؤلمها
رائحة السّذاب؛ كما قدّمنا. وابن عرس يفعل في الطير ما يفعل الذئب في الغنم من الذّبح.
وهو إذا عجز عن الوصول إليها استدار بعجزه وفسا إلى جهتها، فربما قبل الفراريج رائحة
فسائه.
ومن ذكائه وفطنته ما حكي: أنّ رجلاً صاد فرخاً منها فجعله في قفص؛ فرأته أمّه
فذهبت وعادت بدينار في فمها فألقته بين يدي الرجل كأنها تريد فداء ولدها منه به، فتركه
ولم يتناوله، فذهبت وأتت بدينارٍ آخر فلم يأخذه، فلم تزل تذهب تعود في كل مرّة بدينار إلى
خمسة دنانير وهو لا يمسك الذهب، فذهبت وعادت بصرّ فارغةٍ ألقتها بين يديه كأنها تقول:
إنه لم يبق شيء؛ فلم يطلق ولدها ولا ضمّ الدنانير. فلمّا رأته على ذلك عمدت إلى دينار

منها فأخذته وعادت به إلى جحرها؛ فخشي أن تفعل ذلك ببقيّة الدنانير، فأخذها وأطلق
فرخها؛ فأعادت إليه الدينار.
وقالت الحكماء: لحم ابن عرس نافع من الصّرع. والله أعلم.
القنافذ
وواحدها قنفذٌ. وهي صنفان: قنفذٌ ودلدلٌ. فالقنفذ يكون بأرض مصر في قدر الفأر.
والدلدل يكون بالشأم والعراق وخراسان في قدر الكلب القلطيّ. ويقال: إنه يسفد قائماً
وبطن الأنثى لاصقٌ ببطن الذكر. والأنثى تبيض خمس بيضاتٍ؛ وليس هو كالبيض الذي له
قشر يابسٌ بل هو شبيه باللّحم. وتصرّف القنافذ بالليل أكثر من تصرّفها بالنهار. قال أيمن
بن خريم:

كقنفد الرّمل لا تخفى مدارجه حتى إذا نام عنه الناس لم ينم

والقنفذ يستأنس في البيوت، ويختفي أياماً ثم يظهر. وهو إذا جاع صعد إلى الكروم وقطع
العناقيد ورمى بها ثم ينزل فيأكل منها ما أطاق؛ فإن كان له فراخ تمرّغ عل ما بقي فيشتبك
في شوكه، وذلك بعد تفريطه من عمشوشه، ويذهب به إلى فراخه. وهو مولعٌ بأكل
الأفاعي، ولا يبالي قبض على رأسها أو غيره من بدنها، فإنه إن قبض على رأسها أكلها
بغير كلفة عليه ولا مشقّةٍ؛ وإن قبض على وسطها أو ذنبها استدار وتجمّع ونفخ بدنه، فمتى
ضربته أصابها شوكه، فهي تهرب منه؛ وطلبه لها بقدر هربها منه.
والدّلدل إذا رأى ما يكرهه انقبض فيخرج منه شوك كالمداري في طول الشّبر، فيجرح ما
يصبه من الحيوان. ويقال: إنّ شوكه شعرٌ، وإنما لمّا غلظ غلب عليه اليبس صار شوكاً.
وقال ابن سينا: في رماد القنفذ جلاءٌ وتحليلٌ. وملحه ينفع من داء الفيل. ولحمه ينفع من
الجذام؛ لشدّة تحليله وتجفيفه. ولحمه المملّح ينفع من الفالج والتّشنّج وأمراض العصب كلّها
وداء الفيل، وينفع من السّلّ ومن سوء المزاج. ومملوحه مع السّكبينج جيّدٌ للاستسقاء
ووجع الكلى، وينفع من يبول من الصبيان في الفراش؛ حتى إنّ إدمان أكله ربما عسّر البول.
ولحمه ينفع من الحمّيات المزمنة ومن نهش الهوامّ. والله أعلم.

وقد وصفه البلغاء والشعراء في رسائلها وأشعارها، فمن ذلك ما قاله الأمير شمس المعالي
من رسالة كتبها إلى بعض أصدقائه وقد أهدي له دلدلاً: قد أتحفتك يا سيّدي بعلقٍ نفيس،
وتحفة رئيس؛ يتعجّب المتأمّل من أحواله، ويحار الناعت في أوصافه وأعماله؛ ويتبلّد المعتبر
في آياته، ويكلّ الناظر في معجزاته؛ فما يدري ببديهة النظر والفؤاد، أمن الحيوان هو أم من
الجماد؛ حتى إذا أعطى متدبّره النّظر أوفى حقوقه، والفحص أكمل شروطه، علم انه كميّ
سلاحه في حضنه، ورام سهامه في ضمنه؛ ومقاتلٌ رماحه على ظهره، ومخاتلٌ سرّه خلاف
جهره، ومحاربٌ حصنه من نفسه؛ يلقاك بأخشن من حدّ السيف، ويستتر بألين من وبر
الخيف. متى جمّع أطرافه، وضمّ إليه أصوافه؛ حسبته رابيةً ناتيه، أو تلعةً باديه. وهو
أمضى من الأجل، وأرمى من بني ثعل. إن رأته الأراقم رأت حتف نفسها، أو عاينته
الأساود أيقنت بفناء جنسها؛ صعلوك ليلٍ لا يحجم عن دامسه، وفارس ظلامٍ لا يخاف من
حنادسه؛ فيه من الضبّ مثل، ومن الفأر شكل؛ ومن الورل نسب، ومن الدّلدل سبب.
ومن أوابده أنه يسودّ إذا هرم وشاب، ويصير كأكبر ما يكون من الكلاب.
وقال أبو محمد اليزيديّ يذكر قنفذاً رآه، فأطعمه وسقاه:

وطارق ليلٍ جاءنا بعد هجعةٍ من الليل إلاّ ما تحدّث سامر
قريناه صفو الزاد حين رأيته وقد جاء خفّاق الحشى وهو سادر
جميل المحيّا في الرّضا فإذا أبى حمته من الضّيم الرّماح الشّواجر
ولست تراه واضعاً لسلاحه مدى الدّهر موتوراً ولا هو واتر

وقال آخر من أبيات يرثيه فيها ويصفه:

عجبت له من شيهمٍ متحصّنٍ بنبلٍ من السّرد المضاعف تبرق
وأنّى اهتدى سهم المنية نحوه وفي كلّ عضوٍ منه سهمٌ مفوّق
ولو كان كفّ الدهر تستخشن الرّدى لكان بكفّ الدّهر لا يتعلّق

وقال أبو بكر الخوارزميّ يصفه:

ومدجّج وسلاحه من نفسه شاكي الدّوابر أعزل الأقبال
يمسي ويصبح لم يفارق بيته ولقد سرى عدداً من الأميال
وتراه يكمن بعضه في بعضه فتطيش عنه أسهم الأهوال
عيناه مثل النقطتين وخطمه يحكي ثديّ رضاعة الأطفال

وكأنّ أقلاماً غرزن بظهره مسّ المداد رءوسها ببلال
تتهارب الحيّات حين يرينه هرب اللصوص رأت سواد الوالي
وكأنّه الخنزير إلاّ جلده وصياحه وتقارب الأوصال
الفئران
قد سمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم الفويسقة. والفأر ضروب تقع على جميعها
هذه التسمية وهي الجرذ والفأر معروفان، وهم كالجواميس والبقر، والزّباب والخلد واليربوع
وفأرة البيش وفأرة المسك وفأرة الإبل.
الجرذ والفأر
وهم من حيوان البيوت والبرّ. قال المتكلمون في طبائع الحيوان: إنّ الفأر مما جمع له بين
حاسّة السمع والبصر. وليس في الحيوان أفسد منه. ومن فساده أنه يجد قارورة الدّهن
وهي ضيّقة الفم فيدخل ذنبه فيها ويمتصّه. فإن قصر ذنبه عن بلوغ الدّهن عمد إلى النّوى
والأحجار الصّغار فيلقيهما فيها، فيطفو ما فيها فيمتصّه بذنبه، ولا يزال يتعاهد ذلك حتى
ينفذ جميع ما فيها. وهو إذا سرق البيض يعجز عن كسره بسنّه، فيدحرج البيضة إلى أن
تسقط من مكان مرتفع إلى مستفلٍ فتنكسر؛ فإن عجّزه ذلك استعان بفأر آخر فيعشقها
أحدهما بيديه ورجله وينقلب على قفاه؛ ويقبض الآخر على ذنبه ويتسلّق به في حائط؛
فإذا ارتفع به عن الأرض ألقاها الحامل لها فتنكسر فيأكلانها جميعاً. أخبرني بذلك من
شاهده. والمثل المضروب به في الفساد والسّرقة والنسيان والحذر. وفي طبع الجرذ البرّيّ
وعادته أنه لا يحفر بيته على قارعة الطريق خوفاً من الحافر أن يهدم عليه بيته. ويقال: إنه
يخلق من الطّين، وإنه يتولّد بأرض مصر إذا نضب ماء النيل عنها. وقال صاحب كتاب
مباهج الفكر: إنه رأى ذلك عياناً في سفط ميدوم من جيزة مصر.
وقال الجاحظ: لعمري إن جرذان أنطاكية لتساجل السّنانير في الحرب، ولا تقوم لها ولا
تقوى عليها إلا الواحد بعد الواحد. قال: وهي بخراسان قويّةٌ جدّاً، وربما قطعت أذن
النائم. قال: ومن الفأر ما إذا عضّ قتل. قال: ومن الأعاجيب في قرض الفأر أنّ قوماً من
أهل الفراسة ينظرون إلى قرضه ويتفرّسون منه أحوالاً.
ويزعمون أنّ أبا جعفر المنصور نزل

في بعض القرى فقرض الفأر مسحاً له كان يجلس عليه، فبعث به ليرفأ؛ فقال لهم الرّفّاء: إنّ
هاهنا أهل بيت يعرفون بقرض الفأر ما ينال صاحب المتاع من خير وشرّ، فما عليكم أن
تعرضوه عليه قبل إصلاحه؟ فبعث المنصور إلى شيخهم؛ فلما نظر إلى موضع القرض
وثب قائماً ثم قال: من صاحب هذا المسح؟ فقال المنصور: أنا؛ فقال: السلام عليك يا
أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته؛ والله لتليّن الخلافة أو أكون جاهلاً أو كذّاباً.
وفي الفأر منافع ذكره الشيخ الرئيس ابن سينا، فقال: دم الفأر يقلع الثآليل، وزبله نافع على
داء الثعلب وخصوصاً لطخاً بالعسل، وخصوصاً المحرق. قال: وإذا شوي الفأر وجفّف
وأطعم الصبيّ انقطع سيلان اللّعاب من فمه. قال: واتّفق الناس أنّ الفأر إذا شقّ ووضع
على لدغ العقرب نفع. والله أعلم.
وقد وصف الشعراء الفأر وشبّهوه في أشعارهم وذكروا سوء فعله. فمن ذلك قول أعرابيّ
وقد دخل البصرة فاشترى خبزاً فأكله الفأر:

عجّل ربّ الناس بالعقاب لعامرات البيت بالخراب
حتى يعجّلن إلى التّباب كحل العيون وقص الرّقاب
مجرّراتٍ فضل الأذناب مثل مداري الطّفلة الكعاب
كيف لها بأنمرٍ وثّاب منهزت الشّدق حديد النّاب
كأنما يكشر عن حراب يفرسها كالأسد الوثّاب

وقال أبو بكر الصّنوبريّ:

يا لحدب الظّهور قعس الرّقاب لدقاق الخرطوم والأذناب
للطافٍ آذانها والخراطي م حداد الأظفار والأنياب
خلقت للفساد مذ خلق الخل ق وللعيث والأذى والخراب
ناقباتٍ في الأرض والسقف والحا ئط نقباً أعيا على النّقّاب
آكلاتٍ كلّ المآكل لا تس أمها شاربات كلّ الشّراب
آلفاتٍ قرض الثياب وقد يع دل قرض القلوب قرض الثياب

وقال في فأرة بيضاء:

وفأرةٍ بيضاء لم تبتذل يوماً لإطعام السّنانير
إذ فأرة المسك سمعنا بها وهذه فأرة الكافور

الزّباب
فإنه فأرٌ أصمّ، يكون في الرمل. والعرب تضرب به المثل في السرقة. يقولون: "أسرق من
زبابة".
الخلد
فهو أعمى لا يدرك شيئاً إلاّ بالشّمّ، إلا أن عينيه كاملتان، لكن الجفن ملتحمٌ على الناظر

لا ينشقّ. وهو ترابيٌّ مستقرٌّ في باطن الأرض؛ وهي له كالماء للسمك. وليس له على ظهر
الأرض قوّةٌ ولا نشاط؛ بل يبقى مطروحاً كالميّت فتخطفه الجوارح أو يموت. وهو حديد
حاسّة الشمّ. ومتى شمّ رائحةً طيّبةً هرب. وهو يحبّ رائحة الكرّاث والبصل؛ وربما
صيد بهما. ومن دأبه طول الكدّ ودوام الحفر. وفي تركيبه أنه لا يفرط في الطّلب ولا يقصّر
عنه. وله وقت يظهر فيه لا يخطئه ولا يغلط في المقدار. ويضرب به المثل في حدّة السمع؛
فيقال: "أسمع من خلدٍ".

اليربوع

فهو حيوان طويل الرّجلين، قصير اليدين جدّاً. وله ذنبٌ كذنب الجرذ، يرفعه صعداً، في
طرفه شبه النّوّارة. ولونه لون الغزال. ويقال لولده درصٌ، والجمع أدراص. قال أصحاب
الكلام في طبائع الحيوان: كلّ دابة حشاها الله خبثاً فهي قصيرة اليدين. وهو يسكن بطن
الأرض لتقوم رطوبتها له مقام الماء. وهو يؤثر النسيم ويكره البخار. وهو يتّخذ جحره على
نشزٍ من الأرض ويحفره، ويفتح له أبواباً على مهبّ الرياح وتسمّى النّافقاء والقاصعاء
والدّامّاء والرّاهطاء. فإذا طلب من أحد هذه الأبواب خرج من الآخر. وهو يجترّ ويبعر.
وله كرشٌ وأسنان وأضراس. وهو من الحيوان الذي ينقاد إلى رئيس منه. والرئيس منها
إذا كان فيها يرتفع عنها فيكون في مكان مشرفٍ أو على صخرة ينظر منه إلى الطريق. فإن
رأى ما يخاف عليها صرّ بأسنانه وصوّت، فتسمعه فتنصرف إلى جحرتها؛ وإن أغفل ذلك
ورأت ما تخافه قبل أن يراه قتلته، لتضييعه الحزم وغفلته، ونصبت غيره لرياستها. وإن
أرادت اليرابيع الخروج من جحرتها لطلب المعاش خرج الرئيس قبلها وأشرف؛ فإذا لم ير ما
يخافه عليها صرّ لها وصوّت فتخرج. قالوا: ويتولّد من اليربوع والفأرة ولدٌ يسمى القرنب.

فارة المسك

فقال الجاحظ: إنها دويبّةٌ تكون في بلاد تبّت تصاد لنوافجها وسررها. فإذا اصطيدت
عصبت سرتها بعصابٍ وهي مدلاّة فيجتمع فيها دمها؛ فإذا اجتمع ذبحت، ثمّ تقوّر السّرّة

المعصوبة وتدفن في الشّعير حيناً فيستحيل ذلك الدّم المختنق الجامد مسكاً ذكياً بعد أن
كان منتناً. يقال: إن هذه الفأرة توجد في بلاد الزّابج وتحمل إلى السّند، وإن المسك يخرج
من خصيتي ذكورها بالعصر، ومن ضروع إناثها بالحلب. ويقال: إن الفأر الفارسيّ أطيب
ريحاً من كلّ طيبٍ، وربما ضاهى ريح المسك. وهو أجرد أشقر، شعره إلى الصّفرة، شديد
كحل العين، طويل الأذنين، قصير الذّنب.

فارة الإبل

فليست بحيوان، وإنما هي رائحةٌ تسطع من الإبل عند صدورها من الورد ينتجها طيب
الرّعي. قال الشاعر:

لها فأرةٌ ذفراء كلّ عشيّةٍ كما فتق الكافور بالمسك فاتقه

القراد

فقد قالوا: أوّل ما يكون قمقامة وهو الذي لا يكاد يرى من صغره، ثم يصير حمنانة ثم
يصير قراداً ثم يصير حلماً. ويقال للقراد: العلّ والطلح والقتين والبرام والقرشام.
والقراد يخلق من عرق البعير ومن الوسخ والتّلطّخ بالثّلط والأبوال؛ كما يخلق القمل من
عرق الإنسان. وفي طبع القراد أنه يسمع رغاء الإبل من فراسخ فيقصدها؛ حتى إنّ
أصحاب الإبل يبعثون إلى الماء من يصلح لإبلهم الأرشية وآلات السّقي، فتبيت الرّجال عند
البئر تنتظر مجيء الإبل، فيعرفون قربها من القراد بانبعاثه في جوف الليل وسرعة حركته
ومروره، فإذا رأوا ذلك منه تهيّئوا للعمل.
ويقول من اعتنى بالحيوان وتكلّم في طبائعه: إنّ لكل حيوانٍ قراداً يناسب مزاجه.
وهم يضربون المثل بالقراد في أشياء، فيقولون: "أسمع من قرادٍ"، و "ألزق من قرادٍ"، وما هو
إلا قراد ثفرٍ. وأنشد الجاحظ لبعض الشعراء في القراد:

ألا يا عباد الله هل لقبيلةٍ إذا ظهرت في الأرض شدّ مغيرها
لا الدّين ينهاها ولا هي تنتهي ولا ذو سلاحٍ من معدٍّ يضيرها

النّمل والذّرّ

قال الله عز وجل: "وحشر لسليمان جنوده من الجنّ والإنس والطّير فهم يوزعون. حتّى
إذا أتوا على وادي النّمل قالت نملةٌ يأيها النّمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنّكم سليمان
وجنوده وهم لا يشعرون". وجاء في الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل منزلاً

فانطلق لحاجةٍ فجاء من حاجته وقد أوقد رجلٌ على قرية نملٍ إما في شجرةٍ وإمّا في
الأرض؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من فعل هذا أطفئها أطفئها أطفئها".
وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال: "نزل نبيٌّ من الأنبياء
تحت شجرةٍ فعضّته نملةٌ فقام إلى نملٍ كثيرٍ تحت الشجرة فقتلهنّ فقيل له: أفلا نملةً واحدةً".
وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: "نزل نبيٌّ من
الأنبياء تحت شجرةٍ فقرصته نملةٌ فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ثم أمر بقرية النّمل فأحرقت
فأوحى الله غليه أن قرصتك نملةٌ أهلكت أمّةً من الأمم يسبّحن الله فهلاّ نملةً واحدةً".
وجاء في الأثر: أنّ سليمان بن داود عليهما السلام خرج يستسقي، فرأى نملةً مستلقيةً على
ظهرها رافعةً قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنّا خلقٌ من خلقك، ليس لنا غنىً عن
سقيك؛ فإما أن تسقينا وترزقنا، وإما أن تميتنا وتهلكنا. فقال للناس: "ارجعوا، فقد
سقيتم بدعاء غيركم".
وقال الجاحظ: وكان ثمامة يزعم أنّ النمل ضأن الذّرّ. قال: والذي عندي أنّ النمل والذّر
مثل الفأر والجرذ، والبقر والجواميس. قال: والذّرّ أجود فهماً وأصغر جثّةً.
وزعم ابن أبي الأشعث أنّ النمل لا يتزاوج ولا يتوالد ولا يتلاقح، وإنما يسقط منه شيءٌ
حقير في الأرض فينمو حتى يصير بيظاً فيتكوّن منه.
والنمل من الحيوان المحتال في طلب المعاش يفرّق لذلك؛ فإذا وجد شيئاً أنذر الباقين فيأتين
إليه ويأخذن منه. وكلّ واحد مجتهد في إصلاح شأن العامّة غير مختلسٍ لشيء من الرزق
دون صحبه. ويقال: إنما يفعل ذلك منها رؤساؤها ومن تحيّله في طلب الرزق أنه ربما وضع
بينه وبين ما يخاف عليه منه ما يمنعه من الوصول إليه من ماءٍ أو شعرٍ، فيتسلّق في الحائط
ويمشي على جذع من السّقف حتى يسامت ما حفظ منه ثم يلقي نفسه عليه. وفي طبعه
وعادته أن يحتكر في زمن الصيف لزمن الشتاء. وهو إذا خاف على ما يدّخره من الحبوب
من العفن والسّوس أو التّنديّ من مجاورة بطن الأرض، أخرجها إلى ظاهر الأرض حتى

تيبس ثم يعيدها. وإن خاف على الحبّ أن ينبت من نداوة الأرض نقر في موضع القطمير
من وسط الحبّة وهو الموضع الذي يبتدئ منه النّبات؛ ويفلق جميع الحبّ أنصافاً؛ فإن كان
من حبّ الكزبرة فلقه أرباعاً، لن أنصاف حبّ الكزبرة تنبت. فالنمل من هذا الوجه في
غاية الحزم. فسبحان الملهم لا إله غيره.
وليس شيءٌ من الحيوان يقوى على حمل ما يكون ضعف وزنه مراراً غير النملة. والنّمل
يشمّ ما ليس له ريحٌ ممّا لو وضعه الإنسان عند أنفه لما وجد له ريحاً. ومن أسباب هلاك
النملة نبات الأجنحة لها؛ فإذا صار النمل كذلك صادته العصافير وأكلته. وفي ذلك يقول
أبو العتاهية:

وإذا استوت للنّمل أجنحةٌ حتّى يطير فقد دنا عطبه

ومن أصناف النمل صنفٌ يسمّى نمل الأسد؛ سمّي بذلك لأن مقدّم النملة يشبه وجه
الأسد ومؤخّرها كالنّمل. وزعم بعض من تكلّم في طبائع الحيوان أنه متولّد، وأن أباه أكل
لحماً، وأمّه أكلت نباتاً، فينتج بينهما على هذه الصفة.
وقد وصفه الشعراء؛ فمن ذلك قول شاعر:

غزاةٌ يولّي الليث عنهنّ هارباً وليست لها نبلٌ حدادٌ ولا عمد
قصار الخطا حمش القوائم ضمّر مشمّرةٌ لا تشتكي الأين والحرد
وتعدو على الأقران في حومة الوغى نشاطاً كما يعدو على صيده الأسد
إذا ذكرت طيب الهياج تنفّست تنفّس ثكلى قد أصيب لها ولد
كأكراد زنجانٍ تريد قضاضةً وتلك الصّعاليك الغرائب في البلد
وفيهنّ أجناسٌ تشابهن صورةً وباينّ في الهمّات واللون والجسد
فمنهنّ كمتٌ كالعناكيب أرجلاً وساع الخطا قد زان أجيادها الغيد
إذا انتهزت طارت وإن هي خلّدت رأت ورد أحواض المنايا من الرّشد
وسودٌ خفاف الجسم لو عضّت الصّفا رأيت الصّفا من وقع أسنانها قدد
يفدن علينا مفسداتٍ جفاننا وأزوادنا أبغض إلينا بما وفد

وقال أبو هلال العسكريّ:

وحيٍّ أناخوا في المنازل باللّوى فصاروا به بعد القطين قطينا
إذا اختلفوا في الدار ظلّت كأنها تبدّد فيها الريح بزر قطونا

إذا طرقوا قدري مع الليل أصبحت بواطنها مثل الظواهر جونا
لهم نظرةٌ يسرى ويمنى إذا مشوا كما مرّ مرعوبٌ يخاف كمينا
ومشون صفّاً في الديار كأنما يجرّون خيطاً في التراب منينا
وفي كل بيتٍ من بيوتي قريةٌ تضمّ صنوفاً منهم وفنونا
فيا من رأى بيتاً يضيق بخمسةٍ وفيه قريّاتٌ يسعن مئينا

القمل والصّؤاب

قال الجاحظ: ذكروا عن إياس بن معاوية أنه يزعم أنّ الصّئبان ذكورة القمل، وأنّ القمل من
الشكل الذي تكون إناثه أعظم من ذكورته.
قال الجاحظ: والقمل يعتري من العرق والنسخ إذا علاهما ثوبٌ أو ريشٌ أو شعر، حتى
يكون لذلك المكان عفنٌ وخموم. والقملة يكون لونها بحسب لون الشعر في السّواد والبياض
والشّمط وفي لون الخضاب، وينصل إذا نصل. قال: والقمل يعرض لثياب كل إنسانٍ إذا
عرض لها الوسخ أو العرق أو الخموم، إلا ثياب المجذّمين فإنهم لا يقملون. وإذا قمل إنسانٌ
وأفرط عليه القمل زابق رأسه فيتناثر القمل. قال: وربما كان الإنسان قملٌ الطّباع وإن
تنظّف و تعطّر وبدّل أثوابه؛ كما عرض لعبد الرحمن بن عوف والزّبير بن العوّام رضي الله
عنهما، حتى استأذنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في لباس الحرير؛ فأذن لهما فيه لهذه
الضرورة ولدفع هذا الضرر.
وقد وصف الشعراء القمل في أشعارهم؛ فمن ذلك قول بعض العقيليّين وقد مرّ بأبي العلاء
العقيليّ وهو يتفلّى، فقال:

وإذا مررت به مررت بقانص متصيّدٍ في شرقةٍ مقرور
للقمل حول أبي العلاء مصارعٌ ما بين مقتولٍ وبين عقير
فكأنهنّ إذا علون قميصه فدٌّ وتوءم سمسمٍ مقشور
ضرج الأنامل من دماء قتيلها حنقٌ على أخرى بعدو مغير

وقال الحسن بن هانئ في رجل اسمه أيّوب:

من ينأ عنه مصاده فمصاد أيّوبٍ ثيابه
يكفيه منها نظرةٌ فتعلّ من علقٍ حرابه
يا ربّ محترزٍ بجي ب الرّدن تكنفه صؤابه
فاشي النّكايةِ غير مع لومٍ إذا دبّ انسيابه
أو طامريٍّ واثبٍ لم ينجه عنه وثابه
أهوى له بمزلّق ال عرنين إصبعه نصابه
لله درّك من أخي قنصٍ أصابعه كلابه

القسم الخامس من الفن الثالث

أجناس الطير وأنواع السمك
وفيه سبعة أبواب: ستة منها في الطير، وباب في السمك.
وذيّلت عليه بباب ثامن أوردت
فيه ذكر شيء مما قيل في آلات صيد البرّ والبحر.
قال الجاحظ في كتاب الحيوان: إنّ الحيوان على أربعة أقسام:
شيءٌ يطير، وشيء يعوم،
وشيء ينساح، وشيء يمشي؛ إلاّ أنّ كلّ طائر يمشي، وليس كلّ
شيء يمشي طائراً. قال:
واسم طائر يقع على ثلاثة أشياء: صورةٍ، وطبيعةٍ، وجناحٍ؛ وليس
بالرّيش والقوادم والأباهر
والخوافي يسمى طائراً ولا بعدمه يسقط ذلك عنه. ألا ترى أنّ
الخفاش والوطواط من الطير
وإن كانا أمرطين ليس لهما ريشٌ ولا زغب ولا شكير.
قال: والطير كلّه سبعٌ وبهيمةٌ وهمجٌ. والسّباع من الطير على
ضربين: فمنها العتاق،
والأحرار، والجوارح. ومنها البغاث، وهو كلّ ما عظم من الطير
سبعاً كان أو بهيمة إذا لم
يكن من ذوات السّلاح والمخالب المعقّفة كالنّسور والرّخم
والغربان وما أشبهها من لئام
السّباع. ثم الخشاش وهو ما لطف جرمه وصغر شخصه وكان
عديم السلاح.
وقال: إذا باض الطائر بيضاً لم تخرج البيضة من حدّ التحديد
والتلطيف بل يكون الجانب
الذي يبدأ بالخروج الجانب الأعظم. وما كان من البيض مستطيلاً
محدّد الأطراف فهو
للإناث، وما كان مستديراً عريض الأطراف فهو للذكور. والبيضة
عند خروجها تكون ليّنة
القشر غير جاسئةٍ ولا يابسةٍ ولا جامدةٍ. قال: والبيض الذي
يتولّد من الريح والتراب أصغر
وألطف، وهو في الطّيب دون الآخر. ويكون بيض الريح من
الدّجاج والقبج والحمام
والطاوس والإوزّ. قال: وحضن الطائر وجثومه على البيض
يكون صلاحاً لبدن الطائر كما
يكون صلاحاً لبدن البيض. قال: وزعم ناسٌ أنّ بيض الرّيح إنما
يكون عن سفادٍ متقدّمٍ.
وذلك خطأ من وجهين: أمّا أحدهما، فإن ذلك قد عرف من
فراريج لم تر ديكاً قطّ.
والآخر أن بيض الرّيح لم يكن منه فروخٌ قطّ. وبيض الصّيف
المحضون أسرع خروجاً منه
في الشتاء.
فهذه جملٌ من أحوال الطير فرّقها الجاحظ في كتابه في عدّة
مواضع جمعناها وألّفنا بعضها

إلى بعض. فلنذكر كلّ جنسٍ من الطير، ونشرح ما يخصّه من الكلام وما قيل فيه. وغير
الجاحظ قسّم الطير إلى أقسام، فجعل منها سباعاً، وكلاباً، وبهائم، وبغاثاً، وليليّاً، وهمجاً؛
وعلى ذلك بوّبنا هذا القسم؛ على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى.
الباب الأوّل من القسم الخامس من الفن الثالث في
سباع الطير
ويشتمل هذا الباب على ما قيل في العقاب والبزاة والصقور والشّواهين، وأصناف ذلك،
وما يتصف به كلّ طير منها وما فه من الطبائع والعادة، وما يصيد، وما فيه من الأمارات
الدّالّة على نجابته وفراهته، وغير ذلك مما تقف عليه إن شاء الله تعالى.
العقاب
يقال: إنّ العقاب جميعه أنثى وليس فيه ذكر. ويسمى عند أهل اللغة العنقاء. وهي عقابٌ
وزمّجٌ. فأما العقاب فيقال: إنّ ذكورها من طيرٍ آخر لطيف الجرم. وهي تبيض في الغالب
ثلاث بيضاتٍ فيخرج لها فرخان. قال الجاحظ: ثم اختلفوا، فقال بعضهم: لأنها لا تحضن
إلاّ بيضتين؛ وقال آخرون: قد تحضن ويخرج لها ثلاثة أفراخ ولكنها ترمي بالواحد استثقالاً
للتكليف على ثلاثة؛ وقال آخرون: ليس ذلك إلاّ لما يعتريها من الضعف عند الصيد، كما
يعتري النّفساء من الوهن والضعف. وهي تحضن ثلاثين يوماً. وما عداها من الجوارح
تبيض بيضتين في كل سنة وتحضن عشرين يوماً.
قالوا: وفي طبع الذكر انه يمتحن أنثاه هل هي محافظة له أو مؤاتية لغيره من غير جنسه،
بأن يصوّب نظر فرخيه إلى شعاع الشمس، فإن ثبت عليه تحقّق أنها فراخه وأمسكها، وإن
نبا بصره عن شعاع الشمس ضرب الأنثى كما يضرب الرجل المرأة الزانية وطردها من
ووكره ورمى الفرخين.
والعقاب خفيفة الجناح، سرية الطيران، فهي إن شاءت ارتفعت على كل شيءٍ وإن شاءت
كانت بقربه. يقال: إنها تتغذى بالعراق وتتعشى باليمن. وربما صادت حمر الوحش، وذلك
أنها إذا نظرت الحمار رمت نفسها في الماء حتى يبتل جناحاها، ثم تتمرّغ في التراب وتطير

حتى تقع على هامة الحمار، ثم تصفّق على عينيه بجناحيها فتملؤهما تراباً، فلا يرى الحمار
أين يذهب فيؤخذ. وهي مولعة بصيد الحيّات. وفي طبعها قبل أن تتدرّب أنها لا تراوغ
صيداً ولا تعنى فيطلبه، ولا تزال موفيةً على شرفٍ عالٍ؛ فإذا رأت سباع الطير قد
صادت شيئاً انقضّت عليه، فتتركه لها وتنجو بنفسها. ومتى جاعت لم يمتنع عليها
الذئب. وهي شديدة الخوف من الإنسان. ويقال : إنها إذا هرمت وثقل جناحها وأظلم
بصرها التمست غديراً؛ فإذا وجدته حلّقت طائرةٌ في الهواء ثم تقع من حالقٍ في ذلك الغدير
فتنغمس فيه مراراً، فيصحّ جسمها ويقوى بصرها ويعود ريشها ناشئاً إلى حالته الأولى.
وهي متى ثقلت عن النهوض أو عميت حملتها الفراخ على ظهورها ونقلتها من مكان إلى
آخر لطلب الصيد وتعولها إلى أن تموت. ومن عجيب ما ألهمت أنها إذا اشتكت كبدها
رفعت الأرانب والثعالب في الهواء وأكلت أكبادها فتبرأ. وهي تأكل الحيّات إلاّ رءوسها،
والطّير إلا قلوبها. قال امرؤ القيس:

كأنّ قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العنّاب والحشف البالي

ومنسرها الأعلى يعظم ويتعقّف حتى يكون ذلك سبب هلاكها؛ لأنها لا تنال به الطّعم إذا
كان كذلك. وأوّل من صاد بها أهل المغرب. وحكي أنّ قيصر أهدى إلى كسرى عقاباً،
وكتب إليه: علّمها فإنها تعمل عملاً أكثر من الصقور التي أعجبتك. فأمر بها فأرسلت على
ظبيٍ عرض لها فقدّته، فأعجبه ما رأى منها؛ ثم جوّعها ليصيد بها، فوثبت على صبيّ من
حاشيته فقتلته؛ فقال كسرى: غزانا قيصر في بلادنا بغير جيش. ثم أهدى له نمراً وكتب
إليه: قد بعثت إليك بما تقتل به الظّباء وما قرب منها من الوحش؛ وكتم عنه ما صنعت
العقاب. فأعجب به قيصر. فغفل عنه يوماً فافترس بعض فتيانه؛ فقال: صادنا كسرى؛ فإن
كنّا صدناه فلا بأس. فلمّا اتّصل ذلك بكسرى قال: أنا أبو ساسان.
وأجود العقاب ما جلب من سرت وبلاد المغرب.
وقد وصفها الشعراء فمن ذلك ما قاله أبو الفرج الببّغاء:

ما كلّ ذات مخلبٍ وناب من سائر الجارح والكلاب

بمدركٍ في الجدّ والطّلاب أيسر ما يدرك العقاب
شريفة الصّبغة والأنساب تطير من جناحها في غاب
وتستر الأرض عن السّحاب وتحجب الشمس بلا حجاب
يظلّ منها الجوّ في اغتراب مستوحشاً للطير كالمرتاب
ذكيّةٌ تنظر من شهاب ذات جرانٍ واسع الجلباب
ومنكبٍ ضخمٍ أثيثٍ رابي ومنسرٍ موثّق النّصاب
وراحتي ليثٍ شرىً غلاّب نيطت إلى براثنٍ صلاب
مرهفةٍ أمضى من الحراب وكلّ ما حلّق في الضّباب
لملكها خاضعة الرّقاب

الزّمّج

فهو الصّنف الثاني من العقاب، ويعدّ من خفاف الجوارح. وهو سريع الحركة شديد
الوثبة. ويوصف بالغدر. ومن عادته أنه يتلقّف الطائر كما يتلّقفه البازي، ويصيد على وجه
الأرض كما تصيد العقاب. ويحمد من خلقه أن يكون أحمر اللون، ولا يحمد ما قرنص منه
وحشيّاً.
وقد وصفه أبو الفرج الببّغاء فقال:

يا ربّ سربٍ آمنٍ لم يزعج غاديته قبل الصّباح الأبلج
بزّمجٍ أدلق حوشٍ أهوج مضبّر المنكب صلب المنسج
ذي قصبٍ عبلٍ أصمّ مدمج وجؤجؤٍ كالجوشن المدرّج
وعنقٍ سامٍ طويلٍ أعوج ومنسرٍ أقنى فسيح مسرج
منخرق المدخل رحب المخرج ومقلةٍ تشفّ عن فيروزج
ناظرةٍ من لهبٍ مؤجّج وهامةٍ كالحجر المدملج
ومخلبٍ كالمعول المعوّج

البازي

قالوا: والبازي خمسة أصناف، وهي البازي، والزّرّق، والباشق، والعفصيّ، والبيدق.
فأمّا البازي
فهو الثاني من الجوارح، وهو أحرّ هذه الأصناف الخمسة مزاجاً، لأنه قليل الصبر على
العطش. ومأواه مساقط الشجر العاديّة الملتفّة والظلّ الظّليل ومطّرد المياه. وهو لا يتّخذ
وكراً إلاّ في شجرة لها شوك. وإذا أراد أن يفرّخ بنى لنفسه بيتاً وسقّفه تسقيفاً جيّداً يقيه
من المطر ويدفع عنه وهج الحرّ. وسبيله في البرد أن يدفأ بالنار ويجعل تحت كفّيه وبر
الثعالب واللّبود؛ وفي الصيف أن يجعل في بيت كنينٍ بارد النّسم ويفرش له الرّيحان
والخلاف. وهو خفيف الجناح، سريع الطيران، يلفّ طيرانه كالتفاف الفواخت؛ ويسهل

عليه أن يزجّ بنفسه صاعداً وهابطاً وينقلب على ظهره حتى يلتقف فريسته. والإناث منه
أجرأ على عظام الطير من الذّكور. ويقال: إن الإناث إذا كان وقت سفادها يغشاها جميع
أنواع الضّواري: الزّرّق والشاهين والصّقر، وإنها تبيض من كل طائر يغشاها؛ ولهذا تجيء
مختلفة الأخلاق. والبازي يصيد ما بين العصفور والكركيّ. ومن عادته أنه إذا أخطأ
صيده وفاته وكان في برّيّةٍ لا شجر فيها ولىّ ممعناً حتى يجد كهفاً أو جداراً يأوي إليه؛
ولهذا علّق عليه الجرس ليدلّ على مكانه إذا خفي.
وصفة الجيّد منه المحمود في فعله أن يكون قليل الريش، أحمر العينين حادّهما، وأن تكونا
مقبلتين على منسره وحجاجاهما مطلّين عليهما، ولا يكون وضعهما في جنبي رأسه كوضع
عيني الحمام. والأزرق منه دون الأحمر العين؛ والأصفر دونهما. وسعة أشداقه تدلّ على
قوّة الافتراس. ومن صفاته المحمودة أن يكون طويل العنق عريض الصدر، بعيد ما بين
المنكبين، شديد الانخراط إلى ذنبه، وأن تكون فخذاه طويلتين مسرولتين بريش، وذراعاه
قصيرتين غليظتين، وأشاجع كفّيه عاريةً، وأصابعه متفرّقةً ولا تكون مجتمعةً ككفّ الغراب،
ومخلبه أسود، ويكون طويل المنسر دقيقه. وأفخر ألوانه الأبيض ثم الأشهب، وهما لونان
يدلاّن على الفراهة والكرم. وأما الأسود الظهر المنقّش الصدر بالبياض والسواد فهو يدلّ
على الشدّة والصّلابة. وإن اتفق أن يكون هذا أحمر العين كان نهايةً. وهذا اللون في البزاة
كالكميت في الخيل. والأحمر في البزاة أخبثها. وبعض الناس يقول: أشرف البزاة الطّغرل،
ثم البازي التامّ وهو الذي وصفناه آنفاً. والطّغرل: طائرٌ غزيزٌ نادر الوقوع لا يعرفه غير التّرك،
لأنه يكون في بلاد الخزر وما والاها وما بين خوارزم إلى إرمينية، وهو يجمع صيد البازي
والشاهين. وقيل: إنه لا يعقر شيئاً بمخلبه إلاّ سمّه.
وأوّل من صاد البازي لذريق أحد ملوك الروم الأول؛ وذلك أنه رأى بازياً إذا علا كتف،
وإذا سفل خفق، وإذا أراد أن يسمو درق؛ فاتّبعه حتى اقتحم شجرةً ملتفةً كثيرة الدّغل؛
فأعجبته صورته، فقال: هذا طائر له سلاحٌ تتزين بمثله الملوك؛ فأمر بجمع عدّة من البزاة

فجمعت وجعلت في مجلسه. فعرض لبعضها أيم فوثب عليه؛ فقال: ملكٌ يغضب كما
تغضب الملوك. ثم أمر به فنصب على كندرةٍ بين يديه؛ وكان هناك ثعلبٌ فمرّ به مجتازاً،
فوثب عليه فما أفلت منه إلاّ جريحاً؛ فقال لذريق: هذا جبّارٌ يمنع حماه. ثم أمر به فضرّي
على الصيد؛ واتخذه الملوك من بعده.
وقد وصفته الشعراء والأدباء؛ فمن ذلك قول الناشي:

لما تعرّى الليل عن أنساجه وارتاح ضوء الصبح لانبلاجه
غدوت أبغي الصيد من منهاجه بأقمرٍ أبدع في نتاجه
ألبسه الخالق من ديباجه ثوباً كفى الصانع من نساجه
حالٍ من الساق إلى أوداجه وشياً يحار الطّرف في اندراجه
في نسقٍ منه وفي انعراجه وزان فوديه إلى حجاجه
بزينةٍ كفّته عزّ تاجه منسره يثنى على خلاجه
وظفره يخبر عن علاجه لو استضاء المرء في إدلاجه
بعينه كفته عن سراجه

وقال ابن المعتزّ يصف عين البازي:

ومقلة تصدقه إذا رمق كأنها نرجسةٌ بلا ورق

وقال أيضاً فيه:

وفتيانٍ غدوا والليل داجٍ وضوء الصبح متّهم الطلوع
كأن بزاتهم أمراء جيشٍ على أكتافها صدأ الدّروع

وقال أيضاً:

ومنسرٍ عضب الشباة دامي كعقدك الخمسين بالإبهام
وخافقٍ للصّيد ذي اصطلام ينشره للنّهض والإقدام
كنشرك البرد على المستهام

ووصفه أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة الأندلسيّ فقال من رسالة:

طائرٌ يستدلّ بظاهر صفاته، على كرم ذاته؛ طوراً ينظر نظر الخيلاء في عطفه كأنما يزهى
جبّار، وتارةً يرمي نحو السماء بطرفه كأنما له هناك اعتبار. وأخلق به أن ينقضّ على
قنيصه شهاباً، ويلوي به ذهاباً، ويحرقه توقّداً والتهاباً. وقد أقيم له سابغ الذّنابي والجناح،
كفيلين في مطالبه بالنّجاح. جيّد العين والأثر، حديد السمع والبصر. يكاد يحسّ بما يجري
ببال، ويسري من خيال. قد جمع بين عزّة مليك، وطاعة مملوك. فهو بما يشتمل عليه من
علوّ الهمّه، ويرجع إليه بمقتضى الخدمه؛ مؤهّل لإحراز ما تقتضيه شمائله، وإنجاز ما تعد به
مخايله. وخليق بمحكم تأديبه، وجودة تركيبه؛ أن لو مثل له النجم قنصاً، وأو جرى بذكره

البرق قصصاً؛ لاختطفه أسرع من لحظه، وأطوع من لفظه؛ وانتسفه أمضى من سهم،
وأجرى من وهم. وقد أقسم بشرف جوهره، وكريم عنصره؛ لا يوجّه مسفّراً، إلا غادر
قنيصه معفّراً، وآب إلى يد من أرسله مظفّراً؛ مورّد المخلب والمنقار، كأنما اختضب بحنّاء
أو كرع في عقار.
وله من أبيات يمدح بها:

طرد القنيص بكلّ قيد طريدةٍ زجل الجناح مورّد الأظفار
ملتفّة أعطافه بحبيرةٍ مكحولة أجفانه بنضار
يرمي به الأمد البعيد فينثني مخضوب راء الظّفر والمنقار

الزّرّق
وهو الصّنف الثاني من البازي. وهو باز لطيفٌ، إلا أن مزاجه أحرّ وأيبس، وهو لذلك
أشدّ جناحاً وأسرع طيراناً وأقوى إقداماً. وفيه ختلٌ وخبثٌ؛ وذلك أنه إذا أرسل على
طائر طار في غير مطاره ثم عطف عليه وأظهر الشدّة بعد اللين. وخير ألوانه الأسود الظهر
الأبيض الصدر الأحمر العين. ووصفه المحمود منه أن يكون أعدلها خلقاً، وأقلّها ريشاً،
وأنقلها محملاً، وأملأها فخذاً، وأرحبها شدقاً، وأوسعها عيناً، وأصغرها رأساً، وأصفاها
حدقةً، وأطولها عنقاً، وأقصرها خافيةً، وأشدّها لحماً، وأن يكون أخضر الرجلين، وسيع
المخالب، متعرّياً من اللحم. والله أعلم.

الباشق
وهو الصنف الثالث من البازي. وهو أحرّ وأيبس من الزّرّق، وهو هلعٌ قلقٌ ذعر، يأنس
وقتاً ويستوحش وقتاً. ونفسه قويّة جافيةٌ. فإذا أنس منه الصغير بلغ منه كلّ المراد.
وأجود الباشق ما أخذ فرخاً لم يلق من قوادمه ريشة. وهو متى تمّ تأنيسه وجد منه بازٍ
خفيف المحمل ظريفً الشمائل.
ومن صفاته المحمودة أن يكون صغير المنظر، ثقيل المحمل، طويل الساقين والفخذين، عظيم
السّلاح بالنسبة إلى جسمه.
وقال بعض الشعراء يصفه:

إذا بارك الله في طائرٍ فحصّ من الطير إسبهرقي
له هامةٌ كلّلت باللّجينً فسال اللّجين على المفرق
يقلّب عينين في رأسه كأنهما نقطتا زئبق
واشرب لوناً له مذهباً كلون الغزالة في المشرق
حمام الحمام وحتف القطا وصاعقة القبج والعقعق

وأحنى عليك إلى أن يعود إليك من الوالد المشفق
فأكرم به وبكفّ الأمير وبالدّستبان إذا يلتقي
وقال أبو الفتح كشاجم:
يسمو فيخفى في الهواء وينكفي عجلاً فينقضّ انقضاض الطارق
وكأن جؤجؤه وريش جناحه خضبا بنقش يد الفتاة العاتق
وكأنما سكن الهوى أعضاءه فأعارهنّ نحول جسم العاشق
ذا مقلةٍ ذهبيّةٍ في هامةٍ محفوفةٍ من ريشها بحدائق
ومخالبٍ مثل الأهلّة طالما أدمين كفّ البازيار الحاذق
وإذا انبرى نحو الطريدة خلته كالرّيح في الأسماع أو كالبارق
وإذا دعاه البازيار رأيته أدنى وأطوع من محبٍّ وامق
وإذا القطاة تخلّفت من خوفه لم يعد أن يهوى بها من حالق
ومن رسالة لبعض فضلاء الأندلس، جاء منها:
كأنما اكتحل بلهب، أو انتعل بذهب. ملتفٌّ في سبره، وملتحفٌ بحبره. من سيوفه منقاره،
ومن رماحه أظفاره. ومن اللواتي تتنافس الملوك فيها، تمسكها عجباً بها وتيهاً. فهي على
أيديها آيةٌ باديه، ونعمةٌ من الله ناميه. تبذل لك الجهد صراحاً، وتعيرك في نيل بغيتك
جناحاً. وتتّفق معك في طلب الأرزاق، وتأتلف بك على اختلاف الخلق والأخلاق. ثم
تلوذ بك لياذ من يرجوك، وتفي لك وفاءً لا يلتزمه لك ابنك ولا أخوك. ثم ذكر حمامةً
صادها، فقال: اختطفها أسرع من اللّحظ، ولا محيد لها عنه، وانحدر بها أعجل من اللّفظ،
وكأنها هي منه؛ ثم جعل يتناولها بعقد السبعين، ويدخلها في أضيق من التسعين. وكان لها
موتاً عاجلاً، وكانت له قوتاً حاصلاً. والله الهادي للصواب.
العفصيّ
وهو الصنف الرابع من البازي. وهو من الباشق كالزّرّق من البازي، إلا أنه أصغر الجوارح
نفساً، وأضعفها حيلةً، وأشدّها ذعراً، وأيبسها مزاجاً. وربما صاد العصفور وتركه لخوفه
وحذره. ومن عادته أنه يرصد الطير أيام حضانه، فإذا طار عن وكره خلفه فيه وكسر
بيضه ورماه وباض مكانه وطار عنه فيحضنه صاحب الوكر؛ فهو أبداً لا يحضن ولا يربّي.
البيدق
وهو الصنف الخامس من البازي، وهو لا يصيد غير العصافير. وقد وصفه كشاجم